

دراسة في الأدب الإسلامي المقارن

غزوات الرسول

بين شعراء الشعوب الإسلامية

الدكتور حسين مجيب المصري



الدار الثقافية للنشر



غزوات الرسول

بين

شعراء الشعوب الإسلامية

دراسة في الأدب الإسلامي المقارن

د. حسين مجيب المصري



الدار الثقافية للنشر

Ghasawat Al- Rasoul

عنوان الكتاب: غزوات الرسول

Dr. Husein Mogeib Al- Massry د. حسين مجيب المصرى

17x24 cm. 215p

١٧×٢٤سم. ٢١٥ص.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩/٢٢٨٧

الترقيم الدولي: 977-5875-69-2 ISBN:

اسم الناشر: الدار الثقافية للنشر

اسم المطبعة: المطبعة العصرية - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر

الدار الثقافية للنشر القاهرة



ص.ب ١٣٤ بابوراما أكتوير-هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى من كان أهل إيمان و يقين، وفطن ما للجهاد من
مكان بين أصول الدين، وذكر أنه ﷺ ضرب في الجهاد
المثل الأعلى، وقدم الأسوة الحسنى، فغبط المجاهدين
على حسن مثوبتهم عند رب العالمين.

تقدمة

من الحق أن المغازى لها ما لها من صدارة وعلوية فى السيرة النبوية على الأخص، ولا يخفى ما لها من مرموق الأهمية فى تاريخ الإسلام على الأعم، وما ذاك إلا أن التصدى لها بالذكر يورد على الخاطر صوراً صادقة ناطقة عن نفسية وواقعية المسلمين الذين عمرت قلوبهم بالإيمان واليقين، كما أنها المثال الأمثل للجهاد فى سبيل الله الذى هو بغية المتقين الذين يعقدون أملهم بالنعيم فى عليين.

وأول ما يقال فى هذا الصدد خاصاً بالجهاد وعظيم فضله أنه يعد ركناً سادساً من أركان الإسلام، ورتبة بين الإيمان بالله ورسوله.

وروى عن أبى هريرة أنه قال سئل النبى ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا. قال الجهاد فى سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور^(١). وهذا واضح الدلالة على أن الجهاد قبل الحج فى الفضل، وهذا ما يدرك من أحاديث شريفة لا تحصى كثرة.

وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق"^(٢) وقوله ﷺ قاطع ناصع البرهان على أن الجهاد هو الواجب الأوجب على المسلم، ويسبغى أن يحدث نفسه به ويرغبها فيه، على أن ذلك أضعف الإيمان وهذا ما لا تمس الحاجة فيه إلى دليل؛ لأن هذا الجهاد إنما كان فى مطلع الإسلام، شيئاً لا غنية عنه للذود عن الدين الخفيف أول ظهور نوره، والوقوف موقف الدفاع من أعداء الدين الخفيف الذين تمنوا أن لم يكن، وكانوا عصابة وكثرة أولى بأس والمسلمون آنذاك قلة، قوتهم فى إيمانهم، والوقوف عند حدود دينهم الذى أمرهم بالجهاد لحماية كياناتهم وعقيدتهم من المعتدين الطغاة البغاة.

ولا غرو فإن الدفاع عن النفس مركز فى طباع الإنسان، وما سوى الإنسان. ولا ملامة على من دفع عن نفسه شراً وخطراً، وأولى بالمؤمن ثم أولى به أن يعد ما استطاع من قوة حفاظاً على إيمانه ممن أرادوا به السوء كل السوء والأذى كل الأذى.

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: الجهاد فى سبيل الإسلام ص ٣، ٤ (القاهرة ١٩٦٤م)

(٢) د عبد الحليم محمود: الجهاد والبصر ص ٢٥ (القاهرة ١٩٧٤م)

فالمجاهد لا يقاتل إلا من بدر إلى قتاله، وعليما أن نجد حجية لا تحتمل من شك ولا تأويل فيما وقع للنبي ﷺ في حروجه في أصحابه معتمرا، فلما نزل بالحديبية قرب مكة صده المشركون عن البيت فانصرف عنها وتلبث بالحديبية شهرا، إلا أنهم صالحوه على أن يرجع من عامه هذا من حيث جاء، على أن يخلوا مكة بعد عام أياما ثلاثة، كما عاهدوه على ألا يشب قتال بينهم وبينه أعواما عشرة. ورجع ﷺ ثم تجهز لعمره القضاء بعد عام، إلا أن المسلمين لم يأمنوا غدر الكفار، وأوجسوا في نفوسهم حيفة. وكرهوا أن يقاتلوا في الحرم والشهر الحرام، فنزلت تلك الآية الكريمة ﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾. والآية الكريمة ترشد إلى ما يعد غاية الغايات في السماحة وكرم السجية ورسوخ الإيمان، الذي يفضى بالحتم إلى قوة التحكم فيما جبل عليه الإنسان، وغريزة خاصة في مثل هذا الموقف العصيب، وبإيضاح ذلك على التقريب إذا ما احتدم الخلاف والتخاصم في العقيدة بين المؤمنين والمشركين إلى حد أن يلتقوا بسيوفهم، فينبغي للمسلمين عدم المبادرة بالشد بسيوفهم على أعدائهم، بل عليهم أن يقفوا منهم موقف المدافعين. ومعلوم أن العدوان قد يكون ولا يكون، إلا أن مثل هذا الدفاع هو ما يجب أن يفرضوه على أنفسهم فرضا ليكونوا بما أمرت به الآية الكريمة صادعين.

وقال عز من قائل ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة ١٩٣).

وهذه الآية تؤيد ما جاء في الآية السالف ذكرها، وتدور في معناها وتجاوز ذلك إلى استئصال شأفة لفتنة وكف شرها وما تجر من سوء العاقبة، لأن المشركين وطنوا أكيد العزم على أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم ويفسدوا عليهم عقيدتهم، ويلبلبوا خواطرهم، وهذا شر مستطير. وعندئذ يجب أن يسل سيف الحق ليتلقى ضربة سيف الباطل، وفرق أى فرق بين من هم على الحق وبين من هم على الباطل، كما أن الآية تدخل المجاهدين من المؤمنين تحت شرط، فهي تربأ بهم عن أن يتمادوا في قتالهم في اتصال ودوام دون معرفة للوقت الذي فيه يعمدون سيوفهم، وتريدهم على أن يكفوا عن القتال إذا انتهى المشركون عن كيدهم ومكرهم. وما أجدر أن يكون الحزاء من حنس العمل، وهذا عين العقل والعدل ويا ما أطيب أن تبهم إلى أن يكونوا على حذر من صفة المعتدين، وبذا تضافي عليهم صفة المقومين المصلحين وهذه الصفة فيهم أقوى من صفة المقاتلين.

وقال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ .

وفي هذه الآية نلتفت إلى رحمة الله - وما أوسعها - لأنه أراد أن يشمل بها المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يبطش بهم بغاة وطفاة يعيشون في الأرض فسادا، فكأن المؤمنين إذا أخذوا على يد هؤلاء الظالمين أنجوا الضعفة ممن يعسفونهم عسفا شديدا ويسيرون فيهم سيرة الذئب في الحمل.

وغير شك أن هذه غاية جد شريفة للمجاهدين إذا قاتلوا فهم يسعون إلى الخير والإصلاح وهذا قصاراهم؛ إنهم يغتبون الملهوف، ويأخذون بيد من ظلم وانقطعت به السبل وظل بلا حول ولا طول أمام ظلم غشوم.

إنهم إذا قاتلوا المشركين وهم على هذا من صفاتهم إنما يأترون بأمر ربهم الذي رغبهم في ذلك بعد أن تضرع إليه هؤلاء المظلومون الذين رفعوا إليه أكف الدعاء وتضرعوا إليه أن يجعل لهم من يديهم من عدوهم ويكشف عنهم غمهم.

وقال تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ .

وتلك الآية صريحة الدلالة على فضل الجهاد والمجاهدين، إن فيها الأمر بالقتال في سبيل الله، والنص على أن من يقاتل في سبيل الله هو من اختار على دنياه الفانية أخراه الباقية، ولا عجب فهذا شأن المؤمن الموقن الذي يعلم أن دنياه دار ممر وأخراه دار مقر، وأنه إذا تزود من دنياه لآخرته فقد فاز فوزا عظيما، وكان له عند ربه أجر عظيم، والآية تزيد ذلك إيضاحا وتفسيرا فتقول إن المجاهد سواء قتل أو استشهد أو كانت له الغلبة - أى كانت له إحدى الحسنين الشهادة أو النصر - فإنما يحتسب عند ربه حسن المثوبة؛ وهذا مما يزيد الجهاد فضلا على فضل بمتل هذا التعميم.

وقال تعالى متحفا بالخطاب إلى نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿يأيتها النبی حرض المؤمنین علی القتال إن یکن منکم عشرون صابرون یعلبوا مائتين وإن یکن منکم مائة یعلبوا ألفا من الذین کفروا بأنهم قوم لا یفقهون. الآن حفف الله

عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿١﴾.

وفى هذا تقنين إلهى للقتال؛ ففيه إشارة إلى المقاتلين الصابرين، وذكر الصبر هنا يدل على كثير، فالصبر لغة هو حبس النفس على مكروه، وهو هنا الثبات، وهذا الثبات هو رسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين الذين يوقنون بأنهم يضطلعون بمهمة يا لها من مهمة، وفى أعناقهم أمانة، حبذا هى من أمانة. ولا ننسى كذلك أن الصبر من مقامات الصوفية وله الدرجة عندهم فالله يقول لنبيه ﷺ إن عشرين ممن جرت عليهم صفة الصبر فى مكنتهم أن يغلبوا مائتين، وهذا نصر من الله وقوة غيبية تمكن المؤمنين الصابرين من أن يوردوا المشركين موارد الهلكة؛ فالله لا ينسى عباده المؤمنين فى قتالهم، بل يؤيدهم بنصره، وهذا لهم لا شك فوز عظيم، كما توضح الآية أن المائة يغلبون ألفا، ثم خفف عن المقاتلين من المؤمنين وقد غمرتهم رحمة الله، فبعد أن كانوا ناشبوا القتال من يربو عددهم على عديدهم بمقدار عشرة أضعاف أصبح الألف منهم يغلبون ألفين أى ضعفهم بإذن الله.

ومن حكيم التقنين للقتال ألا يفر المؤمنون من ساحة الوغى ما لم يكن من يقاتلونهم أكثر من ضعف عددهم، أما إن كان ﷺ معهم فلا يحل لهم فرار.

قال الله فى محكم آياته: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾.

وقيل فى تفسير تلك الآية الكريمة ألا يولى المؤمنون أمام الكفار، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة من المشركين فالفرض ألا يفرؤا أمامهم، فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف، أما من فر من ثلاثة فلا إثم عليه.

والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن والإجماع من الأئمة، وقال بعض الأئمة من الجائز أن يفر مئة فارس من مئة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم، أما عند الجمهور فلا يحق فرار مئة إلا مما زاد على مائتين والصبر أحسن، ولقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف فى مواجهة مائة ألف^(١).

وتبين من تفسير هذه الآية أن الفرار فيه رخصة، وإن كان الصبر والصمود أفضل. ولقد قيدت هذه الرخصة بشرط، وهو شرط مقبول، لأن من يقاتل من لا طاقة له به ملق بيده

(١) القرطى تفسير القرطى ص ٢٨١٦ ح ع القاهرة.

إلى التهلكة وإذا ما هلك فقد أضاع الغرض الذى يقاتل من أجله فما صنع شيئا. ومع هذا التقييد والتحديد ما زال الفرار كبيرة موبقة، وهذا يستدل منه على القدرة على تدبير شئون القتال بالعقل والحكمة. ولنا أن نقول إن الجهاد فى الإسلام لم يكن حرب فوضى ولا خبط عشواء، وشمة دليل واضح على عدم جواز النكوص عن الزحف إن كان مع رسول الله ﷺ خصوصا. قوله عز من قائل: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ (التوبة: ١٢٠) فما كان يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم، أما فيما يتعلق بالانحياز، فنلتفت إلى قول ابن عمر رضى الله عنهما: "كنت فى جيش، فحاص الناس حصبة واحدة، ورجعنا إلى المدينة فقلنا نحن الفرارون فقال النبى ﷺ: (أنا فتتكم)، فمن كان بالبعد من النبى ﷺ إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبى ﷺ، وإذا كان معهم فى القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه، فلم يكن يجوز لهم بالفرار أبدا.

إذ قال الله تعالى ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ ذلك لأنهم فروا عن النبى ﷺ، وكذلك كان الشأن يوم حين فأخذهم الله على ذلك بالعقوبة، فى قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغر عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت تم وليتم مديبرين﴾ فذاك حكمهم فى معية النبى، قل عدوهم أو أكثر^(١).

وقال عز من قائل: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

يذكر تعالى المقاتلين بما يلاقون فى القتال من أهوال، إلا أنه يتجه إليهم بالنصح الحكيم ليبين لهم أن هذه الشدائد التى تنزل بهم عند قتالهم، وهى غاية فى عنفها بهم فكان حتما أن يقاتلوه على كره من هذا القتال، وذلك أمر ليس فيه من ريب، ولكن الله تعالى نبيهم إلى أن ما قد يبدو شرا لهم قد يعود بالخير عليهم؛ فعليهم أن يداوموا ويصبروا عليه. وهذا من الدليل على أن الله تعالى يدعوهم بالتزام الصبر لأن الفرج بعد الشدة والله سبحانه هو العليم بحالهم، أما هم فلا يعلمون.

(١) سيد قطب فى طلال القرآن ص ١٤٨٨ ح ٩ القاهرة سنة ١٩٩٠م

أما من تقاعسوا عن الجهاد رهبة فقد خرجوا عن طاعة المولى جل وعلا، لأنه أمر به وحذر من التخلف عنه ولا غرو فقد عرفنا صلته الوثقى بالدين الحنيف.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اتاقلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا والله على كل شيء قدير﴾.

في هذه الآية يقبل - جل وعز - بالعتاب على من يتناقلون عن القتال مع النبي ﷺ، وفي هذا ما فيه من حتمية أن يخفوا إلى الجهاد معه؛ وذلك لوثاقة صلتهم به ولأنهم يمشون في خطاه ويرون فيه الأسوة. إنه يكره منهم هذا التراخي وذلك الإحجام عن القتال.

ويتجاوز هذا العتاب إلى الوعيد بألم العذاب، وبذلك يكون التدرج في توعيته للمؤمنين وتبيان أنهم بإحجامهم عن القتال إنما يأثون وسوف يجزون على إثمهم.

ونلتفت إلى البضاوى في شرح الآية الكريمة فهو القائل: (اتاقلتم) أى تباطأتم وقرئ (تناقلتم) على الأصل و(أناقلتم) على الاستفهام والتوبيخ.

وكان ذلك في غزوة تبوك، وأمروا بها بعد عودتهم من الطائف في وقت شدة وشدة قيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو، ويمضى البضاوى في التفسير فيقول إنما معنى قوله تعالى: ﴿أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أى غرتكم الدنيا بدل ما في الآخرة من نعيم، كما يقول إنهم إذا لم ينفروا يعذبهم الله تعالى بالإهلاك، كالقحط، وظهور العدو. أما استبدال قوم غيرهم أى أن الله يستبدل بهم آخرين مطيعين كما أن تناقلهم لا يؤثر في نصره الدين شيئا أى شيء فالله غنى عن كل شيء وفي كل أمر.

وقيل إن الضمير خاص بالرسول ﷺ أى لا يضره، لأن الله وعده بالعصمة والنصرة ووعدته حق، والله يقدر على التغيير والتبديل لأنه على كل شيء قدير^(١) ونحن نعى الكثير من تلك الآية وتفسيرها لأنها أوضحت بما لا ريب فيه فضل الجهاد وأهميته وأكدت أنه محتم لازم على المؤمن. وحرى إذا دعا داعى الجهاد أن يحث إليه خطاه، ويقبل عليه إقبال مستشر به مستوجب له، وهو ما لم يخف إليه أخذه الله بالعقاب، وكره منه الإحجام عنه

(١) البضاوى: تفسير البضاوى ص ٢٥٤ القاهرة ١٣٠٥ هـ

وكان هذا الإحجام غفلة منه وجهلا فقد شغلته عنه شواغل الدنيا بما فيها من عرض زائل وفناء آجل، وتناسى أن الآخرة خير وأبقى، وأن الله تعالى سوف يجازيهم على جهادهم في سبيله الحسنی، إن الله يغلظ اللائمة على من هم عن الجهاد لاهون ساهون ويكره منهم ذلك ويستكره، كما يذكر الرسول ﷺ، الذى عصمه الله من كل ما لا ينبغى أن يكون، فكان مجاهدا معهم، فما قعد عن الجهاد كما قعدوا كما أن عدم خروجهم معه إن عد تفرقا عنه وتخلفا عن نصره فهذا منهم وهم لأنه ﷺ فى غنية عن شدهم أزره والله وحده هو ناصره.

والآية تبصر كذلك بضرورة أن يقاتلوا مع النبی ﷺ لأن ذلك أوجب الواجب وإلا فسقوا عن الدين وتلك أكبر الكبائر وأعظم المآثم.

وترشد الآية كذلك إلى حتمية أن يتعلق المسلمون بنبيهم لأنه هاديهم، فهم إذا شاركوه فى القتال دلوا على أنهم معه فى تلك الشدة التى سوف تتكشف عما قريب؛ لأن بها ترتفع كلمة الحق والنصرة للدين الخفيف وللباطل البوار والخسران. وهذا كان حق الكفاية فى التعرف إلى فضل الجهاد فى سبيل الله. وآخر ما نلاحظه من تلك الآية الكريمة وتفسيرها أن الله فى إيعاده يذكر المتخلفين عن الجهاد بعذابهم فى الدنيا وليس فى الآخرة وحسب، وهذا تشديد فيما يستحقون من عقاب.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾.

يقول النسفى: "إن معنى الهمزة فى (أَمْ) الإنكار أى لا تحسبوا، ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أى لما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتهائه. ويضرب المثل بقول، نقول (ما علم الله فى فلان خيرا) أى ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى (لم) إلا أن فيه ضربا من التوقع. وبذلك يكون قد دل على نفى الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل^(١).

والآية الكريمة تبين أن الجهاد شرط من أهم شروط دخول الجنة وهذا يبدو فى تعميم وشمول، ولكن لا نسى حديثا شريفا جاء فيه أن المسلم جدير بأن يحدث نفسه بالجهاد حتى ولو لم يجاهد، لذا تبرز أهمية هذا الجهاد الذى يفرضه سبحانه وتعالى على كل مسلم

(١) السقى تفسير القرآن الحليل ص ٢٥٦ ح ٤، القاهرة سنة ١٩٣٦ م

ولو كان ضرباً من حديث النفس، ومن ثم يرتبط الجهاد ارتباطاً في وثاقة ما بعدها وثاقة بالإيمان الذي يفضى بالمؤمن إلى جنة الخلد، وبعد هذا التعميم تخصيص لأنه تعالى يجعل أن من يرغب في دخول الجنة لن يدخلها ما لم يعلم الله سبحانه وتعالى أنه من المجاهدين.

وقال تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾.

وبالنظر فيما ترشد إليه الآية الكريمة يفهم أنها تحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، فقد هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، أما قوله تعالى ﴿هم بدءوكم أول مرة﴾.

قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرج المشركون لينصروا قوما سواهم فلما نجت القافلة وتناهى العلم بذلك إليهم داموا على رغبتهم في القتال تكبرا منهم وعتوا، كما قيل إن المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، وقوله تعالى ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ فالله تعالى يقول لا تخشوهم فأننا الأولى أن نخشى العباد من سطوتى وعقوبتى؛ فبيدى الأمر، ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، ثم قال تعالى بيانا لحكمته البالغة فيما شرع لهم من جهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾^(١).

إن هذه الآية تظهرنا على كثير من مفاهيم الجهاد في سبيل الله، ونحن نفيد من تفسير ابن كثير ونضيف إليه من عندنا حسب ما ندركه منها بدورنا أن الله أمر بالقتال، وما دام أمر بالقتال وهو هذا الجهاد فعلى المؤمنين أن يأتروا بأمره، لا معدى لهم عن ذلك. ويبين لهم ضرورة أن يكيلوا لهم صاعاً بصاع لأن هذا ما يقيم الأمر ويصلحه ويؤدى إلى أن يبال المسيء عاقبة إساءته، كما أن الله أراد للمؤمنين أن يتولوا بأنفسهم أحذهم بالعقوبة التى هم بها جديرون فأن يكون على يدهم يذكروهم بضرورة أن يقوموا الباطل بيدهم ومن قوم مثل هذا الباطل، الذى كان من قبلهم، إنما عرف أنه باطل. وينغى للمؤمن أن يميز بين الحق والباطل، فهذا توجيه رشيد من رب العالمين للمؤمنين. وجهيل أن يقول إنه قدير على

(١) اس كثير. تفسير القرآن العظيم ص ٣٣٩ ح ٢ القاهرة

ما يشاء وكان فى قدرته جل وعلا أن يهلكهم فهم مأخوذون بنكث إيمانهم وبإخراجهم الرسول ﷺ من مكة، ولكنه تعالى آثر أن يكون ما أمر به بيدهم أى بقتالهم - وهذا يعرفهم بكيفية العقوبة على مستحقيها، وذلك أمر له أهميته فى رياضة الحياة على العموم، لقد نبه تعالى إلى أن البادى أظلم وعقوبته أوجب. وفرق أى فرق بين معتد ومعتدى عليه، وهو يكره لهم الخشية منهم ما داموا على الحق المبين، ولا يرتضى لهم هذه المخافة لأن المخافة؛ لا تكون إلا من الله وبذلك يتحرك فيهم الشعور بالقوة والاعتزاز بالنفس.

والنقلة بعد كتاب الله المبين إلى أحاديث الرسول ﷺ ولا غرو، فما ورد فى القرآن مجملا ورد فى الحديث مفصلا، وهما يجتمعان على الهداية إلى مستقيم الصراط.

قال عليه الصلاة والسلام: (والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل)^(١).

وهذا من قوله ﷺ فيه التأكيد الأقوى لشرف الجهاد إنه ﷺ يقسم جهده إيمانه مع أنه الصادق المصدوق أنه يريد الجهاد فى سبيل الله، ولكنه يذكر ذلك على نحو يؤكد شدة رغبته فيه ولا يقتصر على أن يريد النصر المبين على المشركين وكفى، بل يتجاوز ذلك إلى أبعد مدى، بل يقول إنه يريد أن يقتل شهيدا لا قتلة واحدة كغيره من المؤمنين بل أكثر من قتلة لينعم بمثوبة الشهيد على كل قتلة، وما من ريب فى أن تلك رغبة لا رغبة بعدها ولا عرضا لأسوة تتبين منها نعمة الشهادة، كما أن فى ذلك حضا على أن يبادر المؤمن إلى القتال وهو على يقين جازم بأن له الجنة.

ومن ترغيبه ﷺ فى الجهاد أيضا قوله: (مثل المجاهد فى سبيل الله، كمثل الصائم القائم الدائم، الذى لا يفتر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع). فمثل هذا التشبيه يبين إلى أى مدى بعيد يؤكد ﷺ منزلة الجهاد فى العبادة، إنه يجعله ذروة التقوى فما دام المؤمن مجاهدا، جرت عليه صفة الصوم القوام، أما قوله: "إلى أن يرجع" فمما قد نستبين منه أن هذه الصفة فيه ضعفت شيئا ما عما كانت عليه من قوة إبان كونه مجاهدا، هذا ما ندركه بالحصر والتخصيص فى الجهاد.

(١) د. عبد الحليم محمود: الجهاد والصر ص ٣١ القاهرة سنة ١٩٧٤م.

ويؤيد ذلك قوله ﷺ : (ألا أخبركم بخير الناس منزلاً؟ رجل أخذ بعنان فرسه، يجاهد في سبيل الله. ألا أخبركم بخير الناس منزلاً بعده؟ رجل معتزل في غنيمته، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد الله، لا يشرك به شيئاً)^(١).

فهذا من قوله ﷺ يورد في الخيال صورة رائعة للمجاهد وهو على صهوة فرسه الذي يعدو ملء فروجه في سوح الجهاد، وعدوه هذا يرسم حركة تفيد قوة العزيمة، وشدة الرغبة والحرص على إلحاق الهزيمة الماحقة بأعداء الدين، ولهذا الفارس المغوار السباق إلى الجهاد أرفع منزلة للمؤمن الموقن وهو يفضل في هذه المنزلة العابد المتبتل يقف عند حدود الدن، وهو التقى النقى بكل ما تتسع له الكلمة من معنى.

ومما يقوى به الدليل في الحديث الشريف السالف الذكر أن الله تعالى أقسم بخيل الغزاة، وبين صفاتها على نحو يصورها في الخيال تصويراً هو كل الجمال، ومعلوم أن الفرس والمجاهد في سبيل الله لازم وملزوم، لقد جعل تعالى فرس هذا المجاهد يصعد صوتاً من أنفاسه عند العدو وسنابكه إذ تصطدم بالأحجار توري النار كما أنه يغير صبحاً ليسارع إلى النبي في مطلع الفجر ملتصقاً منه غفلة.

وحسبنا هنا أن ندرك معنى القسم بخيل الجهاد وما يمكن أن يكنى عنه هذا الوصف للخيال من معنى وهو يؤيد ما ذكره النبي ﷺ أن هذه الخيل التي أقسم الله بها هي الخيل التي تعدو وتجري بفرسانها في سبيل الله إلى العدو من الكفار^(٢). قيل في تفسير السورة وهي سورة العاديات أنها نزلت عندما بعث ﷺ خيلاً فمضى شهر ولم يأتهم منهم خير^(٣).

وكانما شاء الله أن يلقى الطمأنينة في قلب الرسول من جهة هذه السرية ويذكره بأن المجاهدين بخير ولا ينبغي له أن يقلق عليهم فإنهم في غزوهم ماضون ولا بأس أن يطول وقتهم ما دام في ذلك نصرهم.

ومما يدرك منه أن المؤمنين انتصحووا بنصح نبيهم ﷺ وكانوا على ذكر مما بينه لهم وحثهم عليه فيما يختص بالشهادة ما قيل من أن سعد بن معاذ رضي الله عنه قال وقد تحجر جرحه: "اللهم إنك تعلم أن ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك من قوم كذبوا

(١) مالك بن أنس: الموطأ ص ٤٤٥ ح ٢- القاهرة.

(٢) سليمان عبد الله الأشقر: ردة التفسير ص ٨١٨، الكويت.

(٣) البيضاوي: تفسير البيضاوي ص ٨٠٨ القاهرة

رسولك وأخرجوه. اللهم فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى أجاهدكم فيك، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها".

فانفجرت من لبتة فلم يرعهم إلا والدم يسيل إليهم، وكان فى المسجد معه خيمة من بنى غفار، فقالوا يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم فإذا سعد جرحه يعذ دما فمات منها^(١).

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: "من اغبرت قدماه - فى الجهاد- فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار". وهذا بين الدلالة على ذلك الجزء الأوفى الذى سوف يناله المجاهد بما بذل من جهد وتحمل من مشاق وهو يقاتل أعداء الدين. إن الإشارة إلى القدمين واغبرارهما فى هذا المقام مما يدل على كثير، لأنه كناية واضحة عن الكر والفر وخوض الأهوال، والوقوع سحائب العجاج إنها صورة رائعة للمقاتل، أما أن يكون ذلك منه مدعاة لتحريم سائر جسده على النار ففوز عظيم وإكرام من ربه على ما أبلى من بلاء حسن، والنبى ﷺ يرف البشرية إلى المجاهدين مما فيه ولا شك ترغيبهم فى الجهاد طلبا للجزاء.

ومما يجرى هذا المجرى ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ فى فضل الجهاد، أن رجلا من أصحاب الرسول ﷺ مر بينبوع صغير فأعجبه؛ فقال متمنيا لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب! ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فقال: "لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته عاما، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة"^(٢).

رواه الترمذى وقال: "حديث حسن، و"الفواق" ما بين الحلبتين.

فهذا الرجل الذى أعجبه ذلك ينبوع وود لو أقام له دارا إلى جانبه ويعتزل الناس لينعم بأطيب عيش وهو يجد الرى من ماء ينبوع واختار العزلة فى ذلك الشعب على أن يعبد الله فى ذلك الوادى الخصيب، وكان هذا الرجل مفتونا بجمال الموضع الذى وقعت عليه عينه

(١) مسلم: صحيح مسلم ص ٩٦ المجلد الرابع القاهرة سنة ١٩٨٧ م

(٢) الشوكانى: نيل الأوطار ص ١٠٨ المجلد السابع القاهرة.

إلا أن الشك ساره فى إمكان أن يعتزل الناس فى ذلك المكان، ورأى أن يستأذن الر
ﷺ، إلا أن النبى أئناه عن هذا العزم ونهاه أن يؤثر العافية واعتزال الناس والعيش
السرب فى مكان يغمره بالسكينة ويكفل له رغد العيش، وكان ﷺ على الحق والص
حين ذكره بالجهاد وضرورة أن يكون من المجاهدين خير له عند الله من أن يكون
العاكفين العابدين الذين تطول بهم أعوام العبادة.

ولا شك أن هذا يؤكد أن الجهاد خير عبادة، خاصة أنه قال من بعد إن من جاهد
ولو كانت جد يسيرة أدخله ذلك جنات النعيم. وبعد هذا التخصيص جنح ﷺ إلى الت
فأمر بالجهاد المؤمنين، وكره لهم أن يتخلفوا عنه حتى ولو شغلوا بالصيام والقيام.
وبعد هذا الترغيب مال ﷺ بالترهيب فقال: "من لم يغز، ولم يجهز غازيا، أو يخلف
فى أهله بخير، أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة".

وهنا يتسع المجال فى تصور الجهاد، ويؤخذ من قوله ﷺ أن المؤمن قمين كذلك
يجهز غازيا ليتمكن من الغزو فى سبيل الله، وإذا لم يفعل ابتلاه الله بقارعة قبل يوم القيام
أن الله يأخذه بالعقوبة فى دنياه قبل أخره ليكون عبرة لأولى الألباب.

وتلك هى الغاية فى الدعوة إلى الجهاد والحث عليه، والوعيد الشديد لمن ينصرف
جهاده، وإن حسنت نيته ولم يتراخ ويتقاعس عن عدم رغبة فيه، بل عما يحسبه فى
عنه.

وفى هذا الصدد قول النبى ﷺ: " وإذا تركتم الجهاد سلط عليكم ذلا لا ينزعه -
حتى ترجعوا إلى دينكم". وهذا صريح فى أن التخلف عن الجهاد خروج عن الدين
يوقع فى الإثم، والإثم يستوجب عليه العقوبة والذل الذى يسلط من قبل الله مما يوقع
فى القلوب.

ونمضى فى ذكر فضل القتال فى سبيل الله من حقائق ودقائق إلى أخرى.
عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان
أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر
خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ "نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مد
الدين، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك" (١).

(١) اس كثير، تفسير القرآن العظيم ص ٢٩٤ ح ٢ القاهرة

فى هذا الحديث الشريف إطلاق وتقييد، أما الإطلاق فإن من قتل فى سبيل الله حطت عنه خطاياه وغفر الله له ما تقدم من ذنبه. فبالقتل ينال المؤمن من ربه المغفرة، وأما التقييد فهو ضرورة أن يكون المجاهد صابرا محتسبا مدخرا عند الله الثواب؛ وفى هذا ما فيه من الإشارة إلى أن يكون المجاهد مؤمنا بمعنى الجهاد لا مجرد مقاتل لا يعرف مدعاة ولا غاية لقتاله وموته، وعليه كذلك أن يكون صابرا على الكريهة وأن يتقدم ولا يعود القهقري، وهذا حث على الصمود فى القتال والضراوة فيه؛ فبمثل هذا من صفة القتال يكون له غايته وجدواه.

ونلتفت إلى تقييد آخر وهو الدين، وبذلك يتصل الجهاد بالمعاملات بين الناس، فالشهيد مع ما سلف ذكره من صفات تجرى عليه يستحق المغفرة فى شمول إلا إذا كان مدينا فإن الدين لا يكون إلا برضاه واختياره، وأمانة ذلك أن الرسول ﷺ لم يصل على من عليه دين، فيدرك من ذلك أن كل ذنب له يغتفر منه ما عدا ذنبا واحدا هو عدم أداء الدين، إلا أن الشوكاني يتصدى شارحا فيضيف إلى ذلك قوله إن بقاء الدين فى ذمة الشهيد لا يمنع من الشهادة، بل هو شهيد مغفور له كل ذنب إلا الدين، وغفران ذنب واحد يصح جعله ثمرة للجهاد، فكيف بمغفرة جميع الذنوب إلا واحدا. ومسارة الشوكاني إلى هذا الاستدراك أن الشهيد يجزى الحسنى على شهادته ولا يمنع من ذلك أن يحاسب على عدم أداء دينه وارتباط ذكر ثواب الشهادة بجزاء الدين يتوضح به أن الدين أمر ينبغى الالتفات إليه والتحرز منه.

أما اشتراط خلوص النية فى الجهاد فأمر مستوجب، وبذلك نلاحظ الفارق بين القتال على إطلاقه والجهاد فى خصوصيته (وهذا ما ندركه من أنه ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله". رواه الجماعة.

وذلك ما يرشد فى جزم وتأکید إلى أن قتال المجاهد بينه وبين قتال غيره بون شاسع، والمقاتل فى سبيل الله إنما يقاتل لصرة الدين ورفع كلمة الحق، وهذا ما يجعله خالص النية محدود الغرض مشرق القلب أملا فى أن يموت شهيدا أو ينصر الدين الخفيف، وبذلك تتوضح لنا نفسية المجاهد الذى عمر الإيمان قلبه وعمره باليقين، فما كان بدعا بعد ذلك أن

يكون للجهاد فى سبيل الله كل ما له من فضل، وللمجاهد كل ما له من إكرام عند ربه وثواب هو أهل له.

وروى أحمد والنسائي فى هذا الصدد، عن أبى أمامة قال: جاء رحل إلى النبى ﷺ فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر - ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا شئ له". فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ لا شئ له، ثم قال: "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغى به وجهه".

وهذا من قوله ﷺ يزيد فى معنى الجهاد كثيرا لأنه يحصر ثوابه حصرا فى نية المجاهد، ولإيضاح ذلك نقول إن المجاهد عليه أن يجعل قتاله فى سبيل الله دون توقع لأجره عند ربه، وربّه هو من يتولى جزاءه، أما هو فما عليه إلا أن يقاتل ويدع أمره كله لله، وفى مثل هذا دليل على وجوب أن يقاتل من حيث هو قتال لرفع راية الدين ودفع عادىة المشركين وكفى، ولتعف نفسه عن طلب الأجر، بل عليه أن يتمثل الأمر دون تفكر فى مصيره وعاقبة أمره فإذا طمع فى أجر أو فى نفل شوه ذلك من جمال إيمانه وجعله مثل من يعمل لقاء أجر أى أجر كان، وفرق أى فرق بين من يقاتل لمجرد رفع راية الدين ومن يقاتل وله من وراء قتاله غاية أخرى كائنة ما كانت، وهذا ما يذكرنا قول بعض المتصوفة إنه يعبد الله لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته وإنما يحبه حبا لذاته، وهذا هو الحب فى أسمى درجاته وأجمل معانيه؛ لأنه لا يسأل عليه أجرا وحسبه أن يحب الله لأنه حقيق بمحبته.

ويجرى هذا الجرى ويؤكد وجوب تجريد القلب من كل رغائبه وأمانيه، وتوطين النية على أن يكون كل ما للعبد من صنيع لوجه الله الكريم وتلك روحانية مشرقة يا لها من روحانية، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى الوقوع تحت طائلة العقوبة إن لم تكن هذه الصفة حارية على العبد حتى ولو جزم بأنه من المؤمنين.

قال أبو هريرة رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رحل استشهد، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكن قاتلت ليقال جرىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقي فى النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، قرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال ما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى في النار". رواه أحمد وأحمد ومسلم.

وليس يخاف أن هذا أبعد الآمال في استيجاب أن يكون عمل العبد لوجه الله دون تفكير في شيء سوى الله ومرضاة الله والامتثال لأمره ليس غير، إن الاستطراد بعد ذكر القتال في سبيل الله إلى ما سوى ذلك من أعمال يبين أن الاستشهاد في سبيل الله على رأس الأعمال التي ينبغي أن تكون لوجه الله ولذلك ذكر في صدر الكلام.

عن أبي المثنى العبدى قال سمعت السدوسى يعنى بشير بن معبد قال أتيت النبى ﷺ لأبأيعه فاشترط على شهادة أن لا إله إلا الله. وأن محمدا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما (الجهاد والصدقة) فإنهم زعموا أن من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت. والصدقة فوالله ما لى إلا غنيمة وعشر ذو دهن رسل أهلى وحمولتهم، فقبض رسول الله ﷺ يده وقال: "فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذن؟" قلت يا رسول الله أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن^(١).

ويستخلص من ذلك الحديث أن الجهاد ركن من أركان الإسلام كما يدرك من قوله ﷺ، أما تردد الرجل فى أن يكون مجاهدا فى سبيل الله فمخافته، لعلمه أن رجوعه القهقرى فى الرحف مجلبة لغضب الله عليه، وهو من ذلك يستعذ وبذلك يكون الجهاد مشروطا بعدم الرجوع إلى خلفه فى قتال وهذا ما لا يضمنه لنفسه ولا يطيقه من عقد أكيد

(١) الشوكانى. بيل الأوطار ص ١٢١ المجلد السابع القاهرة.

العزم على الإقدام، وعليه فلا قهقرى فى أية حرب كائنة ما كانت لأن فيها الكر والفر إلا القتال فى سبيل الله الذى ينبغى أن ينطلق فيه المقاتل مندفعاً كأنه سبيل لا يعترض شىء مجراه، وهذا خاص بالجهاد الذى يتميز فيه القتال من كل قتال.

وكره النبى ﷺ منه هذا الخوف فلم يبايعه وكانت العلة فى عدم المبايعه، مع أنه دخل تحت معظم شروطها.

"كما يروى عن النبى ﷺ أن ثلاثة لا ينفع معهم عمل: الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف".

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله.

فقال رسول الله ﷺ: هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك.

فقال النبى ﷺ: "ولو طقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله".

وهذا من قوله ﷺ أصدق تعبيراً عن مكانة الجهاد بين أركان الإسلام وما له من ثواب هو أوفى من صلاة يداوم عليها من لا يكل، وصيام لا إفطار له، ثم إن قوله ﷺ: "إن طقت ذلك ما بلغت المجاهدين" فى جزيل أجرهم عند الله. وهذا تأكيد ما بعده تأكيد، وإعظام للجهاد إلى أبعد مدى.

ومن علماء السلف الصالح عبد الله بن المبارك وكان ذا شغف بالقتال الذى قيل فى رفعة مكانته على لسان سفيان بن عيينة: نظرت فى أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلونه إلا بصحبته لرسول الله ﷺ.

ومن شعره الذى يتحدث فيه عن عظمة الجهاد قوله:

من كان يخضب خده بدموعه	فنجورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير بكم ونحن عبيرنا	وهج السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بلساننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب ^(١)

(١) د. حمزة الشيرى الجهاد فى الإسلام ص ٦٤ القاهرة سنة ١٩٨٩م

ومما فيه دلالة من دلالات على أن القتال في سبيل الله كانت له أصول مرعية ينبغي الأخذ بها وعدم الغفلة عنها أن النبي ﷺ "كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدة، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، كف عنهم وادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم الذي يجري على المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم".

في هذا الحديث نرى بما لا مرأى فيه كيف أن قتال المشركين لم يكن قتالا بالمفهوم العام للقتال في الحروب، وكيف أن النبي ﷺ أوصى من يقود المسلمين المحاربين بعدم قتل الولدان رحمة بهم، كما نهى عن الغدر والتمثيل، ومثل هذا الوصايا لا عهد لنا بمثلها في تاريخ الحروب، وكان السابق إلى الفهم أن المجاهد في حرصه على أن يقتل أو يقتل لا يرى مثل هذا من قول النبي ﷺ إلا أن ما أمر به ﷺ مخالف لذلك وهذا من وصية النبي هو الرحمة في أجل معانيها والنبيل والقدرة على كظم الغيظ وكبح جماح النفس والصبر على الكريهة حين تبلغ الكريهة مداها في شدتها، كما فيه النصيح بالملاينة قبل المخاشنة، واستفاد كل الأسباب التي تمنع القتال، فلا قتال إلا بعدها في الضرورة القصوى، فقتال المجاهدين ليس ككل قتال إنه حرب حين لا ينفع السلم وشدة حين لا ينفع اللين كما فيه الرغبة إلى المودعة والتفاهم في تؤدة، أما إذا لم يكن في هذا كله جدوى فقد خابت الحيلة في دفع الشر بما هو خير، فلم يبق إلا أن تتسع المعذرة للمسلمين في قتال المشركين، والمسلمون وهم على هذه الصفة في محاربتهم للمشركين لا شك تجرى عليهم أسمى صفات الشهامة والكرم والأريحية، وحسبنا أن نذكر ما جاء في صدر كلامه ﷺ وهي الوصية بتقوى الله والغزو باسم الله وفي سبيل الله، وذلك لإعلاء كلمة الدين، وكل ما جاء بعد ذلك من كلام مندرج تحت مفهوم التقوى.

ومما يستدل منه على أن الجهاد في سبيل الله كان أمرا لا مندوحة عنه ولقد فرضته فرضا أوضاع وملابسات خاصة، ما قيل من أنه لما استقر ﷺ بالمدينة بين الأنصار؛ تكفلوا بنصره،

وشد أزره ومنعه من الناس أسودهم وأحمرهم، فكان من العرب أن رمتهم عن قوس وتعرضوا لهم من جانب، وكان الله قد أدن للمسلمين في الجهاد بقوله تعالى: ﴿أذن يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

فلما صاروا إلى المدينة وكانت لهم شوكة وعضد كتب الله عليهم الجهاد بقوله سبحانه ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن يكرهوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب على ثلاثين راكباً فبلغوا سيف البحر يعترضون عيراً لقريش^(١).

ومن الباحثين من قال إن المعنى الصريح للجهاد هو قتال الذين يفتنون المسلم عد ويصدون عن سبيل الله، وهذا هو القتال في سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه، الدفاع عن الرأي بالوسائل التي يقاتل بها أصحاب الرأي.

فإذا أراد أحد أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعوى والمنطق دون أن يحمله على تر الرأي بالقوة، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بدحض حجته وتفنيده منطقته.

لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب الرأي عن رأيه وجب دفع القوة بالقوة المسلحة^(٢).

وهذا كلام يعوزه شيء من توضيح وتحديد، فما كان الخلاف بين المؤمنين والمنافقين في الرأي بل في العقيدة الدينية، فهؤلاء على الإيمان وأولئك على الكفر وهما بذلك طرفي نقيض لا سبيل إلى تقارب بينهما، فالأولى أن يقال في العقيدة الدينية لا في مطلقاً، ومجرد الاختلاف في العقيدة الدينية لا يفرض إلى القتال بين طائفتين، لقد اليهود المسلمين في المشرق العربي وفي الأندلس، كما عايش المسيحيون المسلمين في العربية في سلام ووثام. أما ما ينبغي تحديده في هذا الصدد فهو أن المشركين تصدوا للمؤمنين، لقد شرع الله الجهاد إثر هجرة المسلمين إلى المدينة وأذن لهم في قتال يقاتلونهم، فما كان ثمة مجال للتفاهم بينهم لأن المشركين كانوا أسرع إلى العدوان، بالضرورة إذن أن يصد المسلمون عنهم عدوان عدوهم، ولكن هذا الخلاف الشد

(١) المقيري: إمتاع الأسماع ص ٥١ القاهرة سنة ١٩٤١م

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل - حياة محمد ص ٢١٦ القاهرة ١٣٥٤هـ

الطائفتين هو الفرق بين الحق والباطل والنفع والضرر، وأن للمجتمع فى ذلك العصر وتلك البيئة أولاً أن يصلح من فساد، فما كانت محاربة المؤمنين للمشركين إلا ضرورة لا معدى عنها؛ لأن جميع الأوضاع والواقع من الأمور تضافرت على استيجابها، وحسبنا أن نذكر ما كانت عليه أحوال المسلمين فى مكة وما آلت إليه وهم فى المدينة لسدرك أن الحرب كانت لا مناص عنها.

وجملة القول أن القضية لم تكن قضية تخالف فى الرأى وكفى، ولكن الوجه أن يقال إن أهل الضلالة والمشركين وقفوا موقف العداء من المسلمين المؤمنين، والأحرى أن يكون المشركون معتدين ظالمين، أما المسلمون فما وسعهم أن يستسلموا، بل دافعوا عن بيضة دينهم، وكفوا أذى الكافرين عن إيمانهم.

ومن ذوى الأغراض والملاحدة من توهموا أن الإسلام قام على حد السيوف وأن المسلمين أكرهوا الكافرين عليه قهراً وقسراً، وهذا ما لا يستقيم فى الفهم ولا يتبت على النقد لأنه يتعارض تماماً مع قوله تعالى ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ كما يتنافى كل التنافى مع ما رواه ثقات المسلمين منذ ظهور الإسلام، فمن المعلوم على الحقيقة أنه ﷺ دعا بعض أصحابه ممن كانوا موضع ثقته إلى الهدى من أمثال أبى بكر الصديق وعثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص^(١) وتبعهم غيرهم فقبلوا الدين الحنيف عن رضا وطوعية بعد أن تدبروا أصوله واقتنعت به عقولهم ورقت له قلوبهم فى وقت معاً.

كما أنه ﷺ كان يعرض دعوته فى موسم الحج على القبائل رغبة منه فى أن يرفضوا الشرك ويقبلوا الإيمان، ويرغبهم فى قبول الخير ورفض الشرك، ومنهم من كان يقبل الإسلام عن رضا وطوعية.

ومن هؤلاء جماعة الأوس والخزرج الذين عمرت قلوبهم بالإيمان واليقين، ولما عادوا إلى المدينة عرضوا دعوتهم على قومهم، وهذا قاطع الدليل على أن من الناس من استحباب للدعوة، وهم خيارهم، ومن عادوها، وهم شرارهم، وفى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة ندرك تمام الإدراك أن الأمر لم يكن فيه إلا اللطف والملاينة وما كان فيه قط عنف ومشاحنة.

(١) د. حس إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام ص ١٠٤ ح١، القاهرة ١٩٥٧ م

وإن نسينا فلا ينبغي أن ننسى أنه ﷺ أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم ويحجبهم فيما خيرهم ونفعهم، ولكن قريشاً كشحت له بالعداوة فكان ذلك أول شر، ونذيراً بما تر عليه في مقبل الأيام؛ فأمره تعالى بقتال المشركين فامتثل وأطاع، والله في ذلك حكمته لا يدرك ما وراءها إلا هو.

ومما ندركه من أول غزوة غزاها ﷺ حين هم باعتراض عير قريش، وخرج في سر رجلاً من المهاجرين خاصة حتى بلغ ودان فلم يلق كيداً، فلم يقاتل لأنه لم يصادف يكيد له ويريد شراً به، فما وضع العنف في موضع اللطف فعقد حلفاً مع عمرو بن الضمرى، وكان سيد بنى ضمرة، وهذا نص ما عاهد بنى ضمرة عليه:

(هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبنى ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ... وأن النبى إذا دعاهم إلى نه أجابوه) (١).

ونظرة تدبر في هذا تقيم الدليل على أن المسلمين لم يكونوا بادئين بالعدوان حتى مع أضمرؤا لهم حقداً وبيتوا لهم شراً.

إنه أمنهم ما أمن شرهم وعدوانهم ولكنه بصرهم بسوء العاقبة إذا حاربوا دين الله، يقظ الوعي يرقب بعين يقظى إلى ما سوف يتكشف عنه الغد، فلما أمن جانبهم زف إلى البشرى بالأمان، ومما يتأيد به ما أسلفنا ذكره في تعقيبنا على ما ذكرناه ما جاء فى كت من كتب التراث ورتبنا عليه رأياً لنا.

من حديث أبى منيب الجرشي قال إنه ﷺ قال: "بعثت بالسيف بين يدي، لحتى يعبد وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمعى، وجعل الذل والصغار على من خ أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم" (٢).

والمدرک من قوله ﷺ أنه مأمور من قبل ربه بنصرة الدين وهو يحمل سيفه ويرد به الشرک البادئ بالعدوان إلى رأيه، وما كان له إلا أن يصدع بما أمر به صدعاً، إلا أنه بس رأيه وحسن تدبيره رأى فى ذلك الأمر سعة فى الإمكان تضيقها، ورخصة يمكن الا بها، وتطبيقاً للحكم على نحو يراه ويتصووه فى الأحايين، ولذلك لما أمكه التفاهم مع

(١) صفى الرحمن الماركورى. الرحيق المحطوم ص ٢٣٣ القاهرة سنة ١٩٨٨م.

(٢) ابن قيم الجوزية. راد المعاد فى هدى حير العباد الكويت سنة ١٩٨٥م.

خالفوه أغمد حسامه عنهم، ونيل باللين ما لم يل بالشدة وكفى الله المؤمنين القتال، وهذا ما يتكشف عنه صفة القتال في الإسلام، ولكن لا ينبغي تناسي أن الدين لا بد له من حسام يحميه ما مست الحاجة إلى الصراع والصدام فالقتال في بعض الملابسات لا بد له من وقوع لنصرة الدين كما لا بد من الشدة إذا لم ينفع اللين.

ويمضى بنا السياق في هذا المقام فنقول إنه جاء في كتاب الأغاني أن أبا سفيان حين مضى من مكة المكرمة إلى المدينة قال أبياتاً من الشعر يحرص فيها قريشاً قال فيها:

كروا على يثرب وجمعها	فإن ما جمعوا لكم نفل
إن يك يوم القليب كان لهم	فإن ما بعده لكم دول
أليت لا أقرب النساء ولا	يمس رأسى وجلدى الغسل
حتى تبيروا قبائل الأوس والـ	خزرج إن الفؤاد مشتعل ^(١)

وهذا من قول أبي سفيان يديه لنا في صورة طاغ باغ أكل الحقد قلبه، واندفع اندفاع سيفه إلى العدوان وما اكتفى بأن يورد الموارد الهلاك واحداً، بل سولت نفسه الخبيثة أن يفتك بعده ذريع الفتك ويقضى عليهم مبرم القضاء.

فما يستقيم في العقل ألا تصد عاديته ويلتقى سيفه بسيف من اعتدى عليه.

وإذا ما مثلنا مغازيه وسراياه ﷺ ألفينا أن القدماء والمحدثين تجتمع كلمتهم على أنه ﷺ إنما قام بها اتقاء لشر المعتدين عليه، ويقول ابن هشام مثلاً: "إنه بلغه ﷺ أن بنى فلان يجمعون له، فبعث إليهم سرية لتفاجئهم". وفي هذا واضح الدليل على أنه ﷺ شاء أن يدفع عن المؤمنين شرهم قبل أن يستشروا. وحقيقة الحال أن المغازي والسرايا دامت متعاقبة مستهدفة غاية لا وجود لسواها، كما أن خططها مدبرة بحكمة ملحوظة وأعقت ما شاء الله تعالى ورسوله ﷺ للمؤمنين من أمر عظيم، إلى أن جاء العام الثامن للهجرة بفتح مكة وانضمامها للجماعة، فالغزوات والسرايا الأولى من سرية سيف البحر التي كانت تحت إمرة حمزة بن عبد المطلب في رمضان من العام الأول للهجرة حتى سرية نخلة في رجب من العام الثاني، أريد بها أن تكون السيطرة للمدينة على الطريق التجاري الذي يربط مكة بالشام كيما تقسر مكة على الاستسلام دونما قتال بعد أن تقع في شدة من بوار تجارتها.

(١) السهيلي: الروص الأنف ص ٤٢٨ القاهرة سنة ١٩٦٧م.

وهذا تدبير شديد، ورغبة فى التباعد عن القتال ما دام ثمة ما يغنى عنه، وبعد ما نزلت الشدائد لبوار تجارتها تهيأت للدخول فى الإسلام، وكان للرسول ﷺ نية أخرى هى أن يلزم المؤمنين الدربة على الحرب وأصولها، وقد تبينت الحكمة فى ذلك من بعد حين اتسع المسلمون فى الفتوح، ورفعوا كلمة الحق بين الخافقين، ورتب على ذلك أن ظهر من القادة من شهد لهم بالبراعة فى قيادة جيوش المسلمين على نظام محكم وأصول معلومة مما تأتى لهم به أن ينصرهم الله فى أكناف الأرض نصراً مبيناً.

ومن هؤلاء الفرسان المغاوير والقادة المظفرين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وحزمة بن عبد المطلب، وسعد بن أبى وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وقمين بالذكر أن وجد بينهم من قاموا بمراقبة السرايا وتجهيزها بالزاد والسلاح بل رعوا أسر المقاتلين، ولا شك أن هذا نظام محكم مرعى، ويسعنا القول بأن الغزوات لم تكن رغبة فى التقتيل إنما كانت لها أصول وسنن لا بد من رعايتها^(١).

وما كان ﷺ يطيب نفساً بالقتال بل على النقيض من ذلك كان تواقاً إلى السلم، فموقفه من الحرب موقف من يبغضها بغض من يبغض شيئاً على اضطرابه إليه.

إنه كان يسعى إلى السلم جهد المستطاع فقد شاء أن يعجز المشركين عن القتال بأن يوقعهم فى الضيق والشدّة، كما رأينا فى قطع طريق القوافل على قريش، وهذا منه خلق عظيم، وميل ملحوظ إلى الخير وإيثاره على الشر حتى وإن وجب القيام بعمل يراه شراً.

وكان رحيماً رحيماً فى حروبه، فما قتل طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة فى خبائها ولا راهباً فى صومعة ولا عاجزاً عن الحرب، وقد رأينا من قبل كيف أوصى أصحابه بذلك وألزمهم به إلزاماً وقد كان مظفراً فى مغازيه، على أنه لم يخض حروباً إلى أن بلغ من عمره ثلاثاً وخمسين سنة اللهم إلا حرب الفجار التى هاجت بين قريش وكنانة، وكان آنئذ فى العشرين من سیه، وفى هذه الحرب لم يشترك فى القتال، بل كان يجمع السهام لعمومته. ولنا أن ندرك من ذلك بما لا يحتمل من شك أن الله هو الذى هبأه لمثل هذا ومكنه منه ليصير الدين الحنيف، وقد كان^(٢).

(١) د. حسين مؤنس دراسات فى السيرة النبوية ص ٦٥ القاهرة سنة ١٩٨٤م

(٢) د. عبد العزيز عليم، محمد صلى الله عليه وسلم بين الحرب والسلام ص ١٥٤ القاهرة سنة ١٩٨٩م.

ولنا أن نستدل بما أسلفنا قوله، أن هذه الغزوات إنما كانت تدور رحاها بقدر مقدر، وأن وحياً إلهياً وجه المحاربين فيها من المسلمين ودبر لهم أمرهم، ذلك لأن معجزات تجلت فيها. حكوا قالوا إن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يبلغهم خبرهم، فقال أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله إلى أن فتح الله عليهم^(١).

وقع هذا في مؤتة والنبي ﷺ في المدينة، فلا بد أن يكون الله - عز وجل - ألهمه معرفة خبر هؤلاء الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وتلك معجزة خصه الله بها كما أظهرها في تلك الغزوة، ومما جاء في خبر هذه الغزوة أن جعفرًا لما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتزلنه كارهة أو لتطاونه
إن أجلب الناس وشدو الرنه ما لي أراك تكرهين الجنة

ثم نزل عن فرسه، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل. وكان في هذه الغزوة ثلاثة آلاف مسلم حيال مائتي ألف.

وهكذا تبدى هذه الغزوة المعجزة، وتضفى على هذين الشهيدين أعرق ما يكون في الإيمان وأسمى ما يكون في معنى الشهادة. فما كان بدعاً أن يعرف النبي ﷺ خيرهم وهم عنه غياب عن بصره بتلك النورانية التي ألقاها الله في رحاب نفسه.

ومعجزة أخرى في غزوة بدر. فقد ألهم الله تعالى رسوله الكريم أن يأخذ بحفنة من تراب ويرمى بها في وجوه المشركين قائلاً "شاهت الوجوه"، فملأ التراب عيونهم، وحجبت عن الرؤية، ثم قال للصحابه شدوا عليهم، فدارت الدائرة على المشركين فمنهم من قتل ومنهم من أسر، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وما رميت إلا رميت ولكن الله رمى﴾ فتلك الآية الكريمة تؤيد هذه المعجزة ما في ذلك من وراء.

ومما يجرى مجرى المعجزة الخاصة بالغزوات وأن النبي ﷺ كان يوجهها بوحى من ربه تعالى ما قيل من أن عاتكة بنت عبد المطلب رأت رؤيا حدثت بها قالت: "رأيت راکناً أقبل

(١) إبراهيم خليل إبراهيم، المعجرات المحمدية ص ٢٤ القاهرة سنة ١٩٧٤م

على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث. فاجتمع الناس إليه، ثم دخل المسجد ويسما الناس حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرح بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس، فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها، فهوت وتهشمت وما بقى بيت من بيوت مكة إلا ودخلته، منها فلقة. وما مر يومان على تلك الرؤيا حتى جاء من يرفع عقيرته قائلاً: يا معشر قريش أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، الغوث الغوث^(١).

وإذا حاولنا هذه الرؤيا تعبيراً أن ذلك الذى يدعو قريشاً لمصارعهم هو النبى ﷺ، وتهشم هذه الصخرة، ودخول كل فلقة منها بيتاً من بيوت مكة دليل على أن يكون كل بيت سوف يكون فيه قتيل أو أسير.

وهذا ما قد وقع وكان غيباً تحقق بالشهادة. ورأى ﷺ ذات ليلة فى منامه أن فى سيفه ثلثة، وأن بقرا له تذبح وأنه أدخل يده فى درع حصينة، فتأولها أن نفرا من أصحابه يقتلون وأن رجلاً من أهل بيته يصاب، أما الدرع الحصينة فهى المدينة المنورة.

فأشار الرسول ﷺ ألا يخرجوا إليهم وأن يتحصنوا فى المدينة فإن قربوا منهم قاتلوهم على أفواه الأزقة.

ووافق رسول الله ﷺ على رأيه عبد الله بن أبى بن سلول، غير أن أكثر الأنصار أبوا إلا أن يخرجوا إليهم لينالوا الشهادة.

فلما رأى ﷺ ذلك من رغبتهم دخل بيته ولبس لأمتة وخرج وكان اليوم يوم جمعة والغزوة غزوة أحد^(٢).

ففى هذه الرؤيا ألهمه الله معرفة ما سوف يتكشف عنه الغيب متعلقاً بتلك الغزوة وما دامت رؤى النبى لا شك تتحقق وترشده إلى ما أراد الله أن يعمل فذلك يتوضح به أنه كان ملهماً فى كثير من مغازيه ومسلكه فيها موجه من قبل الله.

إنه ﷺ صاحب معجزات وهى ما اختصه الله بها وحده دون سائر البشر إكراماً وإعظاماً له من جهة وإقناعاً لمن يهديهم بأنه إنما يصدر عن وحى يوحى وأنه بشر إلا أنه ليس ككل بشر.

(١) د محمد عبد المعيم حمادى السيرة النبوية الخالدة ص ٢٠٨ القاهرة.

(٢) د سحادى: مرهنة لغات واصطلاحات وتعريفات عرفانى نهران سنة ١٣٥٤ م.

وما من ريب فى أن المعجزة دليل قاطع وليس ككل دليل على نبوة الرسول ﷺ وأنه كان يأتى بما أمر الله تعالى به، وحاجته فى الأحيان إلى أمارات غيبية - لا مجال فيها للمرء - تخفف من غلواء المغالين وتلزم الحجة المكذبين، إنها دلائل حسية تشاهد بأبصار العين بقدر ما هى دلائل عقلية لمن كانوا يعقلون. مثال ذلك أن خمسة من المشركين كانوا يضمرون له الحقد وإيقاع الأذى به ليشفوا موجدتهم وينفسوا عن خبث طويتهم وفساد قلوبهم، هؤلاء هم:

١ - أبو زمعة الأسود فلما بلغه أنه يترصد به الدوائر ويريد به سوء دعا الله عليه قائلاً:

"اللهم أعم بصره، وأككله ولده" واتفق أن أتى جبريل رسول الله ﷺ إذ هم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به أبو زمعة الأسود هذا، فرمى النبى ﷺ فى وجهه بورقة خضراء، فذهب بصره.

٢ - ومر به الأسود بن عبد يغوث وهو ثانيهم فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه، فمات.

٣ - ومر به الوليد بن المغيرة وهو ثالثهم فأشار ﷺ إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان هذا الجرح قد أصابه بضع سنين، فانتفض به، فقتله.

٤ - أما رابعهم فهو العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فدخل فيه شوكة فقتله.

٥ - ومر به الحارث بن الطلائع الخزاعى، فأشار إلى رأسه، فامتخض قيحاً فقتله^(١).

هذه أخبار يستدل بها على كثير، لقد أكرم الله نبيه إكراماً وشاء أن يكف عنه شر شائيه فاستجاب دعاءه وأهلك عدوه على نحو عجب بقدرته، وقدرة الله فوق المستحيل، إن النبى ﷺ لم يشد على هؤلاء من أعدائه بسيف ولا رشقهم بسهم ولكنه شكاهم إلى الله راعيه وحاميه، وفى مثل هذا عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ وإشارة إلى الله وحده، وقيمى بالمكذب أن يصدق، وبالكافر أن يؤمن، والمتدبر المتفكر أن يقتنع بأن شمة قوة إلهية غيبية وهى تلك القوة الغيبية التى ارتفعت بها كلمة الحق والدين، وقد تجلت تلك القوة فيما يبدو للعيان وغيره مما لا يدرك إلا بالإيمان.

وهذا رحالة تركى من أهل القرن السابع عشر ذكر فى معرض كلامه عن أن الله يظهر المسلمين على المشركين ثم زاد قوله إن الله إنما أдал المسلمين من المشركين ببركات ومعجزات رسوله ﷺ^(٢).

(١) د عبد المعص حمادى: السيرة النبوية الخالدة ص ١٢١ القاهرة

(٢) أوليا حلى. مصر وحش سياحته سى اونجى جلد ص ٨٨ استانبول سنة ١٩٣٨ م

فهذا الكاتب ذكر انتصار المسلمين على المشركين فى أول كلامه أصلا لا عرضا ولكن سرعان ما أضاف قوله إن ذلك كان ببركات النبى ﷺ .

وفى هذا نظر لأنه بمثل هذا من كلامه لا بد أنه كان على ذكر من غزوات النبى ﷺ . لأنه برهان قاطع على أنه كان على يقين جازم من أن هذه الغزوات إنما تجلت فيها معجزات، وكان ذلك ملء ذاكرته، وهو يقول هذا مطلقا عن موقف المسلمين من المشركين، ولكنه تحفظ فى كلامه وجنح إلى القول دون وعى منه إلى أن نصر المسلمين على عدوهم كان من معجزات النبى ﷺ ، إنه أشار إلى ذلك عرضا فى إشارة لائحة إلا أن إشارته تلك تدل على كثير.

ونذكر ما روته عنه عائشة رضى الله عنها (إن أول ما بدئ به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

ومن ثم ندرك الصلة بين رؤياه وبين الوحي، يقول الكاشانى إن النفس إذا اتصلت بالنفوس العلوية ترسم فيها نقوش، وتعرف ما سوف يتكشف عنه الغيب، وهذا ما يقع فى عالم الرؤيا كما يقع فى عالم اليقظة وما يقع فى المنام هو الرؤيا الصادقة، وما يقع فى اليقظة يسمى المكاشفة وأما ما يقع بين المنام واليقظة يسمى الحسنة وإن رؤيا النبى ﷺ جزء من نبوته^(١).

ومما قيل فى الرؤيا يراها المؤمن، أو ترى له وهذا تفسير قوله تعالى ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ ومع ذلك فإن تلك الرؤيا رؤيا صدق وتأويلها حق، وأن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات^(٢).

هو ذا قول المتصوفة فى حد الرؤيا، والمتصوفة كلامهم أدخل ما يكون فى الروحانيات وأبعد ما يكون عن الماديات، فالرؤيا عندهم هى مصدر إلهامهم وهم على الدوام متعلقون بالإلهام، والمعرفة عندهم لا تكتسب ولا تجتلب وإنما هى نور يلقى الله فى قلوبهم وحيا، وهذا الصوفى يقرر أن الرؤيا أول أمانة نعرفها له فى بدايته الأولى على أنه سوف يتلقى الوحي من بعد، وهما ربط بين الرؤيا والنبوة عند النبى ﷺ على الأخص، والمترتب على

(١) د سجادى فرهنگ لغات واصطلاحات وتعابير عرفانى تهران سنة ١٣٥٤م.

(٢) القشيري الرسالة القشيرية ٣٦٤ - ٣٦٥ بيروت سنة ١٩٩٠م

ذلك فى الفهم أن ما رآه فى منامه كان رمزاً يرشد إلى ما وقع لحمزة فى الغزوة التى لقى فيها مصرعه شهيداً.

وكان ﷺ فى مغازيه رابط الجأش ثابت الجنان، فما وقعت فى قلبه خشية إذا ما انخلعت قلوب من حوله رعباً فى يوم الكريهة، لأنه ﷺ إنما كان يصدر عن إيمان و يقين ويعلم أنه مؤتمر بأمر رب العالمين وإنما جاء بالهدى فما كان ﷺ محارباً بالمفهوم المتعارف، بل كان محارباً من طراز على حدة لا نعرف له فيه من شبيهه، وهذا كله يضى على معانيه خاصاً، فهى ليست بغزوات ولا بحروب وكفى، بل هى تتجاوز ذلك إلى غيوب لا يعرفها إلا علامها سبحانه وتعالى.

ونأخذ فى تمتل تلك الغزوات وتعرف بدايتها مع إيراد ما اختلف فيه أهل التاريخ من روايات وبذلك نكون قد مهدنا للتعرف على حد هذه الغزوات.

فى العام الثانى للهجرة النبوية نزلت الآية الكريمة ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

وبنزول تلك الآية كانت بداية الجهاد فى سبيل الله. وتضاربت أقوال أصحاب السير فى ذلك الجيش الذى أعده ﷺ سواء نشب القتال أو لم ينشب فهذا ما يسمونه غزاة أو غزوة أما إذا جمع فوجاً ليمضوا إلى أهل الشرك فهذا ما يسمى سرية.

وقال بعضهم إن الرسول ﷺ فى هذا العام، بعث بعبيدة بن الحارث على رأس ستين رجلاً من المهاجرين وقيل إنهم ثمانون إلى طائفة من قريش الذين كانوا خارج مكة وكان لهذه السرية علم أبيض قدمه إلى مسطح بن أثانة كما ذكر غيرهم، وقال غيرهم إن هذا العلم هو أول علم من أعلام الإسلام رفع، وقطع هؤلاء المقاتلون المراحل إلى أن يلقوا المشركين وعدتهم مائتان وفى بعض الروايات أن أهل الشقاق والعناد كانوا تحت إمرة أبى سفيان، ولما تقارب الجمع انشاقوا بالسهم، وأول من رمى من المسلمين سهماً هو سعد ابن أبى وقاص وقد توهم عبدة الأوثان أن فئة أخرى من المسلمين ترصدهم ففروا هرباً.

وكان سعد بن أبى وقاص يومئذ يحمل عشرين سهماً وقد أصاب بها المشركين ولم يطش منه سهم واحد.

ويقول سعد: لما أشرفت قريش على الهزيمة قلت لعبيدة بن الحارث ينبغي أن نتعقب المشركين حتى نلحق بهم فقد انخلعت قلوبهم رعباً منا إلا أن أبا عبيدة لم يرتض منه هذا وخالفه في رأيه، فلا جرم رجعوا إلى المدينة.

كما قيل إن حمزة كان أول من أمر ﷺ على الجيش وأول لواء عقد له، والسبب أنه طاف بسمع الرسول ﷺ أن جمعا من قريش مضوا في تجارة إلى الشام، ثم عادوا فأمر حمزة بن عبد المطلب أن يمضي في ثلاثين من المهاجرين ويحثوا خطاهم إلى القافلة، وإنه ﷺ قبل غزوة بدر لم يأمر أحدا من الأنصار بالجهاد في سبيل الله على أنهم لن يبذلوا عوناً إلا عندما يغير المشركون على المدينة ومجمل القول أنه أمر حمزة بالتوجه إلى القافلة^(١).

هذا ما قاله مؤرخ فارسي وافق فيه كتب السيرة العربية وتأخذ في بيان ما ذكر طرفاً منه فنقول إنه يتفق مع ابن عبد البر في أن السرية الأولى كانت سرية حمزة أو سرية عبيدة بن الحارث، إلا أن من أهل العلم المحدثين من قطع بأن السرية الأولى هي سرية سيف البحر لحمزة، وذلك في رمضان من العام الأول للهجرة، أما سرية رابع لعبيدة بن الحارث فكانت في شوال من العام نفسه^(٢).

وكان عدد غزوات الرسول ﷺ التي كان فيها بنفسه غارياً سبعة وعشرين، ولقد قاتل في تسع منها وهي: بدر، أحد، المريسيع، الخندق وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحسين، والطائف. أما بعوثه وسراياه فسبع وأربعون، وقيل بل هي نحو من ستين.

ويقول أصحاب السير والرواة: "إن العزوة هي تلك الحرب التي يحضرها النبي ﷺ بنفسه. أما البعث أو السرية فأن يبعث فيهما بأصحابه". ومنهم من عرف الغزوة محملاً فقال: "الغزو الخروج إلى محاربة العدو"، وقد غزا^(٣) يعرو غروا فهو غاز وجمعه غزاة وغز، قال تعالى ﴿أَوْ كَانُوا غَزَاً﴾^(٤).

والمغارى مناقب العراء، وقد تكون مواضع العزو أو الغزو نفسه^(٥).

(١) مير حوائد. روضة الصفا ص ٢٠٧ جلد دوم تهران سنة ١٣٢٨ م

(٢) د حسين مؤنس: دراسات في السيرة النبوية ص ١٣١ القاهرة سنة ١٩٨٤ م.

(٣) ابن عبد البر الدرر

(٤) الرابع الأصمهاقي. المعردات في عريب القرآن ص ٣٦٦ القاهرة

(٥) ابن مطور لسال العرب ص ١٢٤ ح ٦١ بيروت

وفى قول أن الغزوة فى اصطلاح أهل السير والحديث تطلق على الجيش الذى فيه النبىؐ، أما الجيش لا يكون فيه فيعرف بالسرية.

وفى رواية أن غزوات النبىؐ أى التى حضرها تسع عشرة غزوة، وفى قول إحدى وعشرون. ويقول جماعة من أهل السير إنها أربع وعشرون. وفى رأى آخر سبع وعشرون. كما أن سرايا خير البرايا تزيد على الخمسين. إلا أنه قاتل بنفسه فى تسع غزوات ليس غير، وأهل العلم يختلفون فى أول سرية واختلفوا فى أى عام وقعت، أفى العام الأول أم فى بداية العام الثانى^(١).

ومما سلف ذكره يلحظ أن المؤرخين وأصحاب السير لم يجمعوا، على كلمة فى عدد غزوات الرسولؐ، كما أن صاحب (حبيب السير) وابن عبد ربه اتفقا على تعريف الغزوة التى يحضرها النبىؐ بنفسه ورأوها تسعا. وننظر بعد ذلك فى معجم أوردى لنجده يعرف الغزوة بأنها محاربة المشركين، وفيها يشترك النبىؐ بنفسه، وفى معجم تركى أن حد الغزوة أنها حرب من أجل الدين والحرب لتوطيد دعائم الإسلام ونشره فى غير المسلمين^(٢). غزوات أى أن يكون الإنسان محاربا جيدا من أجل الإسلام^(٣) وفى معجم فارسى أن الغزوة هى الحرب مع عدو الدين^(٤) وفى موسوعة فارسىة أن الغازى هو قاتل الكفار^(٥).

والملاحظ أن الغزوة ذكرت بمعناها الاصطلاحى ولكن فى معظم ما أوردنا ذكره لم يذكر أن النبىؐ حضرها، وهذا خطأ صراح لا نميل إليه كما أننا لا نميل إلى معنى الغزوة على أنها محاربة الكفار سواء حضرها النبىؐ أم لم يحضرها.

وهناك اعتراض على ما أورد دهنخدا فى موسوعته من أشعار لبعض شعراء الفرس يمدحون فيها ملوكا حاربوا كقول الشاعر:

"فى غزوة واحدة غنم ألفا من الفيلة وكان له ثلاثمائة وخمسون فى حمله"^(٦).

(١) حوائد امير: حبيب السير ص ٣٣٤ جلد اول تهران سنة ١٩٥٣ م

(2) Ferozsons. Urdu English Dictionary P 516 (Lahor).

(3) Devellioylu, Kılın' enyeni Biyyuk Turkce sozluk S 434 Istanbul.

(4) Red hause: Turkish and English lexicon s. 1343: London 1896

(٥) حسن عميد: فرهنگ عميد تهران.

(٦) دهنخدا: لغت نامه ص ٢١ شماره مسلسل ٢٧ ح ٣٦ تهران ١٣٣٥

بيك عراب قريب هزار بيل آورد ار آن كرفته بيك حمله سيصد وسجاء

"يا كم له من غزاة غير ما ذكرت، هلا عدت وفي عرك ورفعتك استقررت"^(١).
 "بغزوة غزوتها وتغزو مائة عام الكفار، عرفت أرض الكفر الفرق بين الماء والنار"^(٢).
 وبالتعقيب على هذه الأبيات نقول إنها قيلت في مدح السلطان محمود الغزنوي من أهل القرن الرابع الذي اتسعت فتوحه في أرض الهند.
 ومما يلحظ أن الشعراء يمدحونه على الأخص معجبين بجيشه اللجب وفيلته العظام الضخام التي تغير على العدو فتورده موارد البوار والخسران.
 ويتغنون بمجده وما بعده مجد ويقولون إنه أخذ على يد الكفار ودوام على غزوهم لا ينقطع عنه.

والمستخلص من هذا أنهم لم يشيروا إلى أنه جاهد في سبيل الله، ولا أنه صرف شر وأذى المشركين عن المسلمين بل كان قصاراهم أن يجعلوا اتساعه في الفتح من محامده ومناقبه، كما أنهم لم يذكروا أنه كان في معية جيشه غازيا تواقا إلى الشهادة التي تبلغه الجنة.
 والمترتب على ذلك في الفهم أنهم عرفوا الغزو ولكن لم يبرزوا أهم صفاته، أي أنهم عرفوه ضمنا في عموم وشمول، وبذلك كان الغزو في كلامهم متطورا في معناه عن معناه الذي ألفتاه في غزوات المسلمين على عهد النبي ﷺ، وما دام الشيء بالشيء يذكر نقول إن معنى الغزو يتوضح معناه عند الترك على نحو آخر. فمما يروى عن السلطان سليم وهو أمير قوله أنه عاهد الله على أنه إن قدر له أن يعتلى عرش آل عثمان أن يغزو الشراكسة في مصر على أنهم قوم فاسقون كافرون.
 ولسليم أن يقول ما شاء، ولكننا لا نعرف هذا من صفتهم كما نعلم أنه قاتلهم لأسباب أخرى يطول الكلام فيها ولا يتسع المقام له.

والمعول عليه الذي يعيننا في مقامنا هذا انه ادعى أن كفر الشراكسة هو داعيته إلى غزوهم.

فكان الكفر وحده هو الذي أضفى على غزوه مصر خاصا من صفاتها.
 وهذا الشاعر التركي (باقي) قال في رثاء السلطان القانوني ذاكرة ما أنجز من مهام وما نال من مجد وسؤدد:

(١) حرايكه كفتح حداد عروات ديكر كرد
 بيا ركشتن سوي مقسام عرو مقرر
 (٢) بك عرات كه كردى وهم كر صد سال
 كرفت بقعه كفر اعتزاز آتش وآب

"فى كل موطن لحافر فرسك إذا غدا وراح، بذل الملوك فى طريقه الأرواح، كأنك سيف له فى أطراف الأرض صيال، وبه شددت على كل متمنطق بالحديد من الأبطال. استوليت على ألف بيت صنم جعلت منها مساجد، وفى موضع الناقوس صوت الأذان صاعد"^(١).

وبهذا من قول هذا الشاعر التركى يستبين لنا كيف أن معى الغزو اتسع معناه فأصبح جهادا فى سبيل الله وبين أنه محاربة المشركين خصيصا وليس محاربة غيرهم.

ويقول لامعى فى مقدمة كتابه المترجم عن الفارسية (نفحات الأنس) واصفا فتح السلطان سليمان القانونى لقلعة بلغراد: "إن عساكر الإسلام تحمل الأعلام وبها للنصر أعلام انقضت على قلعة بلغراد، تلك القلعة التى هى لدار الكفر ركن ركين ولديار الشرك حصن حصين. فقال السلطان سليمان ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ففتحتها فى أدنى زمان وكان ذلك فى شهر رمضان من عام تسعمائة وسبع وعشرين"^(٢).

ومن هذا الوصف للامعى لفتح السلطان سليمان القانونى لقلعة بلغراد يتبين لنا أن ذلك الفتح أشبه شىء بغزوة لسلطان من سلاطين الإسلام لأرض قوم غير مسلمين، يقول إن عساكر الإسلام خصوصا، ويجرى على لسان السلطان آية قرآنية ويجعل القلعة قلعة فى بلاد الكفر، وذلك كله أكيد الدلالة على أن تلك الحرب إنما تجرى عليها صفات الحرب الدينية أى الغزوة.

وهنا مجال لعقد المقارنة مما يجرى به السياق، فنقول إن سلاطين الغزنويين كانوا يخرجون لغزو الهند على رأس جيوشهم والسلطان محمود الغزنوى من أهل القرن الرابع عرف التاريخ له أنه هو (بت شيكن) بمعنى محطم الصمم ذلك الصمم هو (سومات) فى الهند وبذلك يكون سلطانا غازيا لأن الله نصره نصره مبينا على عبدة الأوثان الذين خرج إليهم لتقويض ملكهم وإذهاب ريجهم.

(١) هرقلده ناصه ناى سمدكو شا الحون خالار يولكده حمله روان ايتدى جانلرى

شمشير كى روى زمينه طرف طرف الدكودمور قوشاقلو جهان بهلوانلرى

الدك هزار تكده لى ايلدك ناقوس برنده او قوتدك ادايلرى.

(٢) لا معى: نفحات الأنس ص ٩ اسطنبول سنة ١٢٧٠هـ.

وبعد محمود الغزنوى جاء مسعود، وحارب مثله حروبا فى الهند، والغزنويون مسلمون سنيون.

ونلتفت بعد ذلك إلى السلاجقة فى إيران فوجد أن سيرتهم هى سيرة الغزاة المسلمين، فهم سنيون أتراك، ونذكر مهم (ألب أرسلان) وكان له وزير شديد رأى عظيم الحكمة يسمى (نظام الملك) فشاورة فى تحديد سياسة الدولة فاتفقت كلمتهم على أن تفتح الدولة السلجوقية بلادا حتى تتسع رقعة ملكها ويعظم شأنها.

وكان أرسلان كعمه أرطغرل قائدا فاعتزم أن يفتح بلاد المسيحيين كبلاد الأرمن وبلاد الروم وجورجيا. ذلك أن فتح بلاد المسيحيين سوف يمنح سلاطين السلاجقة شرف الجهاد فى سبيل الله ونشر كلمة الحق فى الآفاق وبذلك ترفع راية الإسلام عاليا فى أرض الله الواسعة واتجه ألب أرسلان غربا ففتح بلاد الأرمن وجورجيا والروم.

ولما أدرك (رومانوس) البيزنطى خطته جمع جيشا عظيما من عدة شعوب مسيحية وتبين ألب أرسلان أن المسيحيين إلب عليه، ورأى من الحكمة أن يرسل رسولا إلى رومانوس الرومى يعرض عليه الصلح، ولكنه أباه وكرهه كرها شديدا.

فما كان من ألب أرسلان إلا أن قام فى جنده خطيبا فأخبرهم أن أرمانيوس الرومى يتهددهم بخطر داهم، ولزام عليهم أن يهبوا للقضاء المبرم على تلك العصبة الفاجرة، ليأمن الإسلام كيدها ومكرها، وبذلك أثار حميتهم وألهب حماسهم ودعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله^(١).

أما خلفاء بنى العباس فعلى حد علمى لم يخرجوا للجهاد بمفهوم معناه، وإن خرج منهم المعتصم لفتح عمورية، وسبب الفتح أن ملك الروم خرج إلى بلاد المسلمين فنهب حصنا من حصونها، يقال له (زبطرة)، وقتل من به من الرجال، وسبى النساء، وقيل إنه كان فى السبى امرأة هاشمية، صاحبة قائلة: وامعتصماه.

وبلغ المعتصم ما صنع ملك الروم بالمسلمين، فاستعظمه واستشبعه وكبر عليه، كما بلغه ما قالت المرأة فى استغاثتها، فقال وهو فى مجلسه: لبيك لبيك!! ونهض وصاح الرحيل الرحيل ثم امتطى صهوة فرسه وتجهز للحرب، فتوجه المعتصم إلى عمورية فجمع عساكره عليها، وحاصرها، ثم فتحها وقتل وسبى^(٢).

(١) د عبد العليم حسين: سلاجقة العراق وإيران ص ٥١ - ٥٦ القاهرة سنة ١٩٧٠م

(٢) اس طباطبا المحرى ص ١٧٢ القاهرة سنة ١٩٢٧م.

ولا نعرف عن الخلفاء العرب في الأندلس أنهم في حربهم مع الملوك المسيحيين كانوا على نية الجهاد.

وإذا انتقلنا إلى الفرس، ونعني بهم ملوك الدولة الصفوية في القرن العاشر ألفينا أنهم فرضوا المذهب الشيعي فرضا على الدولة، واضطهدوا كل مذهب سواه وكانوا على رأس جيشهم يحاربون العثمانيين والأوزبك وهم من الترك هؤلاء وهؤلاء على المذهب السني وبذلك تكون حربهم حربا مذهبية وإن جعلوها جهادا.

كما أن أمراء الدولة الحمدانية في الشام حاربوا بأنفسهم ورغبتهم في المقام الأول في الفتح وتوسيع رقعة دولتهم وصد من يغيرون عليها.

ونضيف إلى ذلك أن الطوائف المعروفة (بقرلباشي) الذين كانوا على المذهب الشيعي، وذلك ما بعثهم على أن يظاهروا ويؤيدوا الأسرة الصفوية في إيران، قد التفوا حول الشاه إسماعيل الصفوي فصوروه وشدوا أزره فيما خاض فيه من غمرات الحروب والفتح والجهاد فيما يزعمون، ولقد تردد الصدى لهذا من نزعة الصفويين إلى ما عدوه غزوا وجهادا في شعر^(١) عهدهم. فها هو ذا الشاه إسماعيل الصفوي يذهب بنفسه ويتيه تيهها ويدخله الغرور.

فيقول بيتا من الشعر التركي هو [أنا الشاه إسماعيل سر الباري، ولي السيادة على كل غاز مغوار]^(٢).

إنه يريد أن ينصب نفسه على رأس أتباعه ممن يغزون في رأيه من ليسوا على المذهب الشيعي، وقال شاعر من شعراء الفارسية:

احمدا لله رب العالمين، لقد تحققت لي رغبتى في أن أكون من الفدائيين المقتولين^(٣).

فهذا الشاعر يريد أن يبذل روحه فداء لمذهبه لا لإسلامه. وقال شاعر فارسي يصف مدوحه بالنحدة والبسالة في حومة الوغى بالغزاة وهو إن لم يصرح بأنه يشبهه بالغازي

(١) د. عبد السلام همي القرلباشي ص ٣ القاهرة سنة ١٩٩٢م

(٢) منهم شاه إسماعيل حنك سريم كه مرجه عاريلرك سروريهم

د. نصر الله فلسفي زدكني شاه عباس اول - المقدمة ص - ١ طهران.

(٣) مست اردراكه بروفق مراد حويشتني رود درحيل فدائي كشتكان كشتهم دحيل

المسلم على عهد النبي ﷺ إلا أن يكون غازيا مجاهدا ولكن بالمفهوم الراسخ في عقيدته ويشبهه في ذلك من يعرض صورة لمدوحه على النحو التالي:

المجاهد يهدد بما أوعده، فيكحل بتراب طريقه عيون عباد الصمد عبید الصنم^(١). والمستخلص من كل ما سلف في تصور الجهاد أن سلاطين العثمانيين جعلوا هذا الجهاد أصلا من أصول سياسة دولتهم لا معدى عن إغفاله وإهماله، فكانوا يخرجون على رأس جيوشهم وهم يعدون أنفسهم حماة الإسلام الذين يبدلون قصاراهم في الحفاظ على كيانه، وكانوا يطلقون على سلاطينهم لقب الغازي على هذا الأساس والاعتبار.

إلا أنهم في القرن السابع عشر أو ما يقرب لم يخرجوا بأنفسهم محاربين، وقيل إن ذلك كان العلة في أن دب ديبب الضعف في جيوشهم خصوصا ودولتهم عموما، إلا أنهم مع ذلك لم ينسوا مفهوم الجهاد، لأنهم أطلقوا لقب الغازي تشريفا حتى على من لا يحارب بنفسه، كالسلطان عبد الحميد مثلا، وأطلقوا هذا اللقب على أتاتورك تعظيما وإجلالا، وهو الذي حارب دون أن يكون على ذكر من معنى الجهاد.

أما سلاطين السلاجقة فتولوا قيادة الجيوش وهم مؤمنون بالجهاد وبضرورة أن يتسعوا في الفتوح ليكون المجد لدولتهم الإسلامية.

أما خلفاء العباسيين فلا تتبين أنهم قادوا جيوشهم بأنفسهم للجهاد وما كان من المعتصم لا يعد جهادا بصريح المعنى؛ لأنه إنما اشتد عليه أن يغير الروم على حصن له وأن تستغيث امرأة وتستعديه على الروم دون أن يحرك ساكنا ويخرج محاسبا.

وملوك الصفويين الشيعة إنما حاربوا أهل السنة من العثمانيين والأوزبك المسلمين مثلهم، وما كان ذلك منهم سوى تعصب لمذهبهم الشيعي الذي أرادوا له البقاء والازدهار وحده دون وجود مذهب سواه للمسلمين.

وتأسيسا على هذا كله ننظر نظرة أخيرة إلى حد الغزوات والجهاد في سبيل الله فنقول: الغزو: هو قصد القتال مع العدو (لغة) وشرعا: خص بقتال الكفار؛ وفي اصطلاح أهل السير: هو الجيش القاصد لقتال الكفار الذي كان النبي ﷺ فيه؛ وأما الجيش الذي لم يكن فيه النبي ﷺ فيسمى سرية وبعثا^(٢).

(١) مجاهديكه رتهديد او يديده كشمعد عار رواه عباد صمد عبید صم

(٢) التهانوي كشف اصطلاحات العلوم والعون ص ١٠٩٩ لسان حـ

وفيما أسلفنا من قول عن الغزوات والجهاد كل الدلالة على أن الجهاد لحق به تطور ملحوظ على مر العصور، وتفاوت أدب الملوك في رؤيتهم لما يعملون؛ فقد رأيناه يتسع في المعنى اتساعا يصرفه عما كان عليه في صدر الإسلام، كما وجدناه يضيق على نحو لم يكن له من قبل وجود. وإن مفهوم الجهاد يتضح لنا في أجمل مظهر وأكمل معنى وأصح تفسير إذا ما ذكرنا قوله ﷺ في غزوة أحد وقد حرحت إصبعه الشريفة:

"هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت".

وبالنظر إلى هذا من قوله ﷺ نذكر أن الله تعالى نفى عنه قول الشعر بقوله في محكم آياته ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ وكان ﷺ لا يقيم وزن الشعر إذا تمثل بيتا منه بل يتمثله مكسورا، ومع كونه أفصح فصحاء العرب قاطبة لم يكن ينشد بيتا تاما على وزنه، بل كان ينشد صدره أو عجزه وهذا ما قال به الجاحظ والروايات به متواترة^(١).

وإن هذا من شأنه - صلوات الله وسلامه عليه - ليستدرجا إلى الرغبة في مزيد من معرفة به.

ولقد ساق الألوسي في هذا كلاما يطول، ونحن نوجزه ونستلخص منه.

قال في نفى قول الشعر عنه: إنه لو كان يقول الشعر لتطرقت التهمة إلى كثير من الناس في أن ما جاء به إنما هو من عنده ومن قبل نفسه، والقرآن الكريم من شاعريته، ولذلك قيل: ويحق القول على الكافرين؛ لأن الريبة إذا انتفت لم يبق إلا المعاندة، فيحق القول عليهم.

ومن أهل العلم من ذكر أن قول الشعر محرم على الأنبياء قاطبة، ومن قال إنه خاص به ﷺ إكراما له وإعظاما.

وإن أعظم معجزاته القرآن الكريم، فربما تحصل التهمة فيه لو أنه قال الشعر.

وكان ﷺ إذا تمثل بيت من الشعر لم يقرأه على وجهه فقد قرأ قول الشاعر:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

ولما ذكر البيت على هذا الوجه قال له أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله، فرد عليه قائلا، والله ما أنا بشاعر ولا يسبغ لي.

(١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن ص ٤٠٠ القاهرة سنة ١٩٢٨م.

وروت عائشة - رضى الله عنها - أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحب الشعر.
كما روى عنه عليه السلام أنه قال: "لأن يمتلى خوف أحدكم قيحا خيرا من أن يمتلى شعر"^(١).

غير شك أن هذا محذافيره يؤكد تلك الحقيقة ويقررها.
وهنا ما لا ينبغي إغفال ذكره على أنه عليه السلام مع أنه لم يقل شعرا إلا أنه بفضل سلامة طبعه وأصاله ملكته وما وهب له الله من فصاحة ولسن كان يتذوق الشعر ويطرب له.
فيل إن أحد الصحابة عاد من إحدى الغزوات وكان مثخنا بجرح فحاول بعض الصحابة أن يضمّدوا جرحه إلا أنهم لم ينفعوه بشيء.
فما كان من حسان بن ثابت إلا أن قال اثنوني بكافور، وأخذ قبضة منه ووضعها على جرحه الدامي، فانقطع جريان الدم، وسأله الرسول ﷺ عن ذلك فقال حسان سمعت الشاعر يقول:

فكرت ليلة وصلها في هجرها فجرت نقايا أدمعى كالعندم
فطفقت أمسح أدمعى في نحرها إذ عادة الكافور إمساك الدم
فما سمع هذين البيتين صلوات الله وسلامه عليه حتى قال: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا"^(٢).

لقد وقع هذان البيتان وهما من الروعة في أعلى مرتبة - موقع الإعجاب عنده ﷺ مما ينهض دليلا على أنه ﷺ كان ذاوقة يبصر الشعر.
أما نحن فلنا رؤية خاصة في ذلك منعقدة الصلة بمفهوم الجهاد وبنفسيته وعقليته وبشعوره وتفكيره وهو يجاهد في سبيل الله كأننا به وهو يشاهد إصبعه ومنها الدم جار يرى أن الله أكرمته بنعمة سابعة وهو يقاتل، فسر لذلك سرورا ما بعده من سرور، وسبحت روحه الطاهرة في الملكوت الأعلى وراح في نشوة إيمانية لا تعدلها نشوة وأحسن كأنه أشبه ما يكون بالشهيد وهو يخر صريعا في ساحة الجهاد، لينال الأجر الأجلز الأوفى عند ربه وهو جنات النعيم كأنه ﷺ تخيل ذلك وامتأّت به رحاب نفسه فانفعل.

(١) الألوسى روح المعاني، ص ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥. ح ٧ ط بولاق ١٣٠١ هـ.

(٢) الحبيب شيبوب. الحجاب الشعري عند محرز بن حلف ص ١٨٣ تونس ١٩٩٤ م

ومن المعلوم أن الانفعال تمس الحاجة فيه إلى تعبير، والتعبير عن الانفعال أغلب ما يكون صورة مختلجة أو حركة أو كلاماً في إيقاع وتنغيم، ولذلك جرى على لسانه هذا الكلام، وهو من الرجز وليس شعراً بالمعنى الصحيح الحق، وإنما دفعته نشوة الفرح ببذل قطرة من الدم في سبيل نصرة الإسلام فقال كلاماً لم يقصد به إلى أن يكون شعراً، بل ليقول إن إصبعه دميت وما أهون عليه أن تجرح إصبعه بل ما أحب إليه أن تجرح إصبعه في سبيل الله. البيت ليس من عيون الشعر ولا تجرى عليه صفات الشعر فهو تقرير عن شيء وقع وتعبير عن شعور في عبارة عاية في يسرها وسهولتها، ولا أثر فيه لخيال الشعراء الذي طالما حجب الحقيقة وصرفها عن العقل صرفاً، فلم يبق إلا أن يكون هذا البيت من الشعر صورة لشعوره وتفكيره وهو يجاهد أعداء الدين، إنه أروع مثال لتعبير المحاهد وتفكيره وهو يبذل الروح ويود أن تسيل تلك الروح على حد سيف من يقاتله ليرتفع بذلك إلى مرتبة الصديقين والشهداء، والنبى ﷺ يعرض الأسوة عرضاً جميلاً.

ويا ليت كل مجاهد مثله فيما عبر وتفكر لو أنه ﷺ كان ممن يقولون الشعر لسبق إلى الفهم أن خياله صور له ما كان من قوله، أما أن يتأكد نفى الشعر عنه بقول الله وصحيح الخبر فتلك معجزة حقاً من معجزاته، وصورة جليلة للروحانية الإيمانية التي ينبغي أن نلتفت إليها، ونذكر الفياض من معانيها، وبرى من الخير بعد ذلك أن نتناول بالتعقيب والتعليق رأى بعض كتاب الغرب في غزوات النبى ﷺ .

هو ذا من يقول: "إن الإسلام دين انبثق من الصحراء وهو تصور الصحراء لله، والنبى نظر إلى العالم حوله نظرتة إلى من جاوره من القبائل الوثنية وكان العالم مجالاً واسعاً يمد جيشه بالغنائم، ولذلك قسم إلى دار سلام ودار حرب وصنيعه في الحرب، كان صنيع شيخ قبيلة يسعى إلى سلب وسلب ما قبيلة من قبائل، وكان البادئ بالعدوان، وقاد أتباعه إلى خوض حروب، ومن الدليل على ذلك اعتداؤه على يهود خيبر وبنى قريظة"⁽¹⁾.

وقول هذا المؤلف منقوص من أساسه، ظاهر البطلان، يدل دلالة واضحة على أنه لم يفهم ما وقع له من معرفة بالدين الحنيف ورسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، إنه ﷺ لم يحارب رغبة في فتح وتوسيع رقعة أرض، بل حارب ليرد كيد ومكر وأدى المشركين عن دعوته إلى الهدى.

(1) Wilson: The Expansion Of Islam PP 16, 18 (London 1928).

وكان له فضل المنافع الذائد عن دينه، وتشبيهه بشيخ قبيلة يغير على قبيلة أخرى سالبا ناهبا لا يقول به عاقل، إنه - وكذلك أصحابه المجاهدين - لم يطمعوا فى غنيمة بل طمعوا فى ثواب الآخرة بالدفاع عن دينهم وصد أذى المشركين عنه.

ونعود إلى موقف اليهود منه ﷺ لنرد هذا المؤلف إلى نحره.

أول ما يقال فى هذا الصدد أن عجوزا من يهود دست له السم فى كراع شاة فتأذى به، وكان السقم منه يعاوده فى كل عام، ومما لا ريب فيه أن هذا أخس عدوان ودليل على أن قوم هذه المرأة جميعا كانوا يضمرون الشر والضر.

حكوا قالوا: "إنه صلوات الله وسلامه عليه كان ذات يوم جالسا فى صحبه، واتفق أن مرت جنازة ليهودى، فما كانت منه إلا أن وقف إجلالا لهيبة وحرمة الموت، وأخذ العجب مأخذه من صحبه، فما صبر قائلهم أن قال له إنها لرجل يهودى، فما كان من قوله له إن اليهودى وغيره عنده فى هذا بمنزلة سواء. فالبون بعيد بين سماحته وكرم سجيته وبين ما لعجوز يهودية من خبث وكيد.

ومن الأجدر فى هذا المقام أن نشير أول ما نشير إلى أنه قد خد فى نفوس اليهود أن يكون خاتم الأنبياء من العرب لا منهم، فدب ديب الحسد فى نفوسهم وهم الذين عيل صبرهم فى انتظار نبى، بل أغضبهم من الله تعالى أن يبعث نبىه الكريم، ولما رأوا أن القرآن جاء مصدقا لما جاء فى التوراة، تعلق أملهم بأن يحاربوا مشركى العرب أول الأمر ولم يؤمنوا بالقرآن، وبذلك اشتد عداؤهم خصوصا بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة وكان عداؤهم للإسلام يبدو بين الفينة والفينة حتى بعد تحالفهم مع المسلمين وما كان هذا ليخفى عن النبى ﷺ ولذا كانت رغبتهم فى الدخول مع النبى ﷺ فى نزاع وصراع^(١).

أما ما يتعلق بيهود خيبر فقد خرج أول العام السابع للهجرة لقتالهم، وقد حاصرهم وقصرهم على أن يسلموا بعد أن نصره الله عليهم. وشرط بناء على التسليم منهم أن يحقن دماءهم^(٢).

(1) Ihsan Suroyasırma İslam Tobluyın medine Donemi Ve Cihad S (4142) İstanbul 1986

(2) عبد الشافى عيم و د محمد عبد الحميد عيسى. التاريخ الإسلامى ص ٩٢ القاهرة سنة ١٩٨٥م

ولما خرج ﷺ إليهم؛ خرج يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا الجيش، قالوا: "محمد والله محمد والخميس". ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال ﷺ: "الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين".

فجهد المسلمون وذبحوا الحمر فنهاهم عن ذلك ثم صالح يهود على أن يجلوا وله ما حملت ركابهم. هذه خيبر فتح شطرها عنوة وشطرها صلحا^(١).

فالمتحصل مما سلف ذكره أن النبي ﷺ في محاربتهم لم يعنف بهم وما كانت في حربه بشاعات ولا شناعات مما يدعوا إلى القول بأن محاربتهم لهم كانت أمرا إذا كما يدعى بعض المغرضين المتعصبين.

ولقد كانت رغبة المسلمين أن يصدق اليهود محمدا ﷺ وأن يكون علمهم بالكتب السماوية والفهم لأحاديث الأنبياء سببا في إقناع العرب الأميين بأن الرسالات السماوية حق والإيمان بها واجب.

ومن أسف أن اليهود كانوا يضمرون الحقد ولهم أسوأ الظن. فكانوا يعينون عليهم ويتربصون بهم الدوائر، ولو لم يكن هذا من جانبهم لتركهم النبي ﷺ وشأنهم يتعبدون في بيعهم وهم آمنون، وكفوا عن مذمة الأنبياء وتجريحهم. أما أن يسعى اليهود في هدم دولة الإسلام وينضموا إلى أهل الشرك ليصبحوا إلبا على المسلمين فهذا ما لا يكون أبدا، وكان لزاما أن يتصدى المسلمون لهم ويوقفوهم عند حدهم ويصدوا عنهم عاديتهم.

وبلغ من عداوتهم للنبي ﷺ قولهم له بعد أن نصره الله في بدر نصرا مبينا: "لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. أما والله لئن حاربتك لتعلمن أنا نحن الناس"^(٢).

أما يهود بنى قريظة فقد عاهدوا الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - على أن يكونوا معه، وألا يمالئوا عليه عدوا، بالانضمام إليه رغبة في أن تكون الغلبة لهذا العدو. بيد أنهم نكثوا عهدهم وخانوا أمانتهم وتخونوا ما ائتمنوا عليه، ولكن الله تعالى حفظ دينه الخفيف وأنجاه من مكرهم وكيدهم.

(١) محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد، القاهرة ص ١٦١، سنة ١٩٨٧م

(٢) محمد العرالي. فقه السيرة، ص ٢٥٨ - ٢٥٩، القاهرة، سنة ١٩٨٧م.

وخبر ذلك على وجه الإجمال أن المشركين حشدوا حشودهم من كل صوب بتحريض من اليهود وانضموا إلى أعداء الدين لأنهم رأوا في انضمامهم إلى المشركين قوة لهم وعونا على المسلمين.

وقد عقدوا نيتهم على أن ينصر الله دينه ويهلك عدوه، فسلط عليهم ريحا صرصرا عاتية. عصفت بهم، وشتت جمعهم أباديد؛ ولم يكتف اليهود بذلك بل تحينوا هذه النهضة وتكاتفوا مع المشركين متخونين ما بينهم وبين النبي ﷺ من عهد فما كان لهم إل ولا ذمة؛ وطاف بسمع النبي ﷺ ما كان من خيانتهم ونقضهم لعهدهم، وانضموا إلى الأحزاب فكانوا إلبا عليه، إلا أنه ﷺ شاء له كرمه وسماحته أن يستوثق من أمرهم فأرسل إليهم من يتعرف خبرهم. إلا أنهم ردوا عليه بدم النبي ﷺ وأكدوا أنهم يضمرون له العدو والخيانة وبلغ بهم الأمر أن يصرحوا قائلين إنه لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ ولا عقد^(١).

وهكذا كان يهود بنى قريظة غدارين ختارين ووقفوا من النبي ﷺ هذا الموقف المخزى. ومع هذا مما صنعوا وبئس ما صنعوا، وما ينصب ذلك المؤلف من نفسه مدافعا عنهم ومنصفا لهم فيعرضهم في صورة المغلوبين وهم الظالمون فيمسح الحق ويطمس الصديق ويرى ساحة قوم من الظلم وهم أظلم من ذئب.

وكأننا شاء أن يدافع عن أبناء دينه في الزمان الخالي فقال عنهم ما قال. أما قوله في صدر كلامه "إن الدين الإسلامى هو دين الصحراء وإنما هو خاص بأهلها" فهذا منه بهتان عظيم وجهالة جهلاء.

إن الوحي نزل على النبي ﷺ في مكة والمدينة فهما مدينتان عظيمتان ولم ينزل عليه في الصحراء ولا في العراء، كما أن هذا الدين الخفيف هو الأصل الذى أنتجت عنه الحضارة الإسلامية تلك الحضارة التى سودت المسلمين فى أكناف الأرض وهى أعظم حضارة عرفتها الدنيا.

ولو تذكر ما قال علماء الغرب خصوصا عن هذه الحضارة ما خفى عليه أن أوربا استمدت من حضارة المسلمين فى الأندلس أهم عناصر حضارتها، وللباحثين فى هذا كلام يطول ويكفى فى التدليل على ازدهار الحضارة الإسلامية فى الأندلس وفضلها على أوربا ما قيل من أنه اعتبارا من القرن الرابع عشر للميلاد، استخدم الصابون فى حمامات إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وذلك أخذ عن عرب الأندلس.

(١) اس هشام: سيرة اس هشام ص ٢٢٠، ٢٢١ القاهرة سنة ١٩٣٦م

وكان اليهود والمسيحيون يشتغلون بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، وبذلك نشروا فى أوربا علوم العرب، وكان الباحثون عن الحكمة والفلسفة فى جميع أوربا يتوافدون على الأندلس للدراسة فيها، ففضل العرب على حضارة أوربا غير مجود^(١).

ومثل هذا المؤلف غير واحد. فمنهم من أخرج كتابا بعنوان (سيف الإسلام) متهمكا مستخفا، وهو يرمى من وراء ذلك أن يدعى أن الإسلام إنما قام على حد السيف، ومما أورده فى كتابه خبر يمهد له قائلا إنه أضحكة الأضحيك.

أما مجمل هذا الخبر فهو أن فتاة عربية كانت واقفة فى السوق فإذا يهودى يرفع ذيل ثوبها إلى عنقها، مما أثار ضحك من كانوا فى السوق حولها من اليهود وما رأى ذلك عربى حتى ثارت حفيظته والتهبت حميته واشتد عليه من يهودى أن يصنع هذا مع فتاة عربية، فما كان أسرع من أن يقتل اليهودى، وأفضى ذلك إلى أن تتحمس العرب واليهود لأن يقاتل بعضهم الآخر، والمؤلف يتوهم أن ذلك سبب من أسباب حملت العرب على محاربة اليهود، ويقول إن النبى ﷺ إنما كانت رغبته أن يستأصل شأفتهم^(٢).

ومن عجب أن يذهل هذا المؤلف عما هو فى بداءة العقول. لقد ذهب عنه أن ما صنعه هذا اليهودى مع الفتاة العربية إنما كان الدافع إليه أن يؤذى العرب فى عرضهم، وأن يلحق العار والشنار على مثل هذا منه، فمثل هذا أول ما يثير حفيظتهم ويشعرون كل الشعور بأن فيه كل مهانة لهم، فانبعثوا يثارون لكرامتهم وما من عجب بعد ذلك فى أن يقتلوا ذلك المعتدى وأن يجتمعوا على دفع ما لم يستطع عليه صبرا ولا وسعهم أن يجدوا له مبررا ولا عذرا.

أما أن يدعى المؤلف أن ذلك عمدة السبب فى سخط العرب على اليهود ورغبتهم فى القضاء عليهم فوهم لا يستقيم فى عقل عاقل.

والمؤلف يبنى عليه أحكاما فيقول: "إن غزوة بدر التى نصر الله فيها المسلمين كانت تجربة ناجحة للنبي ﷺ فى حرب اليهود والمشركين وهو الذى أراد أن يبدد شملهم ويذهب ريجهم، فما أعمد حسامه من بعد هذا كله من مفتريات وضلالات من يتصدوا لإبداء رأى فاسد وهم أعجز ما يكون عن دعم الدعوى بدليلها.

(1) Macabe. The splendour of moorishspan. SS 193 377 London 1935

(2) Wollaston The sword of Islam S 62 London 1905.

لقد تناسى المؤلف الغربى ما جبل عليه المسلمون من سحبة وما تركز فى ط وتقاليدهم. إن لنا شاهدا لغويا يبين موقف المسلم من المرأة، فكلمة (عورت) بمعنى تأتي فى الفارسية والتركية بمعن الزوجة أو المرأة، فالمستفاد من ذلك أن المسلم يع أشبه شىء بالسوءة التى لا سبيل إلى الكشف عنها، فعنده أن المرأة ينبغى أن تحتج عين الغرباء حفاظا لها مما يسىء إلى كرامتها وبذلك يبين أن العرب كانوا على الحد صنعوا حيال ذلك اليهودى الذى أراد أن يستفزه وكأنما ما صنع تحريشا أفضى أفضى إليه إلا أن ما وقع لم يكن وحده سبب سخط النبى ﷺ والمسلمين على ا ومحاربتة لهم.

ومن مؤلفى الغرب من أراد أن يتعمق نفسية المجاهدين فى سبيل الله فجعل يست يتجافى عن الحق والصواب، وكان كلامه مجرد رجم بالغيب، إنه يتوهم أن الطه الغنيمة والرغبة العارمة فى السلب والنهب الكامنة فى نفسية العربى كان ما أدرك ﷺ، فأغراهم بالجهاد وكان هذا الإغراء أو الوعد أعمق أثرا فى نفوسهم من ك وعظهم به وهداهم إليه^(١). فهذا المؤلف غفل عن مفهوم الجهاد فى الإسلام وما أنصار النبى ﷺ إنما كانوا يخوضون الغمرات لا رغبة فى غنيمة بل رغبة فى الاس الذى يرفع درجاتهم عند ربهم ويدخلهم جنته، وذكره للغنائم لا وجه له، فأن يغنم ا من المغلوب فى الحرب متعارف مألوف مشروع، ولا يصح فى الفهم أن يكون الد القتال هو مجرد الظفر بالغنيمة، حتى إذا تذكرنا حملات المغول الذين كانوا يهدمون و ويحرقون ثم يعودون وهذا قصاراهم من حربهم وإذا عدنا إلى كتاب الله المبين ونظ سورة الأنفال وجدنا فى مفتتحها قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فالأنفال هى الغنائم وهى فى التفاسير عطايا من الله والرسول ﷺ يأتمر بأمر تقسيمها على مستحقيها ولذلك كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم عليهم بالسوية، وا يقتضى أن يطيعوا الله والرسول فى أخذ كل منهم نصيبه فى الغنيمة. وروى عن النب

vier. Islam and The psychology, P56. London 1964.

أنه كان يتنازل تكرما منه فى الغنيمة. والمستخلص من ذلك أن الغنائم لم يكن أمرها كما توهم هذا الكاتب لم تكن أسلابة تسلب ويظفر كل محارب بما يسعه أن يحمله منها، بل هذه الغنائم مقننة بقانون سماوى ينبغى الوقوف عند حدوده والعمل به على نحو منظم مقيد، وهذا ما يخرج بها خروجا بعيدا عن أن تكون ما أغرى المسلمين بالحرب، قيل: إن السبب فى هزيمة المسلمين فى أحد أن جماعة من الفتيان سارعوا إلى الغنائم فشغلهم ذلك عن مواجهة عدوهم، وتحين المشركون هذه النهضة منهم فشدوا عليهم وكانت لهم الغلبة. وتأسيسا على هذا يكون هؤلاء الفتيان قد تردوا فى خطأ ما كان لهم أن يتردوا فيه، وقد أعقب ذلك هزيمتهم، ولكن القرآن الكريم أيقظ وعيهم وعلمهم أى مسلك يسلكون. وبذا يترجح ألا تكون تلك الأنفال سبب المغازى كما زعم الزاعم، وكان كلامه ضربا من الخلط والخبط.

وبذكر أحد يرد على الخاطر قول مؤلف آخر إن انتصار النبى ﷺ فى بدر ثبت من قلبه وقوى من شجاعته، وحفزه إلى خوض معركة أحد التى كانت الكسرة فيها للمسلمين⁽¹⁾. لأنه ﷺ إنما كان يحارب بوحي من الله وناصره ربه، ومعنى التشجيع هو الدفع إلى الإقدام بعد التردد أو الإحجام، وما كان يسعه إلا أن يتقدم رافعا مشعل النور والإيمان ليبدد به غياهب الكفر مؤتمرا بأمر الله جل جلاله حاملا الأمانة منطلقا فى المسيرة التى أراد الله بها إعلاء كلمة الحق وإصلاح حال الخلق وتوجيه سلوكهم إلى ما فيه فلاحهم فى دنياهم وأخراهم.

هذا هو صنيع الرسول ﷺ وذلك معنى جهاده فى سبيل الله ومن فى معيته من المؤمنين. إن هذا من قول القائل يجعل النبى ﷺ محاربا ككل محارب ومن الحق أنه مختلف بذلك عن المحارب كائنا من يكون ولذلك كان أوجب الواجب أن نكون على علم بوصفه مجاهدا لا أن نعه محاربا وحسب.

وهذا مؤلف آخر يجرى على الرسول ﷺ صفات فما يقول إلا حقا. إنه يقول إنه لين العريكة رقيق القلب رحيم، والحق ما قال، إلا أننا نضيف إلى ذلك إنه الرحمة المهداة ولو كان على غير ذلك لافضوا من حوله.

(1) Lammens. L, Islam. Croyances et Institutions P.P 52. 53 Beyrouth 1926.

ويمتد الكلام بالمؤلف فيقول: إنه فى حروبه حظر أن يقتل المسلمون شيخا أو طفلا أو امرأة، أو يباعد بين أم وولدها ويحرموه من حنوها، كما كره منهم ونهاهم عن أن يقطعوا شجرة مثمرة.

وهذا غاية الغايات فى كرم النفس ورقة القلب. وأردف المؤلف قائلا: إننا قلما نجد له فى التاريخ نظيرا تجرى عليه صفات رحمته، ونضيف إننا إذا قلبنا صفحات التاريخ، ألفينا فى هذا منقطع القرن، ثم يفضى القول بالمؤلف إلى أنه كان فى الأحيان يبدى الميل إلى الانتقام⁽¹⁾.

ونحن ننفى عنه ذلك لأنه يتعارض تماما مع ما سلف من قول ولم يسق لذلك مثلا لدعم دعواه بدليلها، ونحن لم نعرف هذا عنه ولم يجرب عليه صلوات الله وسلامه عليه. هذا ما توافر لى من أسباب لمعرفة تلك المغازى وإنزالها منزلتها وإجراء ما لها من صفات عليها، وذلك تمهيدا لدراستها دراسة مقارنة فيما نظم عنها شعراء العربية والتركية والفارسية والأوردية.

ويخيل إلى أنى كنت على الحق والصواب حين انعقدت نيتى على اختيارها موضوعا للدراسة المقارنة فى الأدب الإسلامى.

فلقد اجتمع شعراء الشعوب الإسلامية على صنيع واحد، هو قولهم شعرا فيها، وتباينوا فى كيفية تناوهم للموضوع ورؤيتهم إليها فيما اتسمت به من حصائص وأخرجوا فيها كتباً قائمة بنفسها أو قالوا أشعارا تفرقت فى أشات الكتب.

ولا شك أن ما صنعوا أمارا على أن الوحدة الإسلامية عقدت بينهم من الوشائج ما جعلهم يتشابهون فى عموم ويختلفون فى خصوص وذلك منهم يجعل نظرة التأمل فى شعرهم مادة سخية للدراسة المقارنة فى شعر إسلامى أعرق ما يكون فى إسلاميته.

وهذه الدراسة هى تلك التى أفيت عمرا طويلا فى العكوف عليها وتلمسها وتبعتها، وعاهدت الله ونمسى على ألا أكف عن مواصلتها إلى أن تنقضى عنى من الدهر أيامى، بيد أنى صادفت فى دراسنى تلك ما تعثر وشق.

(1) Emule Dermengham Lavie de Mahomet S.199 Paris 1929

فلما ذهبت أتلتمس النصوص فى مظانها، وجدتها وفيرة سخية فى العربية والأوردية على حين ألفيتها قليلة شحيحة فى التركية والفارسية، كما أن وسيلتى انقطعت إلى كثرة من المراجع لم أجدها فى مصر وطلبتها من بعيد فبعثت إلى بها من بعثوا وكانوا قلة، ولزم الصمت من لزموا وكانوا كثرة.

استند على أن عيل صبرى فى انتظارى، وسأنى أن يكون الكلام فى باب الشعر العربى طويلا وفى باب الشعر الأوردى أطول، وفى المقابل أن يكون فى الشعر التركى مقيدا وفى الشعر الفارسى أقصر، ورأيت فى ذلك عدم تناسب وتناسق بين أطراف المقارنة. وتأرجحت فى التردد بين إضافة ما يمكن إضافته، وطرح ما يمكن طرحه.

ولكنى أحمد الله أن ألهمنى الحكمة والصواب فارتضيت واقع الحال، وشعرت بالبراءة أمام نفسى اللوامة، وإن كان ما كان على غير تراخ ولا تقصير منى، وذكرت أنه ينبغى لى إن لم يكن ما أريد، أن أريد ما يكون، وما كل ما يتمنى المرء يدركه، كما أن لكل حسن أحسن ولا يجدر الانصراف عن الحسن انتظارا لما هو أحسن.

خاصة أنى فى سن عالية وهامة اليوم أو الغد وإنما أخرج هذا الكتاب محتسبا إياه عند الله.

وأسأل الله الرشاد والسداد.

د. حسين مجيب المصرى

الباب الأول

الغزوات في الشعر العربي

الفصل الأول

الغزوات في الشعر العربي القديم

وإذا أَرخينا نظرة إلى سيرة ابن هشام ألفينا أنه في القسم الثاني منها يورد ما قيل من شعر في الغزوات ويبدو أنه أوردتها حصراً وتحديداً لأنه حريص على ذكرها على أنها جزء لا يتجزأ من تلك الغزوات التي يؤرخها، ولا غرو فإن الشعر يعد بحق تأريخاً ولو ورد عرضاً، ولكن ابن هشام يورده أصلاً مما يجعل من الأشعار التي أوردتها حقائق تاريخية ليس في الإمكان على أى حال من الحال فصلها عن الواقع التاريخي، لأنها تؤيده وتؤكد.

إن ابن هشام فطن إلى ما للشعر من أهمية، ولذلك عقب في تأريخه لكل غزوة بما قيل فيها، وبذلك جمع التاريخ من أطرافه ورفع الشعر إلى ديوان العرب^(١).

وقوله ﷺ أنه ديوان العرب، من قواطع الأدلة على أنه جمع كل شيء عن العرب وعرف بحياتهم في شتى جوانبها، ونطق عنهم في كل ما وصفوا به الحياة من حولهم، وما شغلهم من شواغل، فهو بهذه المناسبة تاريخهم المفصل الجامع.

وقال ابن سلام: وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات^(٢).

وبهاتين المقولتين وبناء عليهما في الإمكان أن نطلق حكماً جامعاً ينسحب على شعر الغزوات العربية الذى نتصدى لدراسته، فهذا الشعر تأريخ لهذه الغزوات وإن لم يقصد ابن هشام إلى ذلك، ولكن ما أوردته منه مما قيل في الغزوات يؤرخها، وبذلك يكون هذا التاريخ غير منسوب إلى مؤرخ عقد العزم على أن يسرد الحوادث بل هذا الشعر نعدده نحن تاريخاً لتلك الحوادث خاصة أن صاحب السيرة إنما جعله جزءاً متمماً مهماً لسيرته ﷺ.

أما صفات هذا الشعر فليست على وصف ابن سلام، أى ليس ذلك للشعر الذى نظمته الشعراء يحاولون فيه البلاغة ويبالغون ما شاء الله أن يبالغوا، أو يطوعوا شعرهم لغرض

(١) أبو زيد القرشى: حمرة أشعار العرب، ص ١٤ (القاهرة ١٩٢٦)

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ص ٥١٣ (القاهرة).

خاص بهم وحدهم. فالشعراء الذين قالوا شعر الغزوات قالوا ما قالوا من وحى البديهة متأثرين بما رأوا أو سمعوا فى تلك الغزوات وما أرادوا إلا تعبيرا عما ماجت به نفوسهم وتأثرت به مشاعرهم، ولذلك كان شعرهم خلوا من التنميق والتزويق وخلا مما يجريه الشاعر مجرى الواقع وهو أبعد ما يكون عنه.

فنظرنا إليهم فى كتابنا هذا نظرنا إلى المؤرخين الذين أرخوا بالشعر وكان هذا قصاراهم، فتلقينا عنهم ما تلقينا كما نتلقاه عن المؤرخ الثبت المحقق المدقق.

إنهم لم يكونوا من المشاهير، اللهم إلا إذا استثنينا منهم سيدنا حسان بن ثابت ولا (ربيع من زهرة واحدة) كما يقول المثل الفارسى. ومرد السبب فى ضعف شأن الشعر فى فترة الغزوات إلى أن العرب - ومن هم فى بلاغتهم ولسنهم - جعلوا يتأملون آيات الله الحكيمات وما فيها من بلاغة لا تتعلق بمثلها عبقرية شاعر منهم، وجعلوا يتأملون ويتعجبون فألهام ذلك عن الشعر، ولم يجدوا فى عصرهم من الكرماء من ينتجون كرمهم ويأملون جزيل العطاء منهم كما كان الشأن فيما مضى، وكان عصرهم عصر تحول من حال إلى حال، مما استوجب منهم التفكير فيما لم يفكروا فيه من قبل، وهذا مما صرفهم عن الشعر.

ونسوق لذلك مثلا الشاعر لبید بن ربيعة العامرى الذى ملأ الجاهلية ببدايع شعره، عاش حتى أدرك الإسلام وأسلم، وكان أول من ألقى سلاح شعره أمام القرآن الكريم فلم يقل فى عمره الإسلامى إلا بيتا واحدا فقال ﷺ إنه كان يقول الصدق. وسأل سائل ماذا تصنع فى حياتك الإسلامية الآن، فقال أكتب القرآن. ولو امتد العمر بالأعشى إلى لقاء الرسول ﷺ لدافع عن الرسول وناقش فى ذلك حسان فى قصائده الرسولية^(١).

كما أنه مما زهد فصحاء العرب وغير فصحاءهم فى الشعر ما نسوقه خبرا يؤيد ذلك. فى رواية أن رجلين تهاجيا على عهد النبى ﷺ، ومع كل منهما غواة من قومه وهم السفهاء فنزل قوله تعالى: ﴿ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾

أى فى كل واد من أودية الكلام يهيمون.

قال ابن عباس إنهم فى كل لغو يخوضون.

(١) د. ركنى المحاسنى: الأدب الدينى ص ٤٨ القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

كما قيل إنهم يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل، أما معنى قوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فهو أنهم يكذبون فى شعرهم، أو يمدحون الكرم ويحتون عليه، وليسوا من الكرماء، ويذمون البخل وهم البخلاء^(١).

ويؤخذ من تقليب تلك المعانى التى أوردتها المفسرون على وجوها أن الكلام إنما يسحب على فئة بعينها من الشعراء ذموا فى القرآن بضلالهم ونقائصهم ومقابعتهم، وفى عداد هؤلاء الشعراء هبيرة بن أبى وهب وكعب بن الأشرف، وقد بكى كعب قتلى بدر من المشركين وشب بنساء المسلمين، فأمر ﷺ رهطا من الأنصار بقتله جزاء وفاقا. وهنا نورد رأيا لأحد القدماء من أهل البصر بالشعر وهو أن الشعر إذا دخل فى باب الخير لان، فحسان بن ثابت علا شأنه فى الجاهلية والإسلام، ولما دخل شعره فى باب الخير لان^(٢).

وعلى ذكر حسان قيل أن النبى ﷺ يتطيب شعره فى تأييد الإيمان بالله. روى أنه كان ذات ليلة فى سفر فقال: "أين حسان بن ثابت؟" فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. فقال: "أجد" فجعل حسان ينشد من شعره والرسول يصغى إليه فما زال يسمع وهو سائق راحلته حتى كاد رأسها يمس الورك. ولما فرغ حسان من نشيده قال ﷺ: "لهذا أشد عليهم من وقع النبل"^(٣).

ذاك ما يقف بنا على منزلة حسان عند النبى ﷺ وفى فترة الغزوات والصراع بين الحق والباطل ويبين لنا كيف أنه اتجه بشعره وجهة خاصة لا عهد للعرب بمثلها من قبل.

ولقد تميزت شخصية حسان بعد إسلامه وبعد اتصاله بالرسول ﷺ، بتلك الخصائص التى اتسم بها شعره، وبالمواقف التى وقفها من الدين الحنيف فى بزوغ فجره، فقد غلب على الشعر فى تلك الفترة فن الهجاء على أنه تعبير عما اكتمن فى نفوس المشركين على سواء، وكان هذا الهجاء عاما أظهر منه خاصا، لأنه كان عند المسلمين على الأنخص دفاعا شرعيا فهؤلاء المسلمون دافعوا عن دينهم مجاهدين باللسان وأدى حسان مهمته

(١) الحازن، لباب التأويل ص ٣٧٤ القاهرة سنة ١٣٢٨هـ.

(٢) المرزبانى، الموشح ص ٦٢ القاهرة سنة ١٣٤٧.

(٣) ابن واصل الحموى تحريد الأعانى ص ٥٢١ ح ٢ القاهرة سنة ١٩٥٥.

وهى قهر أعداء الرسول ﷺ، فشعره مصدر له قيمته وأهميته من التاريخ الإسلامى، وعلى الأخص سنداً تاريخياً لمن يتوفرون على دراسة ما ماج من أحداث فى السنوات العشر الأخيرة من حياته صلوات الله وسلامه عليه. وفى هذه الفترة بالذات انقطع لمدح الرسول وجاهد من عادوه، ولقد نافح وناضل عن المؤمنين فى غزوتى بدر وأحد، كما أنه فى اختصاصه بجهاد المسلمين رثى حمزة رضى الله عنه عم النبى وبكى شهداء المواقع الإسلامية ومنهم خبيب بن عدى وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة، وأخيراً رثى رسول الله ﷺ^(١).

وشعر حسان يتسم بالصدق والواقعية، وهذا من صفته يوجب التعويل عليه كمصدر للتاريخ، فهو يذكر الحقيقة لا ريب فيها وإن وشاها بمسحة من خيال، وذلك ما يقتضيه التعبير بالشعر، إنه لا يبالغ تلك المبالغة التى تحجب الحقيقة التاريخية. مثال ذلك قوله فى رثاء خبيب بن عدى الذى استشهد فى إحدى الغزوات الأولى والأوجب أن يصفه فى شجاعته وحوضه المعركة لنصرة الإسلام، فقال:

ما بال عينك لا ترقا مدامعها سحا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق؟
على خبيب وفى الرحمن مصرعه لا فشل حين تلقاه ولا نزق
فاذهب خبيب جزاك الله طيبة وجنة الخلد عند الحور فى الرفق
إنه يصدقنا القول فى وصف هذا المجاهد الشهيد فى مصرعه، ويبين كيف أنه نال الشهادة لينال بها جنة الخلد وكيف كان مقداماً رابط الجأش لا يتراجع أمام تقدم العدو، وهو يبكيه وحق لشهيد أن يبكى عليه. وفى هذا كله لم يبعد حسان عن الحقيقة فى شىء، بل أجمل القول فى مصرعه ولم يكذب يدع مجالا لقائل يطيل ويطيّل ويهيم فى الخيال حتى ينسى واقع الحال.

نقول هذا ونورد شعراً فارسياً للفردوسى فى شاهنامته التى نظمها فى القرن الرابع الهجرى مؤرخاً بها تاريخ الفرس من أول عهدهم إلى فتح العرب لبلادهم مأموراً بذلك من السلطان محمود الغزنوى الذى أراد أن يعث تاريخ الفرس القديم وبقيم الدليل على أن لهم سابقة فى الجحد، كما يريد ضمما أن يقرن اسمه باسم هذا الشاعر ومنطومه التى تقع فى

(١) عبد الحواد سليمان* شاعر الرسول حسان بن ثابت ص ٣٢، ٣٣ القاهرة .

ستين ألف بيت، والفردوسى كان شعوبيا يتعصب للفرس على العرب، ويريد أن يباهى بأسلافه وما كان لهم من مجد فى الزمان الخالى مباحيا بهم العرب وغير العرب.

إنه يصف بطل الفرس الأسطورى رستم فى معركة له مع الترك فيقول:

(بالقتال رستم أديم الأرض يحمر، وفى يده عمود على هيئة رأس البقر أينما يمضى ويسوق الجياد، تسقط كأوراق الخريف رءوس العباد. إذا أمسك بالسيف الحسام أخفض ما للصيد من هام. ومن نجيع الشجعان فى البيداء، ماجت الأرض كالبحر بالدماء بما أثارَت سنايك الخيل من غبار فى جوف الصحراء نقصت الأرضون أرضا وزادت فى السموات سماء. ولى الترك عن الفرس هارين، واتخذوا سبيلهم إلى دامغان سارين. ومنها نحو جيحون ولوا وجوههم، وقد فطر الأسى قلوبهم فرفعوا باللغظ أصواتهم، فانحطم سلاحهم وانقصم وسطهم، لا طبل ولا بوق معهم، ولا قدم ولا رأس لهم)^(١).

ورستم هو البطل الفارسى الأسطورى الأشهر، والفرس يحبونه كل المحبة ويعجبون به كل الإعجاب. وبلغ من فرط إعجابهم به كأنما هو معجزة أنهم يسمون قوس قزح (قوس رستم)^(٢) ويسمون فرسه (رخش) بمعنى انتشار الشعاع. وشغل المصورون الفرس أنفسهم برسم صور له وهو على فرسه يصول ويجول ويطش بالأعداء بطشا، والمصورون شأنهم شأن الشعراء معتنون بقوميتهم وهو ذلك الاعتزاز الذى عبر عنه الفردوسى^(٣).

وهكذا يبلغ الفردوسى المدى فى خياله ويرفع ذلك البطل الأسطورى على جناح من الأوهام والأحلام ليعرضه فى صورة صنديد ذى بأس شديد وذى بأس صاحب خوارق ومعجزات. إن المبالغة عنصر هام من عناصر الأدب ما فى ذلك ريب؛ إذ إنها تقوى المعنى وتبرزه، ولكنها ينبغى أن تكون مقبولة فى الفهم والدوق وتقف عند حد، لأنها إذا تجاوزته

يكى كرزى كاويكر بجنك
جىو برىك خىران سررور بختى
سرروراران همى كردىست
خودرىا زمين موى رن شد رجون
زمين شش شد واسمان كشت هشت
كشيدند لشكر سوى دامغان
حليده دل وساعم وكفتكوى
به كوس وه بوق وه باى وه سر

(2) Lepkin: Shakh-Nome 231 (Moskva 1955).

(3) Behomin, Perria ondphie Persiansiamr P 301 (London 1887).

(١) زمين كرده بدسرح رستم زحك
بهر سوكه مركب براكيختسى
شمشير بران خو بكداشت دست
زحون دلبران بدشت اسدرون
رسانم ستوران بدشت اسدرون
برفتند تركان ريش مغان
وراجىا محيكون نهدندروى
شكسته سليح وكسته كمر

فقدت أهميتها والغرض منها، فأنا مثلاً لا يعجبني أن أرى رستم وهو يحس فرسه يسقط
رعوس الأبطال من المحاربين وكأنها أوراق الخريف تتهاوى، ولا أجد من الحقيقة التاريخية
فى هذه الطائفة من شعره إلا أنه محارب ألحق هزيمة ساحقة ماحقة بالترك فولوا وجوههم
قبل جيحون، ومضوا إلى دامغان. أقول هذا لأنى أرى مع الإيرانيين المحدثين أن شاهنامه
الفردوسى كتاب تاريخ لأنه صرح فى كثير من مواضعها أنه اعترف مادته التاريخية من
مصادر تاريخية فارسية قديمة وعربية ومما مر بسمعه من قصص الملوك والأبطال على من
يتحللون حولهم ويأخذون عنهم وهم يفخرون بما كان لأسلافهم فى الماضى السحيق من
مجد وسؤدد، إننا لا نكاد نجد مؤلفاً إيرانياً من المحدثين يتصدى لذكر شيء من تاريخ إيران
قبل الإسلام إلا استشهد بأبيات من شاهنامه الفردوسى على أنها مصدر تاريخى له الأهمية.

وهذا ما يشعنا بالفارق بين الفردوسى وبين حسان بن ثابت فيما أسلفنا له الذكر، من
شعر رثى فيه خبيب بن عدى، إن هذا الشاعر العربى ذكر الحقيقة دون أن يتجاوزها إلى
الخيال البعيد. لقد شبه الدموع بالآلئ وهذا قريب الشبه بالحقيقة كما كان أكثر اهتماماً
بالإشارة إلى أن هذا المجاهد استشهد فى سبيل الله وزف إليه البشرى بدخول الجنة.

وهنا نقف وقفة لنذكر قضية هى الفرق بين خيال الساميين والعرب منهم وخيال الآريين
والفرس فى طبيعتهم، فالخيال العربى تقرير فى الأغلب الأعم، أى أن الشاعر يصف الشيء
كما يراه بأم عينيه وإن شبهه بما شاء. أما الشاعر الفارسى فخياله إبداعى خلاق أى أنه
يخلق مما يراه بعينه ما يراه بخياله ويفقده طبيعته وحقيقته.

ونخلص من هذا كله إلى القول إن شعر الغزوات أدخل فى التاريخ منه فى الأدب وشعر
الغزوات فيه أخذ ورد بين حسان المدافع عن النبى ﷺ وبين الشعراء الذين عبروا عن عدائهم
للنبى ﷺ.

ونسوق أمثلة لذلك شعر حسان فى الرد على أبى سفيان وفى الرد على كعب بن
الأشرف والرد على ميمونة وعلى ابن الزبعرى.

وهذا ما يذكرنا عند العرب فى الجاهلية بالمنافرات، والمنافرة هى إذا تنازع العرب فى
الجاهلية فى الشرف تنافر الرجال إلى حكمائهم، ونافر بمعنى حاكم فى النسب، وسميت
منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة أنا أعز نفراً. وقد ألف أبو عبيدة وعبره من الأئمة

البارعين فى اللغة كتبنا فى منافرات العرب، وأشهر منافرة فى الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن الأحوص، قال له علقمة: الرياسة لجدى الأحوص، وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجله، وقد قعد عمك عنها فأنا أولى بها منك وإن شئت نافرتك، فقال له عامر: قد شئت والله لأننا أشرف منك حسبا، وأثبت منك نسبا، وأطول قصباء، فقال علقمة: أنافرك وإنى لبر وإنك لفاجر^(١).

هذا مما كان بين حسان والشعراء من أعداء النبى ﷺ يقرب من الفهم أن حسان أوجد هذا الفن الشعرى وهو يدافع عن النبى ﷺ وهو مندرج فى شعر الغزوات.

كما يلفتنا تبادل الأخذ والرد بين الشاعرين بما نجده فى الشعر التركى وهو فن قائم بذاته يعرف بفن المناظرات، فالمناظرة فى الشعر الفارسى والتركى تتخذ مقدمة ينتهى الشاعر منها إلى الدخول على المدح، فهى دياجة يراد بها إثارة الانتباه إلى غرض الشاعر والتشويق إليه كما الشأن فى التمهيد للقوائد بالغزل. وقد وازن بعضهم بين المناظرة والغزل فقال إنه أى الفرق بينهما هو أن الشاعر فى الغزل يتحدث عن نفسه ويصور حاله وليس الشأن كذلك فى المناظرة^(٢).

وللشاعر التركى فضولى البغدادى من أهل القرن العاشر الهجرى مناظرة بين الخمر والبنج منظومة بالتركية ومحاوراة بين الصوفى والزاهد والصحة والمرض فى نشر فارسى. وللشاعر الفارسى أسدى من أهل القرن الخامس الهجرى قصائد فى المناظرات كمناظرة السماء والأرض والجوسى والمسلم وغيرهما^(٣).

أما ما نلاحظه فإن المنافرات التى لها صفة المناظرات فى العربية إنما تدور فى دائرة من الحقائق والمناظرات فيها من البشر، وعلى النقيض من ذلك نجدها عند الفرس والترك واقعة بين طرفين من غير البشر وإذا أجريت على لسان البشر كانت متخيلة. ومن ثم ندرك الفارق الواضح بين ما دار بين حسان بن ثابت وبين من رد عليهم وبين ما يشبه ذلك من مناظرات فى شعر الفرس والترك ونثرهم.

(١) الألوسى: بلوع الأرب ص ٢٨٩ ح ١ (القاهرة سنة ١٩٢٤م)

(2) Ethe: uber Persische Tenzonbn, vesnhendlungen desix interndtionalen orienetalistein Kongresses, 5.50 (Beslin 1882).

(٣) رهران حائلى، فرهنگ ادبيات فارسى درى ص ٥١ (تهران)

لقد قام حسان بن ثابت بمهمته على الوجه الأكمل، وشرف برضا الرسول ﷺ عنه وهو يناضل بلسانه الفصيح الذى يؤثر أعمق الأثر فى النفوس.

وحسبنا أن نورد قوله ﷺ له (اهج قريشا ومعك روح القدس والله إن كلامك لأشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام).

هذه مقولة مشهورة ونحن ننظر إليها فضلا عن أنها دعوة للذود عن الإيمان بالهجاء كما قال الصادق المصدوق يمكن أن تدخل فى باب المنافرة والمناظرة، وبذلك يكون حسان بن ثابت صاحب فضل فى تمييز شعره بلون خاص به لا عهد لنا بمثله فى فترة من الزمان يؤرخ بها خصائص الشعر العربى فمن غرر شعره التى يقول فيها ردا على من هجا الرسول ﷺ :

هجوت (محمدا) فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
قال صلى الله عليه وسلم: (جزاؤك على الله الجنة)، فلما انتهى إلى قوله:
فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منك وقاء
قال عليه الصلاة والسلام: (وقاك الله هول المطلاع)، ولما انتهى إلى قوله:
أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء
قال من حضر: هذا والله أنصف بيت قالته العرب.

ولنا أن نعد مثل ذلك مثالا لتلك الروحانية الإيمانية التى غمرت شعر المغازى وبينت على الحقيقة أهميته وجدارته بنظرة تأمل وتمحيص، فقد عبر شعر حسان عن تلك الغزوات، وأجرى عليها صفاتها، وبين أنها ليست حروبا وكفى، بل هى حروب لها ما لها من ملامح وسمات ينبغى التنبه إليها.

ومن قول حسان بن ثابت فى غزوة بدر، وهو يتجه بخطابه إلى الحارث بن هشام:
تبلى فؤادك فى المنام خريدة تسقى الضجيع ببارد يسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام
أقسمت أنساها وأترك ذكرها حتى تغيب فى الضريح عزامى
إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقابل دونهم ونجا رأس طمرة ولجام

عند هذا الحد يتهكم حسان بالحارث بن هشام ويصفه بالجبن والنكوص عن المعركة، بل والفرار منها وعجزه عن أن يذود عن حريمه وفي هذا كل العار والشنار وهو فى دياجة قصيدته يقول إنه لا جانب فيه للغزل فهو رجل جد ورجل حرب ويعيبه أن يشغله شاغل من عشق أو غير عشق عن خوض الهيجاء مستتبلا مقداما، وهذا معنى جديد من معانى البطولة يدركه حسان ويبين كيف ينبغى للمقاتل أن يكون شديد البأس رابط الجأش لا يحجم ويصمد ما استطاع سيلا إلى الصمود.

وبذلك صور لنا البطل العربى المحارب فى صورته الصادقة الناطقة عن جميع صفاته:

وبنو آبيه ورهطه فى معرك	نصر الإله به ذوى الإسلام
طحنتهم والله ينفذ أمره	حرب يشب سعيها بضرام
بالعار والذل المبين إذا رأى	بيض السيوف تسوق كل همام
بيض إذا لاقت حديدا صممت	كالبرق تحت ظلال كل غمام

فى هذه الطائفة من الأبيات يعبر حسان الحارث بن هشام بعجزه كل العجز أن يحمى حريمه ويعد ذلك من مقابجه ونقائصه. كما يتغنى فى نشوة المنتصر بغلبة المسلمين على المشركين فى معركة ضارية يحسن وصفها وهو يصف تلك الحرب التى اشتعل ضرامها بأمر الله، لأن المؤمنين يحاربون لنصرة دين الله وكان الله عوننا وسندا لهم فأذهبوا ريح أعدائهم، وجميل منه أن يجعل السيوف تسوق أمامها كل همام لأن هذه هى المعركة فى حركتها، وما أجمل تشبيهه لها فى بريقها بالبرق فى الغمام.

فهذه صورة جميلة للمعركة وهو يتناول ذكرها ووصفها على نحو فيه تمييز وتفرد، والمعانى فيها آخذ بعضها برقاب بعض ووحدته القصيد واضحة فيها، إنه لا ينجح إلى الخيال إلا فى أقل القليل وهذا ما يدفع إلى القول بأن أحسن الشعر أصدقه فما قال حسان إلا حقا. أما رد الحارث بن هشام على حسان فرد جد ضعيف، وهو اعتذار أوهى من بيت العنكبوت يقول فيه:

الله أعلم ما تركت قتالهم	حتى حبوا مهرى بأشقر مزبد
وعرفت أنى إن أقاتل واحدا	أقتل ولا ينكى عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم	طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

إنه يجهد الجهد كله ليبرر نكوصه عن القتال، وفي عين الحال يقر بأنه لا طاقة له بمن يناجزهم ويبارزهم، وهذا منه خور في العزيمة وقلة في الحيلة، وما لا يليق بالمقاتل الحق، وله في يوم بدر قصيدة تعد سنداً تاريخياً، لأنه ذكر أسماء القتلى من قريش مباحياً بنصر المسلمين المبين، وتعيينه للأسماء على التحديد يدل على أنه كان معنياً بتقصي الحقائق وتعرف الأخبار، إنه أشبه بمن يرقب المعارك ليأتى بأخبارها ويعلم أصحاب الشأن بما يهمهم من أمرها.

لقد علمت قريش يوم بدر	غداة الأسر والقتل الشديد
بأنبا حين تشتجر العوالى	حماة الحرب يوم أبى الوليد
قتلنا ابنى ربيعة يوم سارا	إلينا فى مضاعفة الحديد
وفر بها حكيم يوم حالت	بنو النجار تحظر كالأسود
وولت عند ذاك جموع فهر	وأسلمها الخويزث من بعيد

وهنا نقف وقفة ينفسح لنا مجال المقارنة بين حسان بن ثابت وبين البارودي في قصيدة له قالها في بعثة الجيش المصرى لتأديب أهل كريد بأمر السلطان؛ فقد كان يأتى بضروب من الحيل والمخاتلة حتى يوقع العدو في مهواة لا يجد له منها خلاصاً^(١).

قوم أبى الشيطان إلا نزعهم	فتسللوا من طاعة السلطان
فالبر أكدر والسماء مريضة	والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسائها	لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا	يتكلمون بألسن النيران
فإذا الجبال أسنة وإذا الوها	د أعنة والماء أحمر قان

فالبارودي يستندى شاعريته فتوحى إليه بهذه الأبيات التى لا شك فى جودتها وجمالها، إنه ينجح إلى الخيال والصناعة ويصف لنا جو المعركة وصفا جميلا وبذلك يختلف عن حسان فى الطائفة الأخيرة من أبياته؛ لأنه يكتفى فى قوله أنه حارب قوما خالفوا طاعة السلطان ولم يزد على ذلك ما يدرك منه أسباب خلعهم طاعته أو يعرف بقادتهم وجندهم، فشعر

(١) الإمام المصورى. ديوان محمود سامى ناشا البارودي ص ح القاهرة.

حسان هو الخبر اليقين عن معركة، أما وصف البارودى فرائعة من روائع شعره فى وصف المعركة، وهو يذكرنا بوصف الفردوسى للمعركة التى أوردناها له فى وصف البطل الفارسى الأسطورى رستم. فحسان والبارودى يتكاملان فى وصف معركة دائرة الرحى وحسان لم يقاتل فيها وقاتل البارودى فى معركة كريد بصفته قائدا للجيش المصرى، وكأنما شاء البارودى أن يمجّد مصر وجيشها ويحامل السلطان آتخذ مبشرا بالنصر، أما حسان فهو ينطق عن المؤمنين المجاهدين الذين لا رغبة لهم فى فتح ولا غنم وإنما تاقوا إلى أن يكونوا مستشهدين.

ومن قول حسان فى هجاء بنى جمح ومن أصيب منهم:

جمحت بنو جمح لشقوة جدّهم	إن الذليل موكل بذليل
قتلت بنو جمح بيدر عنوة	وتخاذلوا سعيًا بكل سبيل
جحدوا الكتاب وكذبوا بمحمد	والله يظهر دين كل رسول
لعن الإله أبا خزيمة وابنه	والخالدين، وصاعد بن عقيل

فحسان يتمسك بالمنهج الذى اختاره لنفسه فى شعره، وهو ذكر الواقع والتذكير بأسماء الرجال والتعرف إلى ما ينعقد بينهم وبين الأحداث ليجعل من شعره صحيفة ينبغى أن ينظر فيها المؤرخ، إنه يميل إلى التسبب، والتسبب هو الوقوف على الحقيقة ثم عرضها عرضاً تفسر به أموراً، إنه يلعن من كذبوا رسول الله ﷺ وبذلك يصدقنا التعريف بكونه شاعر الرسول المنافح عنه بلسان غضب، وهو يذكر بنى جمح فيذكرنا بأسماء فى التاريخ ويبين كيف حاربوا فى بدر ودارت الدائرة عليهم وكيف تتخاذلوا فغيرهم بتخاذلهم، ثم يذكرهم بأقبح القبائح وأبشع المآثم وهو جحدهم كتاب الله المبين فأخزاهم الله وأذهب ربحهم، ثم يقول إن هزيمتهم كانت بسبب فساد عقيدتهم، وانتصار المسلمين إنما كان نعمة من الله عليهم، والله مؤيد رسوله بنصر من عنده، وإنه يكثر من الأسماء وهذا كله يعود بالنفع على من ينظر فى السيرة النبوية الشريفة ويرى فى حسان مؤرخاً لها فى كثير من جوانبها.

ويحدثنا حسان عن غزوة بدر فيقول:

فما نخشى بحول الله قوماً	وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جمعاً علينا	كفانا حدهم رب رءوف

سمونا يوم بدر بالعوالى سراعاً ما تضعضعنا الختوف
ولكننا توكلنا وقلنا مآثرنا ومقلنا السيوف
لقيناهم بها لما سمونا ونحن عصابة وهم ألوف

إن الشاعر لا يتخيل ولا يتمثل، بل يقف بنا على الحقيقة بحذافيرها، ويصدقنا الخبر، فهو يحدثنا عن غزوة بدر لا يزيد في صفاتها ولا ينقص منها، إلى كونه يتعمق بنا نفسية المؤمن المجاهد الذى لا يهرب الردى لأنه مندفع إليه بإيمانه الراسخ، وفى بقيه الجازم أن الله سوف يؤيده وينصره، لأنه بذلك إنما ينصر الحق ويعديه على الباطل، ويغلب الإيمان على الكفر، فهو يقاتل لا برغبة منه فى القتال وكفى، بل بقوة غيبية تدفعه وهو لا يعى، وحسبه أن يتوكل على الله وهذا التوكل ما بد من أن يكون له واضح أثره فيما يقدم عليه، إنه لا يخشى كثرة الأعداء ما دام موقناً بأن الله وحده من يذود عنه شرهم ويرتب على هذه النزعة الإيمانية التى تملأ رحاب نفسه، إنه ماض لطيته لا يلقى بالا إلى شىء يتهده أو يفت فى عضده ويذكر بما عاهد هذا المجاهد الله ونفسه عليه فيقول إنه انطلق قدما والله يحميه كما أن سيفه يحميه، كما تطيب نفسه بقوله حامداً لله نعماءه عليه وتأنيده له، وممثلةا تيها بأنه كان فى فئة قليلة نصرها الله على فئة كثيرة، وتلك معجزة الإيمان التى أمن بها من يجاهد فى سبيل الله، وذلك من قول حسان لا بد مذكراً بمظومة ل محمد عاكف (الشاعر التركى المعروف بشاعر الإسلام) عنوانها: (شهداء جناق قلعه) نظمها فى الحرب التى قامت بين الأتراك والحلفاء عند مضيق الدردنيل فى أواخر الحرب العالمية الأولى، وقد استبسل جنود الترك فيها واستشهد فيها منهم مائتا ألف وخمسمائة، قد نقلناها إلى الشعر العربى وقد نشرت^(١).

وهذه منظومة طويلة لها شهرة مستفيضة لا لجمالها الفنى فحسب، بل للمناسبة التى قيلت فيها؛ لأنها وثيقة تاريخية يعتز الأتراك المحدثون بها، وهم فى ذلك على الحق والصواب.

إنها طويلة، ومعظم أبياتها فى وصف المعركة، وقد حلق محمد عاكف بالخيال فوق وأبدع وجاء بتشايه لم يسبق إليها. وهو فى ذلك مشبه للفردوسى وللبارودى فيما عرفنا عنهما من شعر سلفت الإشارة إليه.

(1) Kaya, İslam Edebiyatı Alanında Duyur Bısm (İslamedebiyat.) S.24 Sayı.4 Haziran İstanbul 1990

ونحن هنا لا نورد هذه الأبيات التي وصف فيها المعركة، ولكن اهتمامنا هو إيراد أبياتها الأواخر، يصف فيها المجاهد التركي وهو يجاهد في سبيل الله ويضفي عليه صفاته وهي عين الصفات التي أضفاها حسان في ما أسلفنا ذكره من شعر له في بدر ولا غرو، وقد وقف محمد عاكف، المتوفى عام ١٩٣٨ والملقب بشاعر الإسلام، حياته وكرس كل جهوده لينظم الشعر في أغراض إسلامية، وهو متأثر بالتراث الإسلامي في عامة شعره. فلا جرم تأثر بتاريخ الإسلام أعمق التأثر، ولذلك نجد في تلك القصيدة يذكرنا بالمجاهدين في معركة بدر ويشبه المجاهدين الأتراك بهم على أنهم من أناء دينهم ويصدون عن المسلمين عادية غير المسلمين.

إنه كمسلم لا يفرق بين تركي وعربي فحكمه عليهما واحد، ونظرته إلى هذا لا تختلف عن نظرته إلى ذاك.

يقول محمد عاكف:

ففى سبيل الله يأمن فى الثرى	بعناق الجد كنت الأجدرا
منقذ التوحيد لكن بالدماء	مشبه فى يوم بدر الشهداء
يا عظيما فى حفير لا أراك	إنما التاريخ قبر ما احتواك
وبما أبليت قد ضاق المقام	إنه فى الخلد حتما بالتمام
حجر الكعبة ان وشدت رأسك للسماء	خذك الدامى تسجى بالضياء
يا سعيذا لك قبرا لا تسلىنى	قد حباك المصطفى منه بحضن ^(١)

وجميل من هذا الشاعر التركي أن يتفق مع الشاعر العربي في وصف المجاهد التركي بالنجدة والبسالة، وهذا متوقع منه، إلا أنه يختلف عن الشاعر العربي بأنه يتجه بالخطاب إليه ويناجيه بما يقوم دليلا على حبه له وإعجابه به وإعظام لما أبلى من بلاء حسن لا جزاء له إلا الجنة، فعاكف يتقلب كلامه في المعنويات والروحانيات ويدع من الخيال بدائع. لذا

(١) اى. بوطوراكلر ايجون طويرايعه دوشمش عسكرا
به بيو كسككه قانك قور تريور توحيدى
سكا دار كلميه حك مقبرى كيملى قازسك
هرح ومرح ايتد يكن ادواره ده يتمر لو كتاب
بوطا شدر، ويه ركه كعه ديكسم ناشكا
اى شهيد اوغلو شهيد ايستمه نندن مقر

كو كون احداد ايه رك اوسه او ناك الكى ديكر
بدرك ارسلا نلرى المحق بوقدر شالى ايدى
كوملى كل سنى تاريخه ديسم حيفما رسك
سى المحق ايد تيلر ايدر استيعاب
قايان لخدكه جكسم بوتون احراميك
سكا اغشنى آحش دريور بيعير

ihan gecir, Cumhuriyet doneminde Turh ssirt s.s 12. 13 Istanbul

يسعنا القول بأن الشاعرين متكاملان فيما يختص بالمقاتل العربى والمقاتل التركى، كما أن هذا من موقفهما من المقاتل يفرق بين كلام العربى والتركى. فالعربى يذكر الحقيقة لا يكاد يعدوها إلى الخيال، أما التركى فيذكر الحقيقة ويأبى إلا أن يفسرها بالجاز.

ونعود إلى غزوة بدر فنقول إنها فتحت صفحة حديدة فى تاريخ غزوات الرسول ﷺ، فيها رجحت كفة المسلمين على المشركين، وبفضلها دخل كثير من المسلمين فى دين الله أفواجا، وكان من المشكلات أن يحدد ﷺ موقفا له من اليهود، لقد عاملهم معاملة طيبة إلا أنهم جازوا الإحسان بالإساءة، وعاملوا المسلمين ورسولهم بقسوة وجفاء، مثال ذلك أن شاعرة يهودية تسمى أسماء بنت مروان نظمت قصائد بطولها فى هجاء الرسول ﷺ، أما الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف فنظم من القصائد ما نظم فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القريشيين على التأثير لقتلهم، وبلغ من قحته أن ينشد هذه القصائد بعد عودته إلى المدينة وفى حضور بعض المسلمين، فما استطاع الرسول ﷺ أن يداوم على مهادنة اليهود^(١).

قال كعب بن الأشرف:

طلحت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليه الضيع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
نبئت أن الحارث بن هاشمهم	فى الناس بينى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما	يحمى على الحسب الكريم الأروع

هذا من كلام ابن الأشرف رثاء لمن قتلوا فى بدر، وهو رثاء ما كان متوقعا من رجل لأنه رثاء ممزوج بالبكاء وقمين بمن يرثى عظيما أن يشيد بمناقبه ومحامده وكفى، لا أن يسترسل فى البكاء كالنساء، وهذا ما يذكرنا بقول ابن رشيق فى كتابه (العمدة) من أنه لا فرق بين الرثاء والمدح إلا بإيراد شئ يدل على أن المقصود به ميت مثل ما كان أو عدم منا به كيت وكيت^(٢).

(١) د على الخرطولى الرسول فى رمضان ص ١١٠ القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

(٢) ابن رشيق القيروانى: العمدة ص ١١٧، القاهرة سنة ١٩٢٢ م.

كان القمين بهذا الشاعر ألا يدمع للهزيمة فى بدر إن كان ذا بأس وقوة وجلد ولكن يبدو أن المصاب كان أشد عليه من أن يصبر أو يتصبر، ثم يعرف بالفجعة فى قومه ويصفهم بالسراة ويلتمس شيئا من العزاء والسلوى وهو يحاول أن يواسى من فجعوا فيقول إن الملوك تصرع، ثم يذكر ذل القوم الذين جزعوا لمقتل سيد من ساداتهم فحدعت أنوفهم. وهو عند هذا الحد من قوله يذكر ما وقع إلا أنه بعد ذلك يشحذ الهمم ويقول إن هؤلاء المنهزمين قووا من عزيمتهم وعقدوا النية على معاودة القتال وهذا من كلامه واقع لا شك فيه. وانبرى له حسان معارضا بقوله:

أبكى لكعب ثم عل بعبرة	منه وعاش مجدعا لا يسمع
ولقد رأيت يطن بدر منهم	قتلى تسح لها العيون وتدمع
فأبكى فقد أبكى عبدا راضعا	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيذا	وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم فى قلبه	شغف يظل لخوفه يتصدع

فحسان يعارض كعب بن الأشرف بأبيات من نفس البحر والروى متحديا، كما يذكر البكاء وكأنما يريد أن يعيره ويعير قومه بهذا البكاء وإن قال إن فى بدر من القتلى من يرثى لحالهم. وكأنما يريد حسان أن يظهر الشماتة بهم وهو يضرب له على الوتر الذى ضرب عليه، ويريد له أن يبكى ولكن بكاءه ليس على عظيم قوم بل على عبد رضيع وهو أذل من يكون ويشبهه بكليب إمعانا فى التحقير، وربما أراد بالكليبة التى تبعها هذا العبد عاتكة بنته أبى العيص بن أمية وهى التى قصدها كعب بن الأشرف ونزل عندها فى مكة فأكرمت وفادته وأكرمته، فحسان يهجوها لأنها تستحق الهجاء ثم يتحدث عن الحارث بن هشام الذى فر من المعركة وبذلك يشع به ويعيره. فحسان يذكر ما وقع كما وقع ويقف منه موقف المؤرخ الذى يعبر عن الواقع التاريخى بالشعر.

وكان للهزيمة ببدر فى نفس كعب بن الأشرف أثر كحد السيف، فأكل الحقد قلبه وملأت الضغينة أرجاء نفسه، وما كاد يهتدى أى سبيل يسلك ليشفى غيظه ويشفى أوار موجده إلى أن تفتقت حيلته عن أن يشب بنساء المسلمين وله النية الخبيثة الخسيسة لإثارة المسلمين بما يطعن فى عرضهم ويخدش كرامتهم فى نسائهم. وهنا ذكر مقتل كعب بن الأشرف.

قال ﷺ: من لى بابن الأشرف؟

فأجاب محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، أنا أقتله، فقال ﷺ فافعل. فانضم إليه سلكان بن سلامة وهو أخو كعب من الرضاعة، ومعهما عباد بن بشر والحارث بن أوس، وأرسلوا جميعا سلكان إلى كعب فتحدث معه ساعة وتناشدا الشعر ثم قال: ويحك يابن الأشرف! فقال عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل، واستدرجه سلكان حتى خرج معه فمضى الرجال معهم إلى شعب العجور، فأخذ سلكان برأسه، وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئا، وصاح كعب صيحة أيقظت أهل الحصون من حولهم، فأخذ سلكان سكيناً فغرزها في بطنه فوقع عدو الله.

فقدموا على رسول الله ﷺ، وأخبروه الخبر وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة الثالثة^(١).

وقال كعب بن مالك فى مقتله:

فغودر منهم كعب صريعا	فذللت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علتة	بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلا	إلى كعب أخا كعب يسير
فما كره فأنزله بمكر	ومحمود أخو ثقة جسور

هذه أبيات لا مدخل لها فى الرثاء بل هى ذكر للواقع على التفصيل فهى تاريخ بالمعنى الصحيح، والشاعر يصف ما وقع كما سلفت الإشارة إليه ويضيف إلى ذلك أن يهود بنى النضير ذلوا بعد مصرعه، أما أن يقول إن أخاه هو قاتله فتدل على أن كعبا كان يستحق القتل فإن أخاه لم يلق بالا إلى ما بيته من رحم بل كان الحق عنده أحق أن يتبع، وهذه قيمة معروفة من القيم الأخلاقية.

وقال حسان بن ثابت فى مقتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبى الحقيق:

لله در عصابة لا قيتهم	يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالببيض الحفاف إليكم	مرحاً كأسد فى عرين مغرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم	فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستصريين لنصر دين سيهم	مستصعريين لكل أمر مححف

(١) د عدد المعجم حفاحى' السيرة النبوية الخالدة ص ٢٤٨ القاهرة

فحسان فى هذه الطائفة من الأبيات يؤرخ لنا حدثا تاريخيا خاصا وبذلك يقف منا موقف المؤرخ الشاعر، إنه يصف مقتله ولا يسرف فى استخدام البديع لأنه إنما أراد الإفادة، إنه يذكرنا بالشاعر الفارسى الفردوسى ولكن مع فارق فى باعث الشعارين على قول الشعر. فالفردوسى يريد التمجيد والإعلان عن مجد الفرس فى القرون الخوالى كما يريد أن يتب أن الفارسية تقف على قدم المساواة إلى جانب العربية دون أن تستعير منها، وتلك نزعة قومية له وللسلطان محمود الغزنوى الذى أمره بنظم الشاهنامه، لإقامة الدليل على أن الفرس أعظم من العرب مجدا وأحق بالملك منهم، كما أن الفردوسى أراد أن يعبر عن شعوبيته أى تعصبه للفرس على العرب، أما حسان فقد ذكر هذا الحدث وهو حدث هام فى تاريخ الفترة التى عاشها وجزء هام من السيرة النبوية الشريفة. إن قتل هذين الشعارين اليهوديين يعد نصرا للمسلمين لما عرفنا من هجائهما للنبي ﷺ وتآليهما للمشركين عليه. وفى الوقت عينه يحدثنا أن من أقبلوا على قتلها إنما قتلوهما بىغون أجر كريما عند الله لأنهم نصروا الإسلام ورسوله ﷺ وإنما أراد حسان لنفسه أن يكون معبرا عن كل ما يموج من حوله تعبيرا يقصد فيه إلى الواقع التاريخى، إضافة إلى أنه نصب من نفسه مدافعا عن المسلمين ورسولهم الكريم واقفا بالمرصاد لكل من حدثته نفسه بإلحاق الأذى به فى شخصه أو نبوته أو دعوته وبذلك يكون بحق شاعر هذه الفترة الأوحى الذى استوفى كل تلك الخصائص والشروط.

وننتقل ثانية إلى الرثاء، وما دما ندرس شعر المغازى فالمستقيم فى الأفهام أن يتصل شعرها بالرثاء، لأن فيها من ينتصر ومن ينهزم، ومن يمدح ببسالته ومن يبكى عليه لسيادته فى قومه. وفى حد المراثية قيل إن الشاعر تسمو روحه لأنه يواجه سر الموت وهو سر مغلق ويفضى به هذا إلى التفكير فى أسرار الحياة وصروف القدر. إنه يقف موقف الحيرة تجاه الموت ويا له من سر أبدى يرتد العقل عنه وهو حسيرا غير أنه فى أساءه وبلواه تغمره روحانية تغمر نفسه بالصفاء⁽¹⁾. والرثاء عند العرب لا بد يلفتنا للرثاء عند الترك قبل الإسلام، وكانت مرتيتهم طويلة حافة بمظاهر ما يهتمون بقوله، كانت تتضمن مآثر الميت

(1) Knaldles The Experiemnce op Raetry P 43. (London).

وأوصافه فى حروبه على الأخص، مع تصوير دقيق للقتال والنضال ثم وصف الهيئة التى قتل عليها، والقول فيما خلف من فراغ فى قومه، والإشارة إلى فجيعتهم فيه. ولكم بالغوا فى وصف حزن الأشجار والأطيار والسماء والأرض عليه^(١).

ومقتضى السياق من بعد أن ننظر فى المراتى التى قىلت فى المغازى.

يقول ابن الزبعرى فى قتلى بدر:

ماذا على بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبىها خلفهم ومنبها وابنى ربيعة خير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإظلام
وإذا بكى باك فأعول شجوه فعلى الرئيس الماجد ابن هشام
إن الشاعر لقتل قومه لمحزون، ولكن حزنه حزن الرجال وفى عينه دموع الأبطال لأنه يذكر القتلى بأسمائهم ويخص كلا منهم بصفاته، ثم يستسلم وهو عاجز الرأى قليل الحيلة. ولكن حسان يتهم به ويستنكر منه بكاءه فيقول:

ابك بكت عيناك ثم تبادرت بدم تعل غروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تابعوها هلا ذكرت مكارم الأقسام
وهذا من كلام حسان هجاء لمن بكاهم ابن الزبعرى لأنه لا يراهم جديرين بالبكاء عليهم، إنه يعنف به ويصدمه فى حزنه.

ولقد تلقت مكة أنباء هزيمتهم فى بدر واشتد ذلك عليهم كثيرا إلى حد أنهم منعوا النياحة على القتلى، من خشية أن يشمت المسلمون بهم. واتفق فى يوم بدر أن الأسود ابن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر وكان يود أن يبكى عليهم وهو ضرير، وسمع ذات ليلة صوت نائحة فبعت غلامه، وقال: انظر هل أحل النحب؟ وهل بكت قریش على قتلاها؟ على أبكى على أبى حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هى امرأة تبكى على بغير لها ضل، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال^(٢).

(١) كوبرلى راده محمد فؤاد: تورك ادبياتى تاريخى ص ٨٧ (استاسول ١٩٢٦).

(٢) صهى الرحمن الماركمورى الرحيق المحتوم ص ٢٦٦ - القاهرة ١٩٨٨ م.

أتبكى أن يضل لها بعير
فلا تبكى على بكر ولكن
على بدر سراة بنى هصيص
وبكى أن بكيت على عقيل
وبكيتهم ولا تسمى جمعا
ألا قد ساد بعدهم رجال
ويمنعها من النوم السهود
على بدر تقاصرت الجودود
ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى حارثا أسد الأسود
وما لأبى حكيمة من نديد
ولولا يوم بدر لم يسودوا

فهذا شعر فى الرثاء إلا أنه خلو من الحزن بمفهومه الصحيح؛ إنه يذكر أسماء كثير من القتلى ولم يذكر أبا حكيمة ولده إلا عرضا وقال إنه منقطع الند وهذا كل ما رثاه به، إن مثل هذا الرثاء رثاء جماعى إن صح هذا التعبير، أى أن الشاعر لا يذكر فجميعته فى عزيز عليه كما هو الشأن إذا خص عزيزا عليه بالرثاء، ولذلك كان الكلام خيرا من الأخبار لا أثر فيه لعاطفة، ولا وصف فيه للنفس الملتاعة، وعنصر الحزن فيه جد ضعيف، وبذلك نجد الفارق البعيد بين خصائص هذا الرثاء وخصائصه التى أسلفنا ذكرها فى رثاء الترك وفى سمات الرثاء فى رأى بعض المحدثين من النقاد. ولعل مرد السبب فى هذا إلى أن القوم كانوا فى حروب متعاقبة لا يضطرم أوار إحداها حتى يعقبه أوار غيرها، ولذلك هان أمر القتلى على الشعراء أو كاد، ففترت أحزانهم، وكان حسبهم أن يسيروا إلى البكاء والدموع وذلك قصاراهم.

نذكر بعد ذلك ثلاثة من شعراء المسلمين هم كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة، واختص هؤلاء بالذود عن الإسلام، والرد على أعدائه وإفحامهم بالقول الحق، وجمهرة أشتعارهم من شعر النقائص. وكان كعب بن مالك يخوف المشركين الحرب، وحسان يعيرهم بأنسابهم، أما عبد الله بن رواحة ينعى عليهم كفرهم، وبذلك تقلبت أشتعارهم فى عدة أغراض، وقيل عن كعب بن مالك صاحب أفخر بيت قالته العرب وهو:

ويثر بدر اذ يرد وجوههم جبريل - تحت لوائنا - ومحمد

وقد رد على ضرار بن الخطاب الذى قال ما مجمله، أنه يعزى قومه عما لحق بهم من هزيمة فى بدر، ويتحدث عن الخيل وهى تخوض فى عجاج المعركة ويصف الصرعى فى

حومة الوغى، ويقول إن سيوفهم ما زالت الدماء عالقة بها، ويقول كذلك يصفهم بالشجاعة أنهم فى كل معرك وهم الأبطال الأكار.

فهذا الشاعر لم يزد على وصف رجاله بالشجاعة وليس لكلامه ماء ولا فيه رواء، ولكن كعب بن مالك يرد عليه بقوله:

عحيت لأمر الله، والله قادر	على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى الله، إدرا، أن نلقى معشرا	بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم	من الناس، حتى جمعهم متكائر
وفينا رسول الله، والأوس حوله	له معقل منهم، عزيز وناصر
فلما لقيناهم وكل مجاهد	لأصحابه، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره	وأن رسول الله بالحق ظاهر

إن هذا الشاعر منوط العناية بالتعبير عما يملأ رحاب نفسه من إيمان، ويثبت أن المسلمين يحاربون من يحاربون الله ورسوله، فهم يحتسبون عند الله قتالهم واستشهادهم، ويفخر بأن الرسول ﷺ بينهم وأنه عز بمن التفوا حوله وبصروه بعد أن عز نصر الله، كما وصف نفسية المحارب المؤمن وكيف أنه يستبسل فى القتال من أجل الجنة وكيف يصبر على اللأواء والشدّة والمركة حامية الوطيس ولا يلقى إلى ذلك بالا ما دام عامر القلب بذكر الله، وإيمانه بوحداية الله تزداد رسوخا فى نفسه وهو يقاتل دونه ويذل كل الجهد للصد عنها، وبذلك يختلف عن ضرار المشرك الذى لم يكن فى كثير أو قليل مما قال فكان شعره خلوا من الروحانية والشاعرية فى وقت معا.

ولقد شرف كعب بن مالك بمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى غزواته، ولذلك تعد سيرة ابن هشام المصدر الأول لشعر كعب رضى الله عنه، وجمهرة شعر حسان، وعبد الله بن رواحة، وكان لشعر هؤلاء الشعراء من الأنصار ما له من شديد الوقع على قريش، وغيرها من تلك القبائل التى ضلعت معها ضد الرسول ﷺ.

قيل لرسول الله ﷺ إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوكم.

فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله، ائذن لى فيه، فقال: أنت الذى تقول: فثبت الله؟ قال: نعم يا رسول الله. أنا الذى أقول:

فثبت الله ما أعطاه من حسن تثبيت موسى ونصرا كالدى نصروا

فقال: وأنت فعل الله بك مثل ذلك.

فوئب كعب بن مالك فقال: يا رسول الله: ائذن لى.

فقال: أنت الذى تقول (همت)؟

قال نعم يا رسول الله. أنا الذى أقول.

همت سفينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

فقال: أما إن الله لم ينس ذلك لك^(١).

ونعود إلى المراثى التى قيلت فى بدر إلا أننا نختص بالذكر مرأتى النساء.

قالت صفية بنت مسافر بن أمية تبكى أهل القلب الذين أصيبوا من قریش يوم بدر:

يا من لعين قذاها عائر الرمد	حد النهار وقرن الشمس لم يقد
أخبرت أن سراة الأكرمين معا	قد أحرزتهم منايهم إلى أمد
وفر بالقوم أصحاب الركاب ولم	تعطف غدا تئذ أم على ولد
قومى صفى ولا تنسى قرابتهم	وإن بكيت فما تبكين من بعد
كانوا سقوب سماء البيت فانقصفت	فأصبح السمك منها غير ذى عمد

إن البيت الأول من هذا الشعر يذكر بما قالت الخنساء فى أخيها صخر:

قذى بالعين أم بالعين عوار أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار

وصفية تتجلى أنوثتها فى قولها إن القوم حين فروا فرت الأم من ولدها وهذا هول عظيم، ثم تلتفت إلى بيتها الذى خرب بقتل زوجها فتقول إن هؤلاء القوم كانوا يعمررون بيوتهم وكأنهم عمادها فبموتهم خرت سقوف تلك البيوت بعد أن خر أصحابها من الرجال الذى كانوا عمادا لها.

فكلتا الشاعرتين تعبران عن معنى واحد هو الحزن، والتعبير عنه بالبكاء الذى يعشى البصر، ومدح القتل بأنه كان سيد قومه الذى لن يخلفه من هو مثله.

والخنساء أشد لوعة من صفية لأن صفية تبكى جمعا من الرجال، أما الخنساء فتبكى رجلا واحدا هو أخوها وأقرب ما يكون إليها. وقمى بالذكر أن الشاعرتين لم تذكرتا عمن نكتاهم إلا أن السيادة كانت لهم فى قومهم وأن قتلهم خلف نساءهم بمن يعولهن ويرعى

(١) عبد العزيز الرفاعى كعب بن مالك ص ٥٢ القاهرة ١٩٧٧م.

شئونهن، بيد أنهما لم تتعرضا لوصفهم على أنهم من الشجعان البواسل كما صنع معظم الشعراء الذين رثوا قتلاهم.

إننا نعدم في شعر صفية والخنساء ما كنا نتوقعه من نخب وعويل، وهذا شأن النساء وذلك ما يذكّرنا بشاعرة تركية من شواغر القرن التاسع عشر وهى ترثى أباهما وهى فى جزعها وشدة حسرتها تقول - أقرب ما يكون إلى الواعية التى تسمع من النساء على وفاة الموتى - تقول الشاعرة التركية: "وتلهبت روحى بنار الاشتياق، الفراق آه الفراق آه الفراق، ليت طاقتى لا تنوء بحسرتى، الفراق آه الفراق آه الفراق. ويلاه لقد ارتحل أبى عن دنياه، الفراق آه الفراق آه الفراق. ألا نتخذ نايًا ودفا من نوحنا وصدرنا، الفراق آه الفراق آه الفراق. وارتفعت إلى نظرة من أبى، ولم يبق إلا حشاشة من أبى فأحرق قلبى الصديق أبى. الله فى هذا القلب الكليم، الفراق آه الفراق آه الفراق" (١).

وبشعر هذه الشاعرة التركية نتمثل صورة لشعر تقوله النساء فى الرثاء بكل ما يتقلب فيه من معان وما يتوقع من كلمات وعبارات.

وفى رأى أن العرب كانوا لا يرثون قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا كان ذلك هجاء أو فى حكمه. ولكن الرثاء عندهم لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل فى غير حرب من حروب التاريخ كالغارة ونحوها فحينئذ يعددون المآثر ويبالغون فى الفجيجة كأن هذا الموت غير طبيعى فيمن يستحق أن يموت (٢).

وهذا رأى لا نميل إليه لأننا لا نجد له سندًا من الواقع، خاصة بعد ما رأينا الرثاء رثاء قاله رجل وقالته امرأة، والقليل أمانة على الكثير، وسوف يمر بنا من بعد من الرثاء ما قاله

الفراق آه الفراق آه الفراق
الفراق آه الفراق آه الفراق
الفراق آه الفراق آه الفراق
الفراق آه الفراق آه الفراق
سودل ويراه مى يا قدى بدر
الفراق آه الفراق آه الفراق

(١) حاتم كاريىدى سار اشتياق
اولسورمى طاقتم حرتله طاق
كتدى عالمدن سدر واحسرتا
آهمر ساي اولسورمى سيه دف
موتى حالده بكا ساقدى بدر بوجل
محروحه حقدر دستكير

(٢) مصطفى صادق الرافعى: تاريخ آداب العرب ص ١٠٤ ج ٣ القاهرة سنة ١٩٥٤ م.

رجال ونساء. والوجه أن يقال إن الرثاء عند العرب فى الجاهلية لا يكاد يختلف عنه فى عصر النبوة، وله خصائص تتعلق به وقد تميزه من غيره فى باقى عصور الأدب العربى، وهنا نورد قول من قال إن ندب الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى فى الرثاء الجاهلى، والمرأة العربية فى طليعة من بكى واستبكى وندب الموتى، فهاهى ذى الخنساء تبكى معاوية وصخر^(١).

ونعود إلى الباقيات الرائيات من النساء فإذا هند بنت أثاثه ترثى عبيدة بن الحارث بن المطلب:

لقد ضمن الصفراء مجدا وسؤدا	وحلما أصيلا وافر اللب والعقل
عيادة فابكيه لأضياف غربة	وأرملة تهوى لأشعث كالجلد
وبكيه للأقوام فى كل شتوة	إذا احمر آفاق السماء من المحل
وبكيه للأيتام والريح زفرة	وتشيب قدر طالما أزبدت تغلى
فإن تصبح النيران قد مات ضوءها	فقد كان يذكيهن بالحطب الجزل
لطارق ليل أو للتمس القرى	ومستنجح أضحى لديه على رسل ^(٢)

فهذا القتل تبكيه من تشيد به كوهيب معطاء وكأنما تلمح فى شعرها صورة لحاتم الطائي وهو فى الكرم من هو. إنها تسترسل فى وصفه بالكرم وتفصل القول فيه تفصيلا إلا أنها لا تذكره محاربا، إنها تحرص على وصف أنه من أهل البر والأريحية ينال الأرامل والأيتام من بره ما يحفظ الحياة عليهم. إنها لا تعبر عن الحزن إلا تعبيرا ضعيفا وهى تدعو إلى البكاء عليه، إنها معجبة به الإعجاب كله على أنه جواد سخي الكف يغيث الملهوف ويأخذ بيد من تردى فى وهدة الضياع.

وقالت هند بنت عتبة تبكى أباه يوم بدر أشعارا تختار منها لكثرتها:

أعينى جودا بدمع سرب	على خير خندق لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة	بنو هاتم وبنو المطلب

(١) لويس شيخو أبس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء ص ٣ (بيروت ١٨٩٦م).

(٢) سيرة اس هشام ٣٠٢-٣٠٣ تحقيق د محمد مهمى السرجانى ط دار الفكر، القاهرة.

يذيقوننه حد أسـيافهم
يجروننه وعفـير السـراب
وكان لنا جبـلا راسـيا
جميل المرأة كثير العشب

فالشاعرة تتلو تلو غيرها من الراسين والراسيات فى بدء كلامها بالاتجاه إلى العين بالخطاب ترغب منها أن تجود بالدموع السواجم ثم تصف القتلة التى قتل بها إلى أن تشبهه بالجبل فى قومه مريدة بذلك وصفه برفعة المكانة فيهم إلا أنها لا تبدى من جزعها عليه ما يستحق الالتفات إليه.

ونستفتح الكلام عن غزوة أحد بذكر هند بنت عتبة وإنما نذكرها لأن أباهـا كان يلهب حماسها فى الدعوة إلى الإدراك بالثأر وهذا لون جديد من الشعر قيل فى غزوات الرسول ﷺ فقالت مرتجة:

وبها بنى عبد الدار وبها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

وتقول كذلك:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

كانت هذه المرأة شديدة العداوة لرسول الله ﷺ فقد قتل المسلمون آلهـا يوم بدر، واستقادوا زوجها يوم زحفهم مكة. ولقد أهدر ﷺ دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجثمان عمه حمزة يوم أحد، إلا أنها جاءت مقلعة وقالت له (يا رسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنـى رحمك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله، مصدقه برسوله، ثم كشفت عن وجهها وقالت أنا هند بنت عتبة. فقال ﷺ: مرحبا بك. فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب أن يذلوا من خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من خبائك" (١).

وبذلك طهر الإسلام قلب المرأة من الغل والإحـة، كما حـسر عن عقلها حجاب الجهل، وما دمنـا فى صدد الاستشهاد بشعر فى التحريض بمهد بالقول إن قريشا حز فى نفسها

(١) عند الله عـمى' المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ص ١٠١ ح ٢ القاهرة سنة ١٩٢٢م.

واشتد عليها كثيرا أن تلحق بها الهزيمة الماحقة فى بدر، وأول ما فعلوه أنهم أخذوا بالأسباب جامعة غير منقوصة ليدركوا بثأرهم فبدأوا باحتجاز العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت عمدة السبب فى معركة بدر، وقالوا لمن كانت فيها أموالهم، يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربته لعلنا ندرك منه ثأرا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، أما المال فكان خمسين ألف دينار، وهو مال جزيل، وفى ذلك أنزل الله تعالى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال/ ٣٦) .

وأعلنوا التطوع فى القتال على المشركين ضد المسلمين فدعوا الأحابيش، وكنانة وأهل تهامة للمساهمة فى هذا القتال. واتخذوا وسائل عدة لهذا التحريض وإثارة النفوس على المسلمين. مثال ذلك أنهم رأوا فى الشعر وسيلتهم الفضلى فى سبيل غرضهم، فأغرى صفوان بن أمية شاعرين هما أبو عزة الشاعر ومسافع بن عبد مناف الجمحى وكان أبو عزة هذا قد غمره الرسول ﷺ بعفوه ورحمته فأطلق سراحه وهو أسير فى بدر. ولكن صفوان بن أمية قال له يختله بالإغراء: يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، وأخرج معنا، فرد عليه بقوله: إن محمدا قد من على فلا أريد أن أظاهر عليه قال: (بلى) فأعنا بنفسك، فلك الله إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر. فخرج أبو عزة فى تهامة، ويدعو بنى كنانة ويقول:

أيها بنى عبد مناة الرزام أنتم حماة وأبوكم حام
لا تعدوني نصركم بعد العام لا تسلموني لا يحل إسلام

كما تلا تلوه مسافع بن عبد مناف، فخرج إلى بنى مالك من كنانة، يدعوهم إلى حرب رسول الله فى تحريض مثير:

يا مال، مال الحسب المقدم أنشد ذا القربى وذا التذمم
من كان ذا رحم ومن لم يرحم الحلف وسط البلد المحرم

عند حطيم الكعبة المعظم

أما ما يتوضح مما سلف ذكره فمبلغ الاعتماد على السنة الشعراء فى إدارة رحى المعركة، لقد أبى أبو عزة الشاعر أن يهجو النبى ﷺ لأنه لم ينس ما أولاه من جميل، غير أنه استجاب

لما دعى إليه تحت إغراء شديد لم يطق أن يقاومه، لأن من أغراه مناه الأمانى حيا وميتا ويلحظ على ما قيل من شعر فى الإغراء أن فيه تنغيما وإيقاعا والرغبة من وراء ذلك هى تعميق الإثارة وشحن الهمم، وهذا ما رأينا مثله كذلك فى شعر هند بنت عتبة. فالشعر والرجز على الأخص يستويان فى هذا من أثرهما فى النفوس. كما أن من يدعى جبير بن مطعم لجأ إلى كيفية أخرى فى الإغراء فدعى غلاما حبشيا له اسمه وحشى، يقذف بحربة له كما يقذف الحبشة، قلما يخطئ بها الهدف فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق، فالوعد بالعتق هو غاية المتمنى إن كان عبد رقيق، ومما يدل على أن قريشا كانت على تمام الأهبة تعقد أكيد العزم على القتال وتحرص الحرص كله عليه ولها وطيد الأمل فى الغلاب أن أبا سفيان بن حرب وهو قائد الناس وعكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام وصفوان بن أمية خرجوا وفى معيتهم نساؤهم ملتسمين منهن تشجيعهم على الحرب، ومعلوم أن المحارب يزداد ضراوة فيها ما كانت معه امرأته ولو لحمايتها من وقوعها فى أسر العدو.

وهذا منهم مذكرنا بعادة المحاربين من العرب الذين كانوا يجعلون طعائهم أى نساءهم - خلف صفوفهم وهم يخوضون حومة الوغى لما سلف ذكره من أسباب، وفى ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بنى جسم بن بكر	خلطن بيمسهم حسبا ودينا
أخذن على بعولتهن عهدا	إذا لاقوا فوارس معلمينا
يقدن جيادنا ويقلن لستم	بعولتهن إذا لم يمنعونا

فالشاعر هنا يتيه تيهها بالمرأة العربية ويعجب بهذا من شأنها، كما يعيننا قوله إن نساء العرب يقدن الجياد فى الحرب، فالمدرّك من قيادة الجياد أن المرأة كانت مع حشها الرجال على القتال كن يساهمن فى المعركة بقيادة الجياد وليس هذا بقليل الأثر فى المعركة.

وهذا مذكرنا بالمرأة الفارسية، فنحن نعرف من تسمى أخت حجير صاحب القلعة البيضاء التى أنفت من أن ينهزم أخوها أمام البطل سهراب، فحملت قوسها وامتنطت فرسها ونهدت إلى المعركة قائلة: أين أسود الرجال وأبناء القتال، كما أن أخت بهرام جوبين كانت على رأس جيش عظيم فى عودتها من الصين ولما لحق بها أخو الخاقان يأمرها بالرجوع إلى الصين باررته وقتلته^(١).

(١) د أمين عبد الحميد بدوى: القصة فى الأدب الفارسى ص ٢١٥. القاهرة سنة ١٩٦٤م

وهنا نلاحظ وجهها للتشابه والتخالف بين المرأة العربية والفارسية. فالعربية تشارك زوجها في القتال على نحو خاص، أما الفارسية فتحمل السلاح للقتال وتجنبد الأبطال.

ولا علم لنا بأن الفارسية قالت شعرا تحث به الرجال على القتال كما كان من شأن العربية. ولغزوة أحد عظيم من قدر إذ جعل أحد كتاب الترك لها ميزة على غيرها بتسميتها غزوة أحد العظيمة، وتعليقه أنها منسوبة إلى جبل أحد وأن الرسول ﷺ، قال في حديث صحيح روى عنه "أحد جبل يحبنا ونحبه". ثم وصفها من بعد بأنها غزوة شريفة وقد وقعت في شوال من العام الثالث للهجرة.

وسببها أن كثيرا من علية القوم في قريش حصدتهم سيوف المسلمين في بدر. أما البقية منهم وهم جرحى نقلوا إلى مكة ولما رأتهم النساء انبعثن يعولن ويولولن فينطفر القلب لعويلهن وولولتهن، وهذا من شأنهن أثار الحمية في نفوس القرشيين وحرك فيهم عصبيتهم الجاهلية مما حمسهم على القتال والانتقام كما أن طائفة من البلغاء والشعراء هيجوا خواطرهم وحثوهم على القتال للثأر^(١).

وقد دبر القرشيون الحرب تدبيرا دقيقا وتبادل المسلمون الرأي كذلك فيها. فقال قائلهم: "إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها لألا يقال حصرنا محمدا في صياصي يشرب وآطامها، وفي ذلك مجرة لقريش. وها هم هؤلاء قد وطنوا رمقنا فإذا لم نذب عن عرضنا (العرض كل واد فيه شجر) لم يزرع. وإن قريشا قد دامت حولا على جمع الجموع واستجلاب العرب من بواديه ومن تبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وأفرين لم يكلموا^(٢).

يتحصل من ذلك أن المسلمين كانوا يشاورون النبي ﷺ في الأمر فكان بينه وبينهم أخذ ورد مما يدل على أنه كان يلقي سمعا وبالا إلى رأى غيره وتلك هى الغاية فى التواضع والتسامح، إنه كان يؤثر الانتظار ليكون البادى أظلم إلا أن أنصاره رأوا المبادرة بالإغارة عليهم ليظفروا بهم ويديرون الدائرة عليهم وذلك لأنهم كانوا مندفعين بحماستهم لقتلهم وفى رأيهم أن المحوم هو الوسيلة المثلى للدفاع.

(١) راشد: تواريخ أسياء فى إرشاد الأذكىء ص ٢٣٧ دار سعادت ١٢٨١

(٢) أحمد إبراهيم شريف: الدولة الإسلامية الأولى ص ١٣٨ القاهرة سنة ١٩٦٥م

ولكن راحع الداعون إلى المبادرة بالقتال والخروج إليه رأيهم بعد أن تلبثوا مليا وناطقوا عقولهم وحسبوا أنهم خالفوا الرسول فيما رآه الصالح لهم والأخلق بهم. وخرج ﷺ لهم لباسا عدة القتال، فأدركهم الندم على ما كان من مخالفتهم لرأيه وقالوا له: "ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصع ما بدا لك وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك".

قال ﷺ: "قد دعوتكم إلى الحديث فأبيتهم، وما ينبغي لنسى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به والنصر لكم ما صبرتم).

وهذا شاهد على أنه ﷺ لم ينههم ولم يعنف بهم ولم يشأ أن يقسرهم على ما لا يقتنعون به ولو بادئ الرأي أشعرهم بأنهم لم يكونوا على الصواب فيما رأوا وأمهلهم حتى يدركوا أنهم على غير الصواب. ثم تابعهم على رأيهم إلا أنه أقنعهم أخيرا بضرورة الخروج معه لأنه لبس عدة القتال وما كان يسعه أن يتراجع بعد لبسها فمس شأن كل نبي ألا يخلع عنه عدة القتال بعد لبسها وبذلك ألزمهم الحجة وهم لا يشعرون وأقنعهم بأنه إنما يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بوحي من الله.

ولنا أن ندرك من ذلك كيف أن الإسلام دين تعقل وتدبر وليس دينا يحجب العقول عن تفكيرها بصولة مرهوبة أو قولة لا سبيل إلى عدم الأخذ بها لقد ضرب صلوات الله وسلامه عليه المثل وبين خصائص الدين الحنيف الذي يدعو بالحسنى إلى الأخذ به.

ونعود إلى قول الشعراء في القتال، فقد اتفق أن قتل شداد بن الأسود حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) بعد أن كاد حنظلة يقتل أبا سفيان فقال أبو سفيان من أبيات:

فابكى ولا ترعى مقالة عادل	ولا تسأى من عبرة ونجيب
أساك وإخوانا له قد تابعا	وحق لهم من عبرة بنصيب
وسلى الذى قد كان فى النفس أننى	قتلت من النحر كل نجيب
ومن هاتم قرما كريما ومصعا	وكان لدى الهيجاء غير هيب

بهذه الأبيات يفخر أبو سفيان بما لم يكن له فضل فيه وهو يتهمك متجها بالخطأ إلى امرأة لعلها روح القتيل طالبا إليها أن تبكى بعين غزيرة وهو يظهر مر الشماتة بها.

وفى الحق أن أبا سفيان كاد يقتل بسيف هذا القتيل لولا أن قتله شداد، وهذا منه تبجح ولا شك ودليل على خبث نيته ومجانبته للتهامة في قوله هذا الذى أجراه على لسانه ليمتلئ تيهها بأنه قتل من قتل من سادات المسلمين، وبتعمق نفسيته ندرك أنه ذكر هذا لشعوره بأنه لم يفلح فى قتل من كان يريد له قتلا، ولذلك شاء أن يخفى عجزه وخييته بذكر ما يخرج بعيدا عما وقع.

ولكن حسان بن ثابت ابرى له ليسفه قوله ويذكره بأن كلامه بهتان عظيم ويذكر عدة أسماء ليكيل صاعا بصاعين وما قال حسان إلا حقا:

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم	ولست بزور قتلته بمصيب
أتعجب أن قصدت حمزة منهم	نجيا وقد سميت به بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه	وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصى عليا فراعه	بضربة عضب بله بنحبيب

فحسان يقارع الحجة بالحجة لأنه رد عليه مبينا أن ما كان من قتل المشركين لبعض المسلمين ليس شيئا قياسا بما قتل المسلمون من المشركين فليس له أن ينتفخ تيهها بمثل هذا، فإذا كانت الحرب سجالا بين طائفتين فليس من حق طائفة أن تفخر بنصر لم يكن لها.

والعجب أنه لما طاف بسمع شداد ما قاله أبو سفيان استخف به وبين أن قائله إنما قال الهراء وعيره فقال ابن شداد يذكر يده عند أبى سفيان الذى أشفى على الهلكة وكاد يخر صريعا تحت سيف حنظلة لولا أن قتل هو حنظلة وبذلك سلم أبو سفيان من القتل:

ولولا دفاعى يابن حرب ومشهدى	لألفيت يوم النعف غير مجيب
ولولا مكرى المهري بالنعف قرقرت	ضباع عليه أو ضراء كليب

ومثل هذا الشعر يبين القتال على نطاق ضيق فهو براز بين رجلين إلا أنه مع ذلك يذكر بالقتال بين المشركين والمؤمنين على النطاق الواسع وليس فيه أثر للصنعة لأن المراد من قوله إنما كان الإفادة والإقرار بواقع الأمر.

ومما وقع فى أحد أن المسلمين انكشفوا فأصاب العدو فيهم وكان هذا اليوم يوم شدة وبلاء، وقد كان فيه من المسلمين من أكرمهم الله بالشهادة، ولكن المشركين بلغوا رسول الله ﷺ فذت بالحجارة حتى وقع لشقه، وكان وقوعه في حفرة أعدها المشركون ليتردى

فيها المسلمون، فشج في وجهه وكسرت رباعيته. وجرحت شفته، وكان من أصابه هو عتبة بن أبي وقاص وجعل الدم يسيل على وجهه، فمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! وهذه مقولة منه ﷺ لها في النفس ما لها من عمق أثرها؛ لأنها تبين كيف رد الكفار على الإحسان بالإساءة، أى أنه لم يرد لهم إلا هدايتهم من ضلالهم إلا أنه تعجب من أن يكون الجزء من غير جنس العمل، وهذا هو الضلال المبين فكأنه من كرمه يعاتبهم ويقول ما كان هذا نصيبه إذ نصح لهم وهداهم، فهذا المحارب ﷺ مختلف عن كل محارب في صفاء سريرته وحسن نيته ونبل مقصده، ولقد أنزل الله في ذلك قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

ونزول تلك الآية الكريمة في هذا الحادث من الدليل على أن الله تعالى كان يراقب رسوله في حربه وكأنما شاء أن يرثى له مما أصابه ويطيب نفسه ولم ينس حسان ما وقع من شعر يقول فيه مؤرخا:

إذا الله جازى معشرا بفعالهم	وضرهم الرحمن رب المشارق
فأخزاك ربى يا عتية بن مالك	ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يميننا للنبي تيمدا	فأدميت فاه، قطعت بالبوراق
فهلا ذكرت الله والمزل الذي	تصير إليه عند إحدى البوائق

فحسان كلامه أشبه بالعتاب وهو يدعو الله عليه جزاء ما قدمت يداه ويذكره بأنه أتى أمر نكرا، ولذلك لم يطل في القول وأراد للإشارة أن تغنى عن العبارة ومثل هذا الخطب الجلل في غنية عن بسط الكلام فيه تفصيلا، ومما وقع كذلك في أحد أن زياد بن السكن - ويقال عمارة بن يزيد ابن سكن - قاتل مع خمسة من الأنصار دون رسول الله ﷺ فقاتلوا رجلا تم رجلا يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد - أو عمارة - فجعل يقاتل حتى أئختته جراحته ثم حاءت فئة من المسلمين فباعدت المشركين عن النبي ﷺ وحجزت بينهم وبينه فقال ﷺ: أدنوه منى، فأدنوه منه، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ وهذا يبين كيف كان ﷺ رحيفا بمن معه يلطف بهم ويأبى إلا أن يدفع الأذى عنهم ولم يسهم في تلك اللحظة التي تتهدده بالهلاك وتهددهم، ولا نعرف عنه ﷺ أنه قتل أحدا بل نعلم أنه كان يكتفى بالجرح. قيل إن أبى بن خلف أتى الرسول في أحد وهو يقول: أى محمد، لا بجوت إن بجوت، فقال القوم يا رسول الله أعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول

الله: دعوه، فلما دنا تناول الحربة من الحارث بن الصمه ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدا منها عن فرسه مرارا، فلما رجع إلى قريش مخدوشا في عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد قالوا له: ذهب الله فؤادك، والله أن بك من بأس، فقال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق على لقتلني. فمات عدو الله. وفي ذلك يقول حسان طائفتين من الشعر نختار منها قوله:

ألا من مبلغ عنى أييا	لقد ألقيت فى سحق السعير
تمنى بالضلالة من بعيد	وتقسم إن قدرت مع النذور
تمنيك الأماني من بعيد	وقول الكفر يرجع فى غرور
فقد لاقتك طعنة ذى حفاظ	كريم البيت ليس بذى فحور
له فضل على الأحياء طرا	إذا نابت مللمات الأمور

إنه يذكر ما وقع أصلا ثم يمدح النبي ﷺ عرضا وبذلك يصدقنا الخبر بالتمام والصواب عما وقع.

ومما يذكر عن وقعة أحد أن من يسمى قتادة بن النعمان وهو ممن جاهدوا جهادا عظيما في أحد أصابه سهم في عينه فأسأها على خده، فذهب إلى النبي ﷺ فردها إلى مكانها، فعادت كما كانت، بل كانت أحسن عينيه، وقيل إن رجلا من ولد قتادة قدم إلى عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: ممن الرجل؟
فأنشد يقول:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه	فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها	فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

وكان قتادة هذا من يحبهم رسول الله ﷺ (١).

وتلك لا ريب معجزة من معجزات الرسول ﷺ فى أحد وقد بقيت ذكرها عالقة بالنفوس على مر الأيام إلى أن أحد أبناء قتادة هذا تاه تها بأن جده هو من ظهرت عليه هذه المعجزة حتى إنه ذكرها فى بيتين من الشعر أمام عمر بن عبد العزيز.
ومما جاء فى أحبار أحد أن النبي ﷺ كتب عليه:

(١) د. حمرة الشرنى بطولات إسلامية فى أحد القاهرة سنة ١٩٨٩م.

فى الجبن عار وفى الإقدام مكرمة
و المرء بالجبن لا ينجو من القدر
وقال من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فتنافس الرجال من يأخذه منه، ولما قام على (كرم الله وجهه) لأخذه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " اجلس " فقام عمر، فأعرض عنه.
وقام الزبير فأعرض عنه كذلك، ثم قال إليه أبو دجانة (رضي الله عنه) فقال: ما حقه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: حقه أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى.
فقال أنا أخذه بحقه. فأعطاه الرسول ﷺ إياه، فأخذ أبو دجانة عصاة حمراء مكتوب فى أحد طرفيها: (نصر من الله وفتح قريب) وفى طرفها الآخر: (الجبانة فى الحرب عار، ومن فر لم ينج من النار).

فغضب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصاة الموت!

فخرج بها وهو يقول

أنا الذى عاهدنى خليلى
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكبول
أضرب بسيف الله والرسول

وهنا نتأمل تلك الحماسة الدافقة التى كانت للمسلمين المحاربين فى أحد وهى حماسة لا تنبعث من مجرد القوة وشدة البأس والقدرة على البطش ليس غير، بل إنها تنبعث من الإيمان العامر به قلوب المسلمين، إنه لا يضرب بسيف أى سيف بل بما تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا حسبه لينطلق محاربا مجاهدا فى سبيل الله كما أنه صلى الله عليه وسلم إلى من يقدم هذا السيف وهذا كله غيوب لا يعلمها إلا علام الغيوب.

ولما بلغ ﷺ الشعب جاءت إليه بنته فاطمة - رضى الله عنها - وغسلت عنه الدم، وكان على كرم الله وجهه - يسكب عليه الماء، ثم أخذت قطعة من الخصير فأحرقتها وضممت بها الجرح فاستمسك الدم. وأراد ﷺ أن يعلو الصخرة التى فى الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما فقد من دمه الشريف فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده، ونظر الرسول إلى الجماعة من المشركين وهم على ظهر الجبل فقال: لا ينغى لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك. ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فأنزلوهم عن ظهر الجبل^(١).

(١) أبو النصر مشر الطراوى. السيرة النبوية ص ٣٠١ الإسكندرية

والمتبين من هذا الخبر أنه ﷺ حتى وهو جريح أضعفته جراحته يأتذر بأمر الله في تدبير المعركة وهو على وعى تام بما يموج فيها من حوله فرأى ضرورة أن يهبط المشركون من أعلى الجبل حتى لا يعلوا على المسلمين وهذا العلو لنا أن ندرك منه علوا معنويا وآخر غير معنوي. فالمعنوى أنه لا ينبغي للمشرك أن يكون أعلى درجة من المؤمن كما أن المسلمين حينما شغلوا عن الحرب بالغنائم تحين المشركون منهم ذلك وصعدوا إلى الجبل ليرموهم بالسهام وهذا ما أوقع الهزيمة بهم.

ومبلغ علمنا أن الشعراء لم يقولوا شعرا في جرح الرسول وإن كنا لا ندعى أننا اطلعنا على كل ما قالوا فنحن نذكر ذلك متحفظين وإذا كان لنا أن نجتهد بالرأى في تحليل ذلك إن المسلمين تأثموا من أن يقولوا شعرا يؤرخون به ما وقع له ﷺ. أما المشركون فما رأوا وجهها للقول فيه لأنه على الحقيقة خدش ولم يجرح جرحا بليغا وهذا ما لا حاجة فيه إلى ذكر أن المسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة من أحد صح منهم العزم على أن يعاودوا الكرة ويغيروا على المشركين، حتى يصدوا أبا سفيان عن المدينة، فقدم رجل من خزاعة على المشركين ويقول لهم إن محمدا قد خرج إليكم في جمع لم أر مثله وهم مغيطون. محنقون ثم أنشد:

كادت تهد من الأصوات راحلتى	إذ سالت الأرض بالجرىد الأبايل
فقلت: ويل ابن حرب من لقاءكم	إذا تغطمطت البطحاء بالجيل
إنى نذير لأهل البسل ضاحية	لكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش تنابله	وليس يوصف ما أنذرت بالقيد

ولما سمع أبو سفيان هذا من قول الرجل، رغب إلى قومه بالرجوع، فهذا الشعر يتضمن خبرا، وحسب إلا أن قائله كان متحمسا يقظا كل رغبته أن يقتنع قومه برأيه ويعملوا بمشورته ويأخذوا حذرهم من عدوهم، وهنا ندرك أهمية الشعر وعمق وقعه في أحوال النفوس خاصة إذا كان غرض الشاعر أن يعلن عن أمر عظيم أو يحذر من خطر داهم، فلولا أن قال الرجل ما قال في هذه الأبيات التي أنشدها لما ألقى أبو سفيان سمعا إليه ولا اكرث لما يقول، إنه كان نذيرا يتجه بالخطاب إلى المقاتلين ليلزموا جانب الحذر.

يقول التاريخ إن حمزة بن عبد المطلب كان في عداد المستشهدين في غزوة أحد، والخبر في ذلك أن وحشى غلام حبير بن مطعم انتهز منه غفلة وبرمح طعنه، وقد أغراه سيده بالعتق إن هو قتل حمزة إمعانا منه في سدة حرصه على أن يصصره لحاجة في نفسه. وشتاءت هند زوكة أبي سفيان بن حرب أن تشفى غيظها وتنفس عن ضغيتها بأن تمثل به، فمثلت به أبشع ما يكون التمثيل لأنها بقرت بطنه وأخرجت كبده لتأكلها فلاكتها ولم تستطع أن ترددها فألقته، ورأى ذلك رسول الله ﷺ فأدركته الرقة عليه وقال: رحمة الله عليك فإنك من علمناه، ما كنت إلا فعالا للخيرات وصولا للرحم.

ولقد رتاه حسان بقصيدة طويلة استهلها بوصف النساء النوائح. وقد نشرن شعورهن وخمشن وجوههن وجرت دموعهن دما على خدودهن فكان الأنصاب تخضب بالذباح وبذلك نظم في معركة أحد ما يدرجها في سجل التاريخ ونحن نجتزئ من قصيدته قوله:

أصحاب أحد غالم	دهر ألم له جوارح
من كان فارسنا وحا	مينا إذا بعث المسالحي
يا حمز، لا والله لا	أنساك ما صر اللقائحي
لمناخ أيتام وأضيا	ف وأرملة تلامحي
يا فارسا يا مدرها	يا حمز قد كنت المصامحي
ذكرتني أسد الرسو	ل وذاك مدرهنا المنافحي
يا حمز قد أوحدتني	كالعود شذ به الكوافحي
أشكو إليك وفوقك الستر	ب المكور والصفائحي

فهذه الطائفة من الأبيات تعد تنمة لما قال ﷺ فقد أثنى عليه الثناء كله على أنه فعال للخير وصولا للرحم وهاتان صفتان حسب من تجريان عليه أن يكون ملتفتا إليه مأسوفا عليه، وحسان بعد ذلك ينتقل من العموم إلى الخصوص فبعد أن يذكر ما لحق بأصحاب أحد يلتفت إلى حمزة فيقول إنه أسير إليه عزيز عليه ما فتى عاقلا بذكره في اتصال ودوام، لما كان من بره باليتامى والأرامل وبذله القرى للأضياف فجعله رحيما كريما في وقت معاً، ثم تجاوز ذلك إلى وصفه بالجنة والبسالة والفصاحة واللسن. وبعد أن انتهى من تعداد مآثره ومواقبه - وما أكثرها أخذ في التعبير عن ما صدع قلبه من أسى لموته وهذا

خاص من شأنه وعلاقة واستجة بينه وبينه مما جعل رثاءه له من شقين الأول رثاء عام فيه ذكر لصفاته ومنزلته في قومه وآخر خاص لما كان بينه وبينه من آصرة المودة فهو يشكو إليه بعد وفاته بعد أن كان يشكو إليه في حياته وبذلك تفرد مراثيته عما عرفنا من قبل وتدخل شيئا ما في الشعر الغنائي الذي يعبر فيه الشاعر عن ذات نفسه.

وله فيه مراثية أخرى طويلة يقول في ديوانها إنه يريد أن يقف بدار الأحبة ولا يريد أن يكون بهن في شغل بل يزجر نفسه عن هذا ليذكر مصابه في حمزة وبذلك يكون الرائي الذي يصدقنا التعبير عما يتكلم في قلبه من حزن محض:

دع عنك دارا قد عفا رسمها	وابك على حمزة ذى النائل
واللابس الخيل إذا أجمحت	كالليث في غابته الباسل
مال شهيدا بين أسيافكم	شلت يدا وحشى من قاتل
أظلمت الأرض لفقدانه	واسود نور القمر الناصل
صلى عليه الله في جنة	عالية مكرمة الداخيل
كنا نرى حمزة حرزا لنا	في كل أمر نابنا نازل

والشاعر في قصيدته تلك جاءنا بجديد لم نعهده من قبل فيما قيل من مراثي المغازي، فهو يشرك الكون من حوله في حزنه على صاحبه المفتقد يريد للأرض أن تظلم ولور القمر ليشتحب، كما يدعو له أن يكون في مرضاة الله وهو في جنة الخلد وبذلك تبدو شاعرية حسان في طور آخر من طورها فبعد أن كان مدافعا مناظرا ليس غير جعله موت حمزة شاعرا رقيق القلب بعيد الخيال. ثم يتجه بالخطاب منهكما إلى هند بنت عتبة وينبهها إلى ما لا يسعها أن تنساه أو تتناساه. فلقد قتل حمزة من قبل أباه وأخاه. فكان عليها بدلا مما قدمت يداها وذلك الإثم الذي وقعت فيه أن تبكى على قراتها فهم أحق بالبكاء عليهم وفجيعتها في أبيها وأخيها أعظم من فرحة الشماتة التي أنستها ما ينبغي أن يكون وفاء ورثاء وهو بمثل هذا من قوله يقف منها موقف من ينافح ويدافع عن قومه ويرد على ما كان منهم بالسنة إلى من هو المدره لهم:

لا تفرحى يا هند واستحلبى	دمعا وأذرى عبرة الثاكل
وابكى على عتبة إذ قطه	بالسيف تحت الرهج الحائل
أرداهم حمزة في أسرة	يمشون تحت الحلق الفاضل

فكان ينبغي أن تذكر هذا ولا تنساه وقمين به أن يشغلها عن الشماتة بحمزة على النحو الذي عبرت به عن فساد قلبها وبشاعة ضغيتها لأنه لا يغنى عنها شيئا ولن يمحو نكبة حلت بها ولا عارا تأذى به نفسها.

ولكعب بن مالك مرثية من جياذ الشعر في حمزة لأنه يعرضها علينا في صورة الباسل المقدام بعد أن يصف هول الفجيرة فيه وكرمه الذي بلغ المدى ويقدم لقصيدته كما قدم حسان متجها بالخطاب إلى نفسه أو صاحبه جريا على العادة فيرده عن اللهو والصبابة وينبئه إلى أن يشغل فؤاده بما له الأهمية والرجعان وبذكره بأن حزنه إن كان على هجر الحبيب فهو على مصرع حمزة من باب أولى. ويشبه حسان بن ثابت في إشراكه ما حوله في بيئته في فجيعته فهو كحسان يخلع على الطبيعة من حوله صورة من نفسه.

ولقد هددت لفقد حمزة هدة	ظلت بنات الجوف منها ترعد
ولو انه فجعت حراء بمثله	لرأيت راسي صخرها يتبدد
والعافر الكوم الجلال إذ غدت	ريح يكاد الماء منها يجمد
وتراه يرفد في الحديد كأنه	ذو لبدة شثن البرائن أربد
عم النبي محمد وصفيه	ورد الحمام خطاب ذاك المورد
وأتى المنية معلما في أسرة	نصروا النبي ومنهم المستشهد
ولقد إخال بذاك هنداً بشرت	لتميت داخل غصة لا تبرد

والشاعر لا ينسى لحمزة صلة القرابة بينه وبين نبي الإسلام ﷺ وهو يحسن أيما إحسان حين قال إنه في زمرة من نصروا النبي ومنهم المستشهد، فهو يضيف نصره للنبي ﷺ واستشهاده من أجله إلى مناقبه ومآثره، وبذلك يكون قد استوفى مدحه بكل الصفات التي لمدوح في العرب.

ونعود إلى كعب بن مالك لنراه يقول في شعر من السهل الممتنع الخالي من الغريب رثاء في حمزة وبذلك يختلف عن حسان وعن شعره الذي قاله وهو يرثيه:

صفية قومي ولا تعجزى	وبكى النساء على حمزة
ولا تسأمي أن تطيلي الكا	على أسد الله في الهزة
فقد كان عزا لأيتاما	وليث السلاحم في البرة
يريد بذاك رضا أحمد	ورضوان ذى العرش والعزة

فكعب فى هذه الأبيات وحسان وقصيدته السالف ذكرها يتفقان فى مطلع المراثى التى قيلت فى حمزة لأن فيها الدعوة إلى الحزن على حمزة وطرح كل شاغل عنه جانباً وحث للنساء على العويل والنياحة تعبيراً عن المصاب فيه.

وفى هذه الأبيات الأواخر جمع كل شئ يسع الذاكر أن يذكره عنه.

ولكننا مع ذلك كله، إذا مضينا متلمسين تعرفاً لأوصافه متنسجين أخباره إلا نعدم مزيداً وجديداً لقد خر صريعاً شهيداً فى سبيل الله، بعد أن حقق فى نفسه صفات المؤمن الكامل، وهو فى بحياه ومماته من أعلام الإسلام الذين لا نسيان لهم على طول الزمان، كان إذا مر بسمعه كلام تتأذى به نفسه من قبل القرشيين أضمره فى نفسه متحينا فرصة للانتقام منهم، اتفق ذات يوم لحمزة وهو عائد من الصيد أن أخبره خادمه بأن أبا جهل سب النبى ﷺ وناله بما يكره، فانطلق إليه ووجده جالسا فى جماعة من سادة قريش، فهوى بقوسه على رأسه فشجه قائلا: " أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول ما يقول، ألا فرد ذلك على إن استطعت" (١).

وهذا من الدليل على رباطة جأشه وثباته على رأيه، وأنه كان مدافعا عن الرسول ﷺ بلسانه ويده يقظ الوعى يتعرف كل خير ويتهيا لصد كل مكروه من قول وفعل عن نبى الإسلام.

وقد استفاضت لحمزة عند المسلمين من كل الأجناس الشهرة بربطة الجأش ونذكر هنا الترك، فقصة حمزة من القصص الشعبية التى صادفت هوى فى نفوس الترك وملكت عليهم إعجابهم، وترددت على ألسنتهم، ولا عجب. فقد كان من أوائل المؤمنين بالنبى ﷺ فأحبه وقدره منذ طویل زمان، فانعقدت بينهما أواصر المودة كانعقاد أواصر القربى، وكانا متقاربين فى السن مما قوى من الصلة بينهما، فما كان من فرق بينهما سوى عام واحد، وبذلك يكون قد استجمع أوصاف البطل أو على التحديد البطل الشعبى عند الترك الذى يتميز بالبروء والأريحية والكرم والشجاعة وكل ما يتصل بهذا من سبب. ففى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد عرف فى الأدب الشعبى التركى ما يسمى حمزه نمه أى كتاب

حمزة، وهو يتضمن سيرة أسد الله هذا، وكان لهذه القصة الشعبية واسع الذيوع بين طبقات الشعب التركي، وذلك لانعقاد الصلة بينه وبين رسول الله ﷺ وبطولته المنقطعة النظير التي ملكت على الترك إعجابهم. وتعد هذه القصة أعظم وأهم قصص البطولة الإسلامية عند الترك، وقد بدئ في تدوينها في القرن التاسع وظلت تدون وتقرأ إلى القرن الرابع عشر^(١).

وحسبنا هذا القدر من الكلام على حمزة وهو وإن كان له تنمة إلا أن هذه التتمة قريبة الشبه بما سبق قوله وعلمه وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق، ولعمرو بن العاص قبل أن يدخل في دين الله شعر يفخر فيه بنفسه ويصف خروجه على فرسه الشهباء ليخوض بها عجاج المعركة غير مبال بالموت لأن الموت غاية كل حي، ويصف فرسه في عدوه باليعفور وهو الغزال في لون التراب فيقرر الواقع الذي لا يتوقع سواه في هذا المقام.

ويرد عليه كعب بن مالك بقوله:

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه	والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم	أهل اللواء ففيما يكتر القيل
ويوم بدر لقيناكم لنا مدد	فيه مع النصر ميكال وجبريل
إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا	والقتل في الحق عند الله تفضيل
وإن تروا أمرنا في رأيكم سفها	أى من خالف الإسلام تضليل

هذه الأبيات من قصيدة طويلة ونحن نؤثر إيرادها هنا لما ترشد إليه من دلالة. فالشاعر يفخر بإيمانه وبأنه يحارب في سبيل الله، وله من يؤازره من الملائكة وبياهى بدينه وينسبه إلى أنه لا يهاب الردى في سبيل الحق، وبذلك يبرز مدلول الغزوة والجهاد في سبيل الله، لقد ذكر من يعد سيوف قومه وتروسهم، وكل ما ذكره من أوصاف لا جديد فيها، ولا إشارة إلى أن الشاعر أراد تحسين الكلام وتنميق العبارة، بل كان حسبه أن يذكر من يرد عليه بحقيقة ما وقع، والنظرة في هذه القصيدة تفيد أن الشاعر كان سلس العبارة مانوس الألفاظ في الصف الأول منها حينما عبر عن الإيمان والجهاد في سبيل الله إلا أنه بعد ذلك أورد ألفاظا غريبة غير مانوسة.

وهذه أبيات تبكى فيها نعم زوجها شماس الذى كان من قتلى أحد:

(1) Boralay Tuirk Halk Edebiyatı 539 (Istanbul 1969).

ياعين جودى بفيض غير إبساس
على كريم من الفتیان أباس
صعب البديهة ميمون نقييته
جمال ألوية ركاب أفراس
أقول لما أتى الناعى له جزعا
أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى
وقلت لما خلت منه مجالسه
لا يبعد الله عنا قرب شماس

هذا الرثاء يجمع كل المعانى التى أدارتها الشواعر بالذات فى رثاء رجالهن فالبدء فى ترغيب العين فى البكاء، وهذا ما شارك فى قوله الراثون كذلك والشاعرة تستمد من بيئتها وصفا لدمعها، فهى تريد لعينها أن تبكى حقا لا أن تتباكى ولا تريد لعينها أن تكون كضرع الناقة الذى يسمح ليدر، مما يدل على أن بعض النسوة كن يتباكين وهن معولات، كما مدحته بالكرم والكرم على رأس الفضائل عند العرب فى ذلك الزمن وتلك البيئة خصيصا كما تمدحه بالشجاعة وبالفروسية، كما تتحدث عن وقع النعى على نفسها، فمدحته بأنه الشجاع والكریم المطعم الكاسى، وهذا كل ما تريده المرأة العربية فى زوجها إلا أنها كغيرها من الراتيات والرائين لا يتحدثون عما فى قلبهم من لوعة الأسى وإنما جل الكلام على مدح الميت بالكرم والشجاعة.

وآخر ما نوره وندرسه من شعر فى غزوة أحد قول همد بت عتبة:

رجعت وفى نفسى بلابل جمه
وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم
بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئا ولم يكن
كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

تلك هى هند بنت عتبة الشريرة الخبيثة التى بقرت بطن حمزة ولاكت كبده ما زالت تعبر عن الشر الذى يجرى مجرى الدم فى عروقها ويملاً عليها رحاب نفسها فلا تستطيع أن تكف نفسها عنه طرفه عين لأنها جبلت عليه، إنها تتحدث إلى نفسها أو إلى غيرها مقرة بأنها مع كل ما صنعت لم تشف غليلها وكانت لها مآرب أخرى فاتها أن تحققها.

إبها تلقى الضوء على تلك الظلمة التى طمست قلبها وبذلك ذكرت ما بمن يطيب لهم أن يعملوا السوء ولا يقر لهم قرار إلا بعلمه، وهم بعلمونه ربما على غير وعى منهم لأنهم مسوقون إليه بنحيزتهم، وهم شرار الناس لا يملكون أن يكونوا من خيارهم.

والذكر بعد ذلك لغزوة الخندق، وهى غزوة لها خير يطول، مجمله أن يهود بنى النضير بعد أن جلوا عن ديارهم صحت عزيبتهم على أن يثأروا من المسلمين الذين أزعجهم عن موطنهم فمضى بعض سادتهم إلى مكة وهناك التقوا رؤساء قريش وانضموا إليهم لإثارة الفتنة على المسلمين، وبذلك دبوا هذه المكيدة وتفتت حيلتهم عن هذه الرغبة التى هيئوا لها كل الأسباب، وأمعنوا فى الخداع والترغيب فعاهدوا الكافرين فى حربهم مع المسلمين، وبذلك كانوا معهم إلبا واحدا على المؤمنين، وقد تكرر منهم ذلك من قبل ولم يكفهم هذا، بل تجاوزوه إلى اتفاقهم مع رجال غطفان واجتذبوهم إلى جانبهم وبذلك كثر عدد من يحاربون الله ورسوله ﷺ من يهود ومشركين. ولقد تجهزوا جميعا لهذه الحرب وأعدوا ما استطاعوا من قوة وعدد وعدة، ونمى إلى رسول الله ﷺ خبر هؤلاء الغادرين الكاشحين، فجمع أصحابه وشاورهم فى الأمر جريا على عادته المحمودة فى المشورة صوعا بأمر الله الذى أمره أن يشاورهم فى الأمر، فأشار سلمان الفارسى بحفر الخندق، ويذهب بعضهم إلى أن العرب قبل أن يخوضوا حروبا مع الروم ويذكرون أن النبى ﷺ عرف الخندق عن سلمان الفارسى^(١) وكان سلمان عند النبى ﷺ من يمثل حضارة عريقة فى القدم، وكان يبذل العون للنبى ﷺ لا ليتخونه فهو الذى عرف بحرب الخنادق، وتلك أول ظاهرة فنية تلقاها العرب عن الفرس بعد الإسلام، وهو عند المسلمين حتى الذين لا يعرفون شيئا عن الفرس، رائد المعرفة الفنية^(٢) ولقد عمل ﷺ فى حفر الخندق بنفسه، والفتيان ينقلون التراب، ويخرج المهاجرون والأنصار حاملين المكاتل على رؤوسهم.

وأثناء حمله للتراب ﷺ يقول مرتجزا:

هذا الجمال لا جمال خبير هذا أبر وأظهر

وجدير بالذكر أن المسلمين انخلعت قلوبهم رعبا قبل أن يخوضوا المعركة خاصة بعد أن حاقت بهم الهزيمة فى أحد لأنهم لم يأمرؤا بأمر النبى ﷺ، الذى أمرهم بالبقاء فى المدينة، ولذلك كان تعويلهم على البقاء فيها فى هذه المعركة^(٣).

(1) Levy' The Social Structwu oB Islam P.437(Cambridge1957).
Masse: L,Ame de L,Iran P 87 (Paris1951)

(٢) محمد على حليلى' ريدكاسى محمد بيغمير إسلام، ص٤٠٣، ٤٠٤ (تهران١٣٣٧).

(٣) المصدر السابق.

ومما جاء في وصف معركة الخندق أن النبي ﷺ حوصروا تسعا وعشرين ليلة! وكان القتال الرشق بالنبال والرمي بالحصى، إلى أن اقتحم بعض الفوارس على المسلمين خندقهم ومنهم عمرو بن ود، فخرج على كرم الله وجهه في جماعة من رجاله، وأخذوا عليهم ثغرة أقحموا خيلهم منها، ثم بارز على عمرا. فقال له عمرو: ما أحب أن أقتلك يا بن أخى. فرد عليه قائلا: أنا أحب أن أقتلك فنزل عمرو عن فرسه مغضبا وأقبل على على، فتنازلا وتجاولا، وشد عليه على وضربه ضربة قتله. فارتد المشركون عن الخندق منهزمين.

وقال - كرم الله وجهه - في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت رب محمد بصواب
فصدت حين تركته متجدلا كالجدع بين دكادك وروابي^(١)

فعلى كرم الله وجهه يتغنى بهذا الكلام وهو فى نشوة نصره فهو منفعل وكل انفعاله فيه الحاجة إلى تعبير، ولكنه يجهر ويفخر لا بأنه غالب عدوه بمفرده بل بأنه ناصر رب محمد. وبذلك يصدقنا التعبير عن ذات نفس المجاهد فى سبيل الله وهو يمهد لما ذكر متهمكما بخنصمه الذى يسفه رأيه لأنه يقاتل دون تعقل ويتوهم أنه الغالب وحقيقة الحال أنه ليس من هذا فى كثير ولا قليل.

وعلى كرم الله وجهه كثير الفضائل وحسبنا قولنا أنه أول من أسلم وأول من صلى وهاجر وشهد بدرا والحديبية، وبيعة الرضوان والمشاهد كلها غير تبوك، وابتلى أعظم البلاء فى بدر وأحد والخندق وخيبر، وكان لواء رسول الله ﷺ بيده فى مواطن عدة. وقيل إن عليا صاح والمسلمون يضربون الحصار على بنى قريظة قائلا: يا كتيبة الإيمان والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصصهم^(٢).

ونلقى السمع إلى ندائه الذى نادى فيه أصحابه قائلا يا كتيبة الإيمان لأن هذا يرشد إلى أنه يقاتل إيمانا واحتسابا مما يمكن أن ينسحب على من فى معيته من المجاهدين ويسبغ على المجاهدين الخاص من صفاتهم وهم محاربون.

(١) المقدسى: البدء والتاريخ، ص ٢١٧ ح ٤ (ناربر ١٩٠٧).

(٢) المحب الطبرى: الرياض النصره ص ٢٢٥ ح ٢ (القاهرة).

ونعود إلى الخندق ومما يستشهد به على أهميته فى ترجيح كفة المسلمين، ويبين بالتالى أن المسلمين كانوا المدنيين لفضل سلمان الذى أشار بحفره لأن هذا الخندق أدا لهم من عدوهم بيتان ترددا على لسان أحد الذين عرفوا فى الخندق سبب هزيمة المشركين مع توقعهم للنصر:

ومشفقة تظن بنا الظنونا وقد قدنا عرندسة طحونا

فلولا خندق كانوا لديه لدمرنا عليهم أخصينا

وبينما كان المسلمون يحفرون الخندق إذ خرجت من جوفه صخرة بيضاء، فكسرت حديدهم وشقت عليهم، ومضى سلمان رضى الله عنه إلى الرسول ﷺ لينخبره الخبر، فأخذ المعول من يد سلمان وضرب به، فبرق من الصخرة برقة أضاءت كل الأرجاء وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، وكبر المسلمون من بعده، ثم ضرب الضربة الثانية. فكان مصباحا أنار فى جوف بيت مظلم، وكبر تكبير فتح وكبر المسلمون. ثم ضرب الثالثة فانكسرت تحت معوله وكبر مع من كبروا. وصعد حتى قعد فى مقعد سلمان، قال ﷺ ضربت الأولى، فبرق الذى رأيتهم، فأضاء لى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها. ثم ضربت الثانية فبرق الذى رأيتهم أضاء معها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها يبلغهم النصر فأشروا^(١).

فهذا يوم أغر فى تاريخ الإسلام وبه توافرت الأسباب وتهيأت الملابسات وبدا فى غزوة الخندق شبه ما بدا فى غيرها من الغزوات كرامات ومعجزات.

فما كانت هذه الغزوات حروبا وكفى، بل كانت وراء ذلك حافلة بالخوارق والمعجزات وترتب عليها فى العاجل والآجل ما لم يقرفه إلا الرسول ﷺ وحيا من ربه.

إن الخوارق التى ظهرت للمسلمين فى غزوة الخندق لا يحدها حصر ونذكر منها أن أهل الخندق شح رادهم فأصابتهم مجاعة شديدة، حتى إنه ﷺ ربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، واتفق أنا ابنة لبتير بن سعد أعطتها أمها حفنة من تمر حملتها فى ثوبها لتقدمها إلى

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ص ٥٩، ج ٦٠ ٤ القاهرة.

أبيها وخالها المحاريين ومرت برسول الله ﷺ تحمله فملاً منه كفيه، ثم أمر بثوب بسط له ووضع التمر عليه ثم قال لرجل عنده: ادع القوم، أن هلم إلى الغداء، فاجتمع القوم عليه وطعموا وزاد حتى أكل جميع من حضر^(١).

وكذا تكون السيطرة للروحانية على المادية ويظهر الله المعجزات لقوم يتفكرون. واتفق في معركة الخندق أن عكرمة بن أبي جهل ولى هارباً وألقى رمحه وهذا ما بعث حسان بن ثابت على قوله:

فر وألقى لنا رمحه	لعلك عكرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظليم	ما إن تجور عن المعدل
ولم تلق ظهرك مستأنسا	كأن قفاك قفا فرعل

فحسان يعير هذا الذى نكص على عقبيه من المعركة بحث خطاه لا يلوى على شىء فرارا من الزحف، وتلك منقصة أى منقصة لأنها دليل على الجبن من أخس النقائص عند العرب خصوصاً، إنه يشبهه بالنعامة فى عدوها ويشبهه وهو يولى باهن الضبع وبذلك يستمد مادة لتشبيهه من بيئته العربية، وفى الوقت عينه يقنعنا بأنه كان يقف فى الغزوات بالمرصاد يراقب بعين يقظى حركات وسكنات المحاريين ليسجلها فى شعره حقائق لا ريب فيها.

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس من المشاركين فى يوم الخندق:

وجردا كالقдах مسومات	نؤم به الغواة الخاطيونا
كانهم إذا صالوا وصلنا	بياب الخندقين مصافحونا
أناس لا ترى فيهم رشيدا	وقد قالوا ألسنا راشدينا
نراوحهم نغدو كل يوم	عليهم فى السلام مدججينا
بأيديهم صوارم مرهفات	تقد بها المفارق والشثونا
فلولا خندق كانوا لديه	لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكاوا	به من خوفنا متعوذين

(١) بورالدين الحلى: السيرة الحلبية ص ٦٥٥ ح ٢ القاهرة ١٣٤٩هـ

هذه طائفة من قصيدة طويلة لهذا الشاعر استهلها بذكر المرأة تقدمه لها شأن غيره من شعراء الغزوات، ويمكن القول إن ذكر المرأة في دياجة شعر الغزوات ينماز بطابع خاص. فالشاعر لا يقف بالديار ولا يبكى في الدمن ولا يحزن لفراق من فارقه بل إنه في الأغلب ينهى نفسه عن أن يكون مشغولا بالمرأة عن خوض حومة القتال وهذا ما يناسب المقام الذي يقول الشعر فيه. ومثل هذا من شعراء الغزوات يعد جديدا في منظور تاريخ الشعر العربي، ولتوضيح ذلك نقول إن هؤلاء الشعراء خرجوا على مألوف غيرهم سلفا وخلفا فذكروا المرأة على نحو خاص في مقدمات قصائدهم بحيث عدوا المرأة من يشغلهم حبها عن القتال أو أنها تشفق عليهم منه فتصددهم عن الخروج إليه.

ونعود إلى شاعرنا فنراه يصف المعركة التي يصلو فيها مع قومه ويجول، ثم يطلق لسانه بهجاء أعدائه فيصفهم بالسفاهة وضعف الرأي ويتحدث عن ضراوة قومه في القتال وكيف يضعون السيف في أعدائهم فيجدلونهم الواحد تلو الآخر إلا أنه يريد أن يبرر عجزهم عن غلبتهم بالخذق الذي كان السبب في أنهم لم يبددوا شملهم ويذهبوا ربحهم وهذا وصف للخذق الذي تحصن به المسلمون وبيان لأنه كان حقا مارد عنهم عادية المغيرين، إنه يريد أن يصف الأعداء بالضعف إلا أنه اضطر أن يصفهم بالقوة، لأن خندقهم هو السبب في دفع أعدائهم عنهم فهو سلاح لهم وليس لغيرهم وقد غلبوا به وبذلك كأن ضرار ابن الخطاب لم يقل شيئا، بل ربما مدحهم بما تحصنوا به فكان النصر لهم.

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة من نفس البحر والقافية، وهو يبدأها بذكر امرأة يتجه إليها بالخطاب ويقول إنها سألت عن خبرهم في حربهم وتمنى أن تكون رأتهم وهم صبر في قتالهم وكأنما يفخر بالحارين ويرغب إلى تلك المرأة التي ربما كان تخيلها أن تفخر بهم هي الأخرى وهذا ما يؤيد ما سلف أن ذهبنا إليه في ذكر المرأة في مطلع قصائد الغزوات على أنه خاص بهذا السفر ومختلف عنه في شعر يقال في أغراض أخرى يقول كعب:

صبرنا لا يرى لله عدلا	على ما نابنا متوكليا
وكان لنا البى وزير صدق	به نعلو البرية أجمعينا
ترانا في فضافض سابغات	كعدران الملا متسريلينا
وفي أيماننا بيض خفاف	بها نشفى مراح الشاغبينا

لننصر أحمد والله حتى
ويعلم أهل مكة حين ساروا
نكون عباد صدق مخلصينا
وأحزاب أتوا متحزينا
بأن الله ليس له شريك
وأن الله مولى المؤمنين

إن الشاعر بنطق عن إيمانه حريصا على النطق به قبل أن يصف المؤمنين المحاربين. إنه يذكر النبي ﷺ الذي بفضلته سادوا العالمين فهو يتيه بذلك وحق له أن يتيه. ثم يشير إلى المحاربين المؤمنين ويصفهم في حروبهم التي يشبهها بالغدران وهذا تشبيه جميل يستمد من بيئته لأن الدرع في لمعان حديدتها قرية الشبه من الغدير إذا نالها ماؤه. ويقول إن السيوف في أيديهم سيوف خفاف مما يدل على سرعة حركتها ويضفي على المعركة نفسها حركة دائبة ولا يغفل عن ذكر النبي ﷺ ثانية ليقول إنهم ينصرون الله تعالى وبنية ﷺ وبذلك يفصح عن باعثهم على القتال وكأنما يحرص على ذكر ذلك ليذكر به أولى الألباب ويحسن الحديث عن تلك الغزوة التي يخوضها أهل الهدى والإيمان محتسبينها عند الله، كما يأبى إلا أن يصدقنا القول عما وقع فيذكر أن الله تعالى أرسل ريحا على المشركين لأنه مولى المؤمنين وناصرهم على عدوهم.

ومما يلحظ في شعر حسان وكعب بن مالك وغيرهما من شعراء المغازي أن لهم قصائد معناها في ظاهر لفظها سهل مأنوس ووقعها لذلك عميق في النفوس كما نقع على قصائد غريبة الألفاظ محجوبة المعاني عن الفهم، كما أن القصيدة التي يعارض بها الشاعر قصيدة شاعر آخر تشبهها في وضوح معانيها وسلاسة أسلوبها أو تشبهها في غرابة ألفاظها وغموض معانيها ويستدل من ذلك على أن الشاعر الذي ينبري للرد على الآخر يتوخى أن يضارعه فيما يقول لتكون القصيدتان في إطار واحد وهما متشابهتان.

وهذه أبيات قالها كعب بن مالك في يوم الخندق:

لقد علم الأحزاب حين تألبوا
يزودوننا عن ديننا ونذودهم
علينا وراموا ديننا ما نودع
عن الكفر والرحمن راء وسامع
إذا غاظونا في مقام أعاننا
وذلك حفظ الله فينا وفضله
علينا ومن لم يحفظ الله صانع
ولله فوق الصاعين صنائع
هدانا للدين الحق واحتاره لنا

تلك أبيات من قواطع الأدلة على حقيقة الغزوات وأسبابها وأحوال وأخبار من يخوضونها إن الدافع الديني عند المسلمين هو الأول والأخير. إن المسلمين إنما ينصرون الله ورسوله ﷺ ويعلون كلمة الحق ويريدون الأخذ على يد من يضل العالمين وإنما كان هذا حسبهم، ومن الحق أن لقتال المجاهد خصوصية على حدة، لأنه إنما يقاتل متيقظ القلب بالهداية والإيمان، وتلك درجة ما فوقها من درجة.

والذكر بعد ذلك لما قيل من رثاء لبعض من قتلوا من المشركين فمنهم عمرو بن عيود الذى قتله على بن أبى طالب، وعند ذكر على بن أبى طالب نجد أن ابن هشام ينجح إلى تأريخ الأحداث لأنه يشير إلى على بن أبى طالب على أنه فارس كرمى له القدر والميزة بين المحاربين من المحاربين من المسلمين. أما رائيته فهو مسافع بن عبد مناف، وقد أجرى عليه أوصاف كل ممدوح من المقاتلين الذين خروا صرعى فى المعركة فهو فى قوله الفارس الأشوس وسمح الخلائق والماجد ذو المرة يشد على الأعداء بشكته ولا ينكص عنهم إلا أن الكماة تكاثروا عليه فلم تعد له طاقة بهم، إلى أن يقول:

فادهب على فما ظفرت بمتله فخرا ولا لاقيت مثل المعضل
نفسى الفداء لفارس من غالب لاقى حمام الموت لم يتحلحل

فهذا الشاعر لا يبكى ولا يستبكي ولكنه يصف ما وقع لفارس شجاع من المشركين ويشير ضمنا إلى أن عليا قتل خيرة فرسان المشركين.

واتفق أن هبيرة بن أبى وهب دخل الخندق مع عمرو بن عبد ود إلا أن هبيرة ولى هاربا، ولما رأى هبيرة أنه خذل عمرا استند على نفسه هذا وتعرض للملامة من نفسه اللوامة فما صبر أن قدم المعاذير لما كان منه، فبكى عمرا ومن قوله:

لعمري ما وليت ظهري محمدا وأصحابه جبنوا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمري فلم أجد لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقعت فلما لم أحد مقدا صددت كضرغام هزبر أبى شبل
تى عطفه عن قرنه حين لم يجد مكرا وقد ما كان ذلك من فعلى
فلا تعدن يا عمرو حيا وهالكا وحق لحسن المدح مثلك من مثلى

ويعيننا من هذه الأبيات أنه أحسن في تشبيه نفسه بالأسد في القتال لأنه عرض علينا صورة هذا الأسد وهو من هو في ضراوته وشدة بطشته حين يجد من الحتم اللازم أن ينشئ عمن يلاقيه، والجدة في هذا أن الأسد لا يذكر عنه ما ذكره الشاعر عنه ولكنه يصدقنا القول عن نفسه ويرر ما كان منه بالضرورة التي قسرتة على أن يصنع ما يصنع وما كان ذلك من دأبه وبذلك يكون شبيهاً بالأسد حين وقع للأسد ما وقع له، إنه صورة تسترعى النظر إليها في تلك الأستعار التي قيلت في وصف المقاتلين في المغازي، ثم ينساق في كلامه إلى أن يقول لعلّ إنه لم يظفر بقتيل مثله وحسبه فخراً أن يكون قاتله وكأنه بذلك يمتدح القليل والمقاتل في وقت معاً.

وعمر بن عبد ود يبدو صاحب المنزلة في قومه فبعد أن رثاه شاعران ذكره حسان بن ثابت يفخر بمقتله، مما يدل على أنه كان صاحب الصدارة وأن مقتله يعد بلا ريب نصراً مبيناً للمسلمين. وحسان لا يزيد على أن يقول إن المسلمين وضعوا المهند في المشركين، والمسلمون ولأه الحرب حين يصلون، وقال في ذلك أبياتاً أخرى لا تخرج في معانيها عما سبق ذكره. وعجب أي عجب أننا لم نقع على شعر رثت به الساء عمرو بن عبد ود على حين رأيانهن باكيات جازعات على قتلى بدر وأحد.

حسبنا هذا القدر من الشواهد الخاصة بهذه الغزوات الثلاث، لئلا يطول بنا الكلام خاصة أن ما قيل في غيرها لا يكاد يخرج عن النطاق الذي دارت فيه كما يخشى أن تستأثر هذه الأمثلة من الشعر بحيز من كتابنا هذا هو أكبر مما ينبغي لها أن تشغله خصوصاً أن المجال لنا متسع وينبغي أن نشغله بأمثلة من شعر في لغات أخرى.

ولكن من تنمة القول في شعر العرب القديم الذي قيل في الغزوات من أمارات الأهمية أن نلتفت إلى أشعار عربية قديمة كذلك إلا أنها تتباعد في زمان قولها عن هذه الأشعار كما أن قائلها في عصر آخر وبلد آخر وهذه الأمثلة التي أسلفنا ذكرها جمهرتها مأخوذة من فصل واحد عقده عنها ابن هشام في سيرته. أما الأمثلة الأخرى، ففي صفحات متباعدات من كتاب بعنوان أزهار الرياض لشهاب الدين المقرئ التلمساني^(١). ففي الجزء

(١) دلى على هذا الكتاب الدكتور محمود مكى حراه الله كل خير

الخامس من هذا الكتاب لمن يسمى ابن حبيش، وهو شاعر أندلسي من أهل القرن التاسع الهجرى شعر يمدح فيه النبي ﷺ بكلام طويل إلى أن يقول:

رئيس قريش عند سلم وغزوة بظل لواء أو بمجلس ندوة
وطنب فى أعلى المدينة قبة فأثبت للإسلام فيها محبة
وقاد من الأنصار كل محب

إلى وده انقادوا قروما مصاعبا أدرهم عام المحول سحائب
وأطلعهم ليل الحروب كواكبا وكتب منهم للرسول كتائب
عليهم من الماذى كل مكتب

سقط بذئاب الكفر شدات أسدهم وكم بذلوا الأرواح صونا لمجدهم
فما نصر نصر المختار إلا بجندهم وما دوح الكفار إلا بجدهم
سنان طير أو سنان محرب^(١)

هذه طائفة من هذه المنظومة تربو أبياتها على أربعمائة، أول ما نلاحظه على هذا الشعر قوله أن النبي ﷺ كان فى الجيش وكان فى الندوة وهذا منه كلام فيه الحاجة إلى شىء من تفصيل. فالمراد به بالجيش أنه كان محاربا وهذا ما نعلمه عنه حتى قبل بعثته شارك فى حرب الفجار يناول عمومته السهام. هذا فضلا عن مشاركته فى مغازيه وكذلك كان جده يصحبه إلى دار الندوة وهو صغير. وعلى ذكر دار الندوة نقول إنها دار أقامها قصى بجانب الكعبة الشريفة للشورى يجتمع فيها سادات قريش للمشاورة ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة إلا فى تلك الدار، ولا يعقد لواء للحرب إلا فيها، ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها، أى أن صاحب الدار يشق درعها أى قميصها ويدرعها بيده. وكانوا يفعلون ذلك إذا بلغت الجارية الحلم^(٢) وبذلك يكون الشاعر قد أراد أن يبين ما كان للرسول ﷺ من سابقة فى المجد حتى قبل أن يصطفيه رسولا.

(١) شهاب الدين التلمسانى: أرهاق الرياض ص ١٨٢ ح ٥ (الرباط ١٩٨٠م).

(٢) حرقى ريدان: تاريخ التمدد الإسلامى ص ٣٦ ح ١ القاهرة ١٩٦٨

والشاعر فيها يشير إلى النبي ﷺ ويتغنى بمحامده ومناقبه ولا غرو فقد مهد طويلا
بذكرها والتغنى بها. ويشير إلى رفعة منزلته في قومه ثم يبين أن عظمته كانت واضحة لا
فى حومة القتال بل وفى دار الندوة، وأشاد بأنه ﷺ رفع للإسلام صرحا شاهقا وكيف أن
الأنصار التفوا حوله وتعلقوا بمحبته وناصروه وآزروه وكان جميلا منه أن يجعلهم كواكب
فى ليل الحروب، ووصفهم فى حروبهم وقد لبسوا دروعهم مجاهدين فى سبيل الله. إن
الشاعر لم يحدد فى هذه الأبيات غزوة بعينها وإنما ساق الكلام فى عموم وشمول.

وفرق أى فرق بين من عرفناهم من الشعراء فى عهد النبي ﷺ الذين كانوا يحددون
كلامهم ويعينون أشخاصهم ويعبرون عما وقع لهم. ذلك أنهم عبروا عن تجارب شخصية
تمرسوا بها أو شاهدوها لغيرهم وبذا كان كلامهم هو الحق الذى لا يأتيه الشك من بين
يديه ولا من خلفه وشعرهم هو التاريخ الصحيح إذا نطق فصدق إنه يشبه شعراء المغازى فى
أن كلامه يخلو أو يكاد من تزاين الكلام وذلك مردود إلى أنه مثلهم إنما أراد الإفادة ولم
يكن منفعلا ولا متفننا.

وبعد هذا الإجمال يحنح إلى شىء من التفصيل لأنه يذكر الصحابة ويمدحهم بما هم أهل
له إلى أن يذكرهم فى غزوة بدر فيقول:

تناهوا من الإيثار فى كل نصرة إلى أن قروا أرواحهم كل شفرة
حضور بيدر غيب عن بدرة يحبون من وافى إليهم بهجوة
ويلقاه منهم كل سمح مرحب
صحاب رسول الله فى الأرض أنجم ليرشد حيران وينجىاب مظلم
بهم فى الدنا نحى وفى الدين نعصم سأقطع عمرى بالصلاة عليهم
وأدأب فى حبى لهم كل مدأب

فالشاعر معبر فى هذه الأبيات كتعبيره فى عامة منظومته الطويلة عن تعبيره للنبي ﷺ
وهو على ذكر دائم من كلام النبي فهو عندما قال حضور بيدر غيب عن بدرة والبدره
عشرة آلاف درهم يشير إلى قوله ﷺ إنكم لتكثرون عند الفزع. وتقلون عند الطمع"، أما
قوله إن أصحاب رسول الله ﷺ فى الأرض أنجم فمن قوله ﷺ: "أصحابى كالنجوم بأيهم
اقتديتم اهتديتم".

إن الشاعر على ذكر من غزوة بدر وأحد في هذين البيتين اللذين شرحناهما، إنه يثنى على أصحابه الكرام الذين تعف نفوسهم عن الغنائم في بدر كما يلمح إلى ما كان من بعض الفتيان في غزوة أحد الذين طمعوا في العائم فانتهم عدوهم اشتغالهم بها وأوقعوا الهزيمة بهم.

وقال الشاعر مستيرا إلى حنظلة الغسيل، ويعرف بغسيل الملائكة وقد استشهد يوم أحد. ثم أعجل على الخروج قبل أن يغسل فقال ﷺ إن الملائكة غسلته:

وحنظلة بشراه في فوز سهمه لقد طهرت بالسفح طاهر جسمه
ملائكة نعم الأساة لكلمة وحارثه قال الرسول أمه
ببدر وقد قالت لعبرتها اسكب

رويدك من فرط الأسى والتأسف أيكي لمحبور بقصر مزخرف
ومتكى فيها على خضر زخرف أفيقى أفيقى إن حارثة لفي
نعيم جنان للحسيفة مذهب

وفي هذه الطائفة حارثة بن سراقة من شهداء بدر وبذلك يكون الشاعر في هذه الطائفة من الأبيات قد قارب أن يكون محسنا موفقا لأنه أتى بشيء من التفصيل كما أنه ذكر ما ذكر عن غسيل الملائكة وحارثة بن سراقة فعرض مشهدا له أثره في أغوار النفس وعبر عن إيمان الموقن المؤمن الذي لا تزلزله الحوادث ما دامت في سبيل الله وابتغاء وجه الله وله التوفيق في ذكره قول النبي ﷺ لأم حارثة ومواساته لها بكلام يمس شغاف كل مسلم.

وينهى الشاعر هذا المخمس بمناجاة ربه ويقول إن ذنوبه كالجبال ولكنها تصغر في جنب رحمائه، مما يدل على أنه إنما نظم هذا المخمس أو هذه المنظومة على أنها من قبيل المناجاة أو الابتهاال وإنما اساق عرضا إلى ذكر غزوة أو عزونين ومقصده من ذلك مدح النبي ﷺ وصحابته الكرام بما كان منهم من جهاد في سبيل الله ولذلك تظهر الغزوة في هذه المنظومة كشمعة التمتع في وهج الشمس. وتعر هذا الشاعر لا ماء فيه ولا رواء. وفيه ألفاظ غريبة تشوه من جماله، إنه أطال كثيرا ولعله في إطالته كان معجلا عن التروى لمحاولة البلاغة. لقد ذكر الغزوات عرضا في سياق تاريخي ولا يستوقفا بخاصة إلا ما ذكره من اشارته لمواساة النبي ﷺ لأم حارثة بن سراقة لأن هذه المواساة يستين بها معنى الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثاني

فى الشعر العربى الحديث

إذا دار الكلام على ما قال شعراء العصر الحديث فى غزوات الرسول ﷺ ورد على المخاطر أول ما ورد قصيدة طويلة تحت عنوان (كشف الغمة فى مدح سيد الأمة) لمحمود سامى البارودى باشا وليست مكانة البارودى بالمكانة التى تخفى فلا يذكر اسمه إلا مشفوعا بتلك العبارة التقليدية أنه رب السيف والقلم الذى أحيا دولة الشعر من عدم.

وليس من همنا فى هذا المقام أن نتعرفه رجل قتال وفارس نضال ولا قطب سياسة وكياسة لأن ذلك يخرج بنا عن ذلك الإطار الضيق الذى نريد أن نلزم حدوده.

ولا مشاحة فى أنه إلى كونه شاعرا مجيدا شاعر مكثر والكثرة مع الإجابة زيادة فى الخير فله ديوان من الشعر يقع فى خمسة آلاف وسبعمائة وخمسة وثلاثين بيتا، علاوة على قصيدته الميمية التى أسلفنا الإشارة إليها وهى أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا^(١). وله المختارات التى جمعها بعد إياها من مفاه واختارها من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعراء المولدين، وله كتاب قيد الأوابد وهو فى شر مسجع سجل فيه خواطره ورسائله وتحليله للأحداث التى وقعت له. وله قصيدة كشف الغمة فى مدح سيد الأمة وهى قائمة بذاتها فى كتاب خاص بها وعليها مدار قولنا قد نظمها فى المنفى عرض فيها سيرة النبى ﷺ من لدن مولده إلى انتقاله إلى جوار ربه. إنه القائل مبينا أنه نظم قصيدته أخذا من سيرة ابن هشام: "حمد لله لداته، آية الإيمان والإخلاص والصلاة على النبى وآله مححة الخلاص. (وبعد) فهذه قصيدة ضممتها سيرة النبى ﷺ من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام، وسميتها كشف الغمة فى مدح سيد الأمة. ورعيتى إلى الله أن تكون لى ذريعة أمت بها يوم المعاد، وسلمنا إلى النجاة من هول المحشر، اللهم فحقق رغبتى إليك واكسها بفضلك رونق القبول آمين"^(٢). ولم يعن أحد من قدماء المؤرخين ومحدثيهم بتاريخ

(١) د. نفوسة ركريا سعيد البارودى حياته وشعره ص ٢٠٣ الإسكندرية ١٩٩٢

(٢) محمود سامى البارودى ناش. كشف الغمة فى مدح سيد الأمة ص ٦٠ الكويت ١٩٩٢.

هذا الفن وهو مدح النبي ﷺ، لأن الذين أجادوا ما كانوا فى الأعم الأغلب من الشعراء المشاهير، ولم يطرد فى التاريخ، ولم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية المعروفة. وإنما هو فن نشأ فى البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل، ومع ذلك جدير بالدرس لأن فيه بدائع من القصائد والمقطوعات^(١). هذا حكم نتلقاه فى تأمل وتحفظ لأنه شاهد على غير مشهود عليه فليس من يقول إن الأعشى مثلا وكعب بن زهير كانا من المغمورين غير المشهورين. وقصيدتهما مأثورة معروفة، كما أن شاعرا هو أشهر من مدح النبي ﷺ بقصيدته المعروفة ونعنى به البوصيرى لم يكن فى زمرة المتصوفة فلم يبق إلا التوضيح والتحديد فنقول إن هذا الفن ظهر على يد الصوفية، ذلك أنهم فى تعبيرهم عن حبهم لله عز وشأنه حبا صوفيا جمعوا بينه وبين حبيبته ﷺ ثم أفردوا قصائد لمدحه. أما ما نحن فى صددده فهو قصائد أو مطبوعات قالها الشعراء فى السيرة النبوية العطرة مدحوا فيها النبي متغنين بسيرته التى إذا ذكر شئ منها كان بالضرورة مدحا، وطول هذه القصائد فى الأغلب أفضى بأصحابها إلى سرد سيرته فيها، والبارودى يبين لنا فى الصفحة الأولى من الكتاب الذى بين يدي قصيدته أنه نظمها محتسبا عند الله حسن المثوبة وهذا منه تصريح عما يعتلج بين جوانحه من رغبة فى مرضاة الله وسلوة لنفسه بعد ما نزل بها من شدة وشقاء وبلاء، رجاء أن تغمر قلبه السكينة، لقد نظم قصيدته تلك فى منفاه. وقد أزعج عن الأهل والولد وكأنما أراد أن يستأنس بسيرة النبي ﷺ من وحشة ومعلوم أن المحزون إذا أخذ منه الحزن كل مأخذ وضاعت فى عينه الدنيا بما رحبت يلمس فرجا بعد الشدة ويريد جاهدا أن ينفس عن كربته وإذا ما انقطعت به السبل لم يجد ندحة عن أن يتجه إلى ربه ويتضرع إليه وأن يكشف عنه العمة. وهذا ما كان من صنيع البارودى والجو النفسى الذى نظم فيه قصيدته. وحسن صنعا بأن مهد بالكلام عن ذكريات شبابه ووصف حاله وهو منفى فى سرنديب. فهذه البيئة التى أحاطته فى أرض غريبة كان لا بد أن يتحدث عنها فى صدر كلامه وكأنما شاء أن يصدقنا القول عن سبب عن باعث قوى بعثه على نظم قصيدته.

ومن الباحثين من يرى أن البارودى فى سرنديب ضاق ذرعا بمعايشة الوتبيين^(٢) ولكننا نضيف إلى ذلك أن البارودى فى دار غربته كان له عميق الأثر فى نفوس الجسم الغفير من

(١) د ركى مارك. المداخل السوية ص ١٩ القاهرة ١٩٣٥

(٢) د نفوسة ركريا سعيد البارودى حياته وشعره - الإسكندرية ١٩٩٢م.

أهلها، فقد علم كثيراً من أهلها المسلمين القراءة والكتابة بلغة الضاد وكان يقصده كثير من أهل العلم والأدب لسماع شعره والاقتباس من أدبه، وله في سرنديب خطب منبرية لا يخلو منها مسجد ولما زایل سرنديب إلى مصر أخذ الأسف أهلها على فراقه وداموا على مراسلته إلى أن وافاه الأجل^(١). وتلك معلومة تنفى عن البارودى أن يكون سبب مدحه للنبي ﷺ هو مجرد سأمه من معاشرته لقوم وتنيين بعد أن عرفنا أنه كان محاطا بالمسلمين، كما يمكن القول إن ذلك ينفى عنه السلبية والخضوع لأمر فرض عليه فاستسلم كرها، ولا عجب، فهو ذلك الفارس المغوار وله من عزته وهمته وشعوره بقوته ما لا يجعله يخضع ويرضخ، أما الأبيات التى تعيننا من قصيدته تلك العصماء فهى مائة وأربعة وأربعون بيتاً تضمنت ذكر مغازى الرسول ﷺ وأول ما يبدو هنا من شعره فى هذا الصدد هو قوله:

و حين آخى رسول الله بينهم	آخى عليا ونعم العون فى القهم
هو الذى هزم الله الطغاة به	فى كل معترك بالبيض محتم
فاستحكم الدين واشتدت دعائمه	حتى غدا واضح العرنين ذا شمم

إنه يبدأ بالتدريج، ولا غرو فقد صرح فيما سبق قائلاً إنه نظم قصيدته على غرار ما جاء فى سيرة ابن هشام وبذلك يكون مؤرخاً ثبثا حجة ثقة. إنه يشيد بفضل على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأقر بأنه فارس الإسلام وأنه قاد المسلمين إلى النصر بفضل من نجده وبسالته، وما يتوضح به هذا ما روى من أنه ﷺ قال يوم خيبر: "لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". ولما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كل منهم يرجو أن يعطاها. فقال ﷺ: "أين على بن أبى طالب؟" فأعطاه الراية^(٢).

وهذا من دليل على أنه ﷺ اصطفى علياً لأكثر من سبب أولهما أن عليا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، والثانى أن الله يفتح على يديه.

وفى ذلك يقول حسان بن ثابت:

وقال سأعطى راية القوم فارسا	كميا شجاعا فى الحروب محاربا
يحب إلها والإله محبه	به يفتح الله الحصون الأوابا
فخص بها دون البرية كلها	عليا وسماه الولي المواخيا ^(٣)

(١) الإمام المصورى. مقدمة محمود باشا البارودى - القاهرة.

(٢) حسين واعط كاشفى روضة الشهداء ص ١٤٠ لكهز ١٣٠٣.

(٣) نظر على الحائرى. العرة البيضاء فى فضائل سيد الأوصياء، ص ٩، ١٠ - الحف الأشرى ١٣٢٩هـ.

ولما كان فرط الاهتمام بعلى والنظر إليه على أنه ذلك المحارب الأشهر فى غزوات النبى ﷺ الذى تمت على يده فتوح وفتوح رأينا أن نضيف شيئاً إلى ما قلنا وقيل عنه لعل مزيداً من فائدة يكون.

كان سيدنا على كرم الله وجهه فى البسالة غاية الغايات، وتلك أبرز صفة تميز بها فجرت عليه وعرف بها، فمعلوم عنه فى كل حرب خاضها أنه أظهر من دروب الشجاعة والبطولة ما يثير العجب والإعجاب، وهو يعد مثالا مرموقاً فيما أبلى من بلاء حسن، والأمثلة فى ذلك متوافرة. ففى أحد عندما التف المشركون بالنبى ﷺ كان أحد الذين عرضوا جسدهم لبطش العدو حماية له من أذاهم، وتلك شجاعة وتضحية ما فى ذلك من ريب، واتفق أن شد جمع من المشركين على الرسول ﷺ فأمر علياً بمواجهتهم، فما كان منه إلا أن تقدم إليهم فى هجوم جسور شئت شملهم وردهم على أعقابهم بعد أن خلفوا بعض قتلاهم وبعد قليل شد عليه جمع آخر منهم فأمر الرسول علياً بصدهم عنه فقتل منهم من يسمى شيبة بن مالك. إثر هذا هبط جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال له: "يا رسول الله إن ما صنع على شجاعة وتضحية" فرد ﷺ بقوله: "إنه منى وأنا أيضاً منه". فما كان من جبريل إلا قوله: "وأنا أيضاً منكما". وفى تلك اللحظة لقد سقط على غير مرة على الأرض فى حرب أحد إلا أن جبريل عليه السلام كان يأخذ بيده ويرفعه عن الأرض.

ولما غرس على راية الرسول ﷺ أمام قلعة خيبر، خرج رجل بئس جسور يلبس درعين وصاح هذا الرجل قائلاً: أنا أصرع على الأرض بسيفى وراجمتى حتى الأسود. فقال على: وأنا أطلق أبى وأمى على (اسم حيدر). وأشبه فى شجاعته أعظم أسد من أسود الغاب. وشهده النبى ﷺ وهو يقتل هذا الرجل.

فقال النبى: وكان يشتد على نفسه ألا يشارك فى القتال. فقال مرة للنبى ﷺ: أتركنى هكذا كأننى من النساء أو الأطفال. فبادره الرسول ﷺ بقوله: ألا تريد أن تكون وكيلى. كما كان هارون وكيل موسى؟ ألا إنه لن يأتى بعدى نبى. فمكث على فى المدينة وكيلاً^(١).

وكأننا بالبارودى يستهل كلامه بذكر على مقاتلاً مظفراً يقود مجاهدى الإسلام ليرفعوا كلمة الله والله يصبرهم نصراً مؤزراً لأن البارودى رحل حرب فهو على ذكر منها ومن

(1) Ismail Mutlu Sahabiler Ansiklopedisi Birinci Tabi (Istanbul 1989).

رجالها البواسل. ولذلك كان أول ما عن له منها ذكر قائدها المظفر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويحضرنا هنا بيت من الشعر قاله محمد إقبال عرضاً لا أصلاً فى أحد كتبه^(١):

(فتح خبير العشق مع خبز الشعير، والعنق قدّ قوام البدر المنير)^(٢)

وكيما ندرك ما ذكر عن على فى هذا البيت، يبغي أن نستند إلى ما لإقبال من نزعة روحية يضمنها أشعاره، فأقبال يكثر من إيراد مصطلحات التصوف فى شعره على أن التصوف هو التقوى فى ذروتها والإيمان فى صميمه، وهو يذم التصوف الذى يكثر أهله من الشطحات والمبالغات ويذكرون فيه ما لا يقره عقل ولا نقل. إنه هنا يذكر العشق والعشق هو المعرفة عند الصوفية وعند إقبال ويضيف إليه أنه تقوى الله وفهم تعاليم الإسلام على الوجه الأصح الأكمل. إنه يشير ضمناً إلى الزهد وهو مقام من مقامات الصوفية ويرمز إليه بنخب الشعير. فهو يريد ليقول إن علياً كرم الله وجهه كان من أهل الإيمان واليقين منصرفاً عن الدنيا وزهوتها شأن المؤمن الموقن والصوفى الواصل. وهذا ما أكسبه من الله قوة خارقة استطاع بها أن يخلع باب حصن ويقود المسلمين إلى النصر المبين.

أما شق القمر فإشارة إلى انشقاق القمر للنبي ﷺ. وذلك من البارودى شاهد صدق على أنه كان معبراً عن نفسه مستجمعاً ذكرياته حتى أن يتصدى للتاريخ الذى ألزم نفسه بسرد حقائقه فى دقة وتفصيل، ويبدأ البارودى فى السرد التاريخى فيذكر السرايا ومن شارك فيها ويضمن كلامه أسماء وأسماء وينص على أول غزو كان للمسلمين فى ودان ويتابع القول تفصيلاً، ونتجاوز أبيات بعد أبيات حتى نبليغ وصفه لمعركة بدر التى يقول فيها:

ويمم المصطفى بسدرا فلاح له	بدر من النصر جلى ظلمة الوخم
يوم تبسم فيه الدين وانهملت	على الضلال عيون الشرك بالسجم
أبلى على به خير البلاء بما	حياه ذو العرش من بأس ومن همم
وجال حمزة بالصمصام يكسوهم	كسا يفرق منهم كل مزدحم
تقسمتهم يد الهيجاء عادلة	فالهام للبيض والأبدان للرخم

(١) إقبال حاويد نامہ ص ١٨، لاهور ١٩٤٨ م.

(٢) عشق نانان حویں خبیر کشاد عشق در اندر ماہ حاکى نہاد

كأنما البيض بالأيدى صوالجة يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم
لم يبق منهم كم غير منجدل على الرغام وعضو غير منحطم

إن هذا جيد من شعر ورائع من تصوير لمعركة دائرة الرحى من أجل الدين القويم. إن البارودى فيما قال لا يعدو الحقيقة، أو على التوضيح والتقريب، نقول إن خياله فى معظمه خيال تقريرى وليس خيالا إبداعيا إنه يصف المشركين وهم يخرون صرعى ولا يتجاوز الحقيقة فيما هو قائل، ويعجبني تشبيهه الصوارم بالصوالج والرءوس بالكرات كما يذكرنى بأن البارودى متأثر بثقافته الفارسية والتركية لأن ذكر الكرة والصولجان دائم الدوران فى الشعر الفارسى والتركى. أما فيما يتعلق بتأثره بالشعر الفارسى والتركى. فالتعويل فيه على ما ذكر عنه من دروسه، فقد قيل عنه إنه كان شاعرا مطبوعا، تثقف بآداب العرب والفرس والترك^(١).

ونزيد تلك المعلومة إيضاحا فنقول: إن التركية كانت فى عهد البارودى لغة الحكام والعسكريين والإداريين. فكان حتما على أن يكون على علم بها، ولما كان البارودى شاعرا جرى على عادة أدباء الترك فى علمهم بالفارسية واطلاعهم على آدابها، ومن هنا عرف الفارسية، واقتبس عن شعرائها، كما أنه ترجم أبياتا فارسية إلى الشعر العربى.

فهذه صورة بيانية طالما تجلت فى الشعر الفارسى والتركى المتأثر به فلزم الإشارة إليها. والبارودى ناطق عن قلبه الخفاق بالإيمان، فهو يذكر عن المصطفى ﷺ بدرا لاح له بدر بدد دياجر الكفر، فهو بذلك يحدد ما يريد أن يعبر عنه، كما لا ينسى أنه يوم مشهود من أيام الدين. إنه لا يكتفى بوصف المحاربين وهم يصلون ويجولون وهم المسلمون ولا يصف المشركين وهم ينكسرون أجنس كسرة بل إنه يذكر فى هذا وقد امتلأ فخرا وكاد يسجد لله شكرا.

ونمضى مع البارودى إلى أن نبلغ ذكره لعزوة أحد التى يقول فيها:

ثم استدارت رحى الهيجاء فى أحد بكل مفترس للرقن ملتهم
يوم تبين فيه الجدد واتضححت جليلة الأمر بعد الجهد والسأم
قد كان خيرا وتمحيصا ومغفرة للمؤمنين وهل براء بلا سقم؟

(١) د. محمد صبرى أدب وتاريخ واجتماع ص ٥٥ القاهرة ١٩٥٠.

مضى على به قدما فزلزلهم والبأس فى الفعل غير البأس فى الكلم
خاضوا المنايا فنالوا عيشة رغدا ولذة النفس لا تأتي بلا ألم
فكان يوما عتيد البأس نال به كلا الفريقين جهدا وارى الحدم
فالبارودى إذا عولنا على ما يدرك من ظاهر كلامه وجدناه محاربا ذا قوة وبأس لا تلين
له قناة ولا تزلزل نفسه محنة ولا هول. لقد ألمح من طرف خفى إلى أن النصر لم يقدر
للمسلمين فى تلك الغزوة وعلى حد علمنا لا نعرف ممن نظموا شعرا فى الغزوات من أشار
إلى هزيمة المسلمين ولو فى لحظة خاطفة. ولكن البارودى لا ينكر واقع الأمر لأنه يبدى من
له الأمر، ولا يجزع لما وقع بل لا يرى فى ذلك عيبا أى عيب فيوم لك ويوم عليك. ويشير
إلى ضرورة أخذ العبرة وتلقى الدرس ويوصى المسلمين بالصبر، والصبر حبس النفس على
المكروه وللصابرين حس المثوبة عند الله جل شأنه، ولا يفوته أن يصرح بأن المجاهدين من
المسلمين خاضوا المنايا ولما استشهدوا نالوا فى عشرين عيشة رغدا وحسبهم هذا. لقد بشر
الصابرين وكأننا زف البشرى للمستشهدين.

ومن عجب أنه لم يذكر مصرع حمزة وكان المجال متراحب الأرجاء لوصفه وربما
انصرف عن ذكره لبشاعته تلك البشاعة التى تتأذى بها نفس كل مؤمن فكره أن يذكرها
لا يريد أن يحلى المجاهدين من المسلمين فى صورة توحى بضعف أو مذلة، كما أنه التفت
إلى ما هو أهم فذكره ﷺ بقوله:

قام به النبى فى مأزق حرج ترعى المناصل فيه منبت الجمم
فلم يزل صابرا فى الحرب يفشوها بالببيض حتى اكتست ثوبا من العنم
فالشاعر هنا يعرض علينا صورة للقوة والصمود وشدة العزم تنطق عن الرسول ﷺ فى
هذه الموقعة وكأنه بذلك لا يرى عيبا فى هزيمة المجاهدين ويصف سيدهم ﷺ
بأعظم ما يوصف به من وقف موقفه فى تلك الغزوة ولم يكف عن ذكر تشبيهه إثر تشبيهه
كمثل قوله:

لا عار بالقوم من موت ومن سلب وهل رأيت حساما غير مثلم
وامتد السياق بالبارودى إلى ذكر غزوة الخندق إلا أنه لم يوفها حقها.
ثم استشارت قريش وهى ظالمة أحلافها وأنت فى جحفل لهم
تستمرئ البغى من جهل وما علمت أن الجهالة مدعاة إلى التلثم

وقام فيهم أبوسفیان من حنق
فخندق المؤمنون الدار وانتصبوا
فما استطاعت قريش نيل ما طلبت
رامت بجهلتها أمرا ولو علمت
فخيبت الله مسعاها وغادرها
فقوضت عمد الترحال وانصرفت
قد أقيلت وهي في فخر وفي جذل
من يركب الغنى لا يحمد عواقبه
يدعو إلى الشر مثل الفحل ذى القطم
لحربهم كضواري الأسد فى الأجم
وهل تنال التريا كف مستلم
ماذا أعد لها فى الغيب لم ترم
نهب الرد والصدى والريح والطسم
ليلا إلى حيث لم تسرح ولم تسم
وأدبرت وهي فى خزى وفى سدم
ومن يطع قبله أمر الهوى يهم

فيما يخيّل إلينا لأنه لم يشر إلى ما كان من سلمان، وليس يخفى أن سلمان كان ينبغى ذكره من باب أولى لأن الغزوة عرفت بما كان من إشارته بجفر الخندق وأن الخندق كان سببا فى نصر المسلمين والبارودى لم يذكر من الأعلام إلا أبا سفيان على أنه شخصية تاريخية اضطر إلى ذكرها لأنه هو الذى استنهض همم قريش وحثمهم واستنهضهم لقتال المسلمين فقال:

فالبارودى فى مثل هذا من قوله يسوق الحقيقة التاريخية مجذافيرها، لا يضيف إليها ولا يطرح منها شأن المؤرخ التبت، ولكن ذلك لا ينسيه ضرورة أن يعقب عليها بشيء من عندياته. ولذا نراه يختم هذه الأبيات ببيت فى الحكمة وكان فى ذلك حكيما يقف على مألوف عاداته بذكر الحقيقة والتعبير عن تفهمها، ثم ينطق عن الحكمة والموعظة ويشير إلى موضع العبرة. وتتابع هذه القصيدة إلى ذكر موقعة خيبر، وقد ذكر فيها ما كان من أمر على - كرم الله وجهه - الذى استطاع بقوته أن يحطم باب قلعة خيبر وكان من حديد، وبعد أن سقط الباب على الأرض حاول ثمانية رجال حمله فأعجزهم حمله، ولنا بعد ذلك أن نقول إن البارودى كان حريصا شديدا الحرس على ذكر خصال على - كرم الله وجهه - وما جرى عليه من صفات مادية وروحية. وإنما نصف الحق إذا قلنا إن عليا - كرم الله وجهه - كان على دراية بأصول الحرب وفنون القتال، فضلا عن ضراوته وبسالته فيها.

ومن الدليل على ذلك ما جاء فى كتاب "آداب الحرب والشجاعة" لمباركشاه فهو القائل ما محمله عند كلامه عن الإغارة ليلا، أن عليا فى غزوة الخندق عندما أعار ليلا على عمرو ابن عبد ود احتار الميقات المناسب، وهو بين حوف الليل وبزوغ الفجر، وكادت غارته

الليلية من طائفتين من المقاتلين، طائفة لها الدراية بالطعن والضرب وأخرى حكيمة عاقلة مطاعة، فإذا ما وفقت هذه الغارة الليلية فى تثبيت جموع العدو، وقلع خيامهم وتشريد خيولهم، وإلقاء الرعب فى قلوبهم فقد حمت الجيش كله، وكفته مشقة خوض المعركة (١) وجميل منه فى الأبيات الأواخر من تلك القصيدة أن يقص علينا ما رأى فى رؤياه. لقد ذكر أن النبى ﷺ حباه عصاه فاعتصم بها، بذلك يذكرنا بالبوصيرى الذى أصابه الفالج، ونظم قصيدته واستشفع بها الله أن يعافيه فرأى النبى ﷺ فى المنام، فمسح وجهه بيده المباركة وألقى عليه برده، ولما أصبح مسح الله ما به من أذى، وتلك روحانية رقاقة عند هذا الشاعر الحديث وذلك الشاعر القديم. يقول البارودى:

فهم الغزوات الغر شاملة	جمع البعوث كدر لاح فى نظم
نظمتها راجيا نيل الشفاعة من	خير البرايا ومولى العرب والعجم
حسبى بطلعته الغراء مفخرة	لما التقيت به فى عالم الحلم
وقد حبانى عصاه فاعتصمت بها	فى كل هول فلم أفزع ولم أهم
فهى التى كان يحبو مثلها كرما	لمس يود وحسبى نسبة بهم

وهكذا يرشد الرمز إلى الحقيقة ويسمو عالم الروح على عالم المادة وتنعقد صلة بين هذين العالمين.

وبعد البارودى يذكر شوقى خاصة أن هذين الشاعرين يذكران ضرورة لدى كل من أرخى نظرة إلى تاريخ الشعر العربى، أو على التحديد تتبع تطوره من شعر عربى تقليدى يضرب فيه الشعراء على قالب القدماء وينظرون إلى شعرهم على أنه قالب يحتذى، فالبارودى هو من له الريادة فى الشعر العربى الحديث، ويتلوه فى ذلك شوقى، فهما متلازمان.

وشوقى شاعر العربية بكل ما تتسع الكلمة له من معنى، وهو من يقلب شعره فى شئون المسلمين قاطبة، يؤرخ حوادثهم متبعا إياها فى حرص بالغ على تتبعها، فاستلزم ذلك منه أن يقول شعرا فيما يجمع المسلمين على الدين الحنيف وله فى الماسبات الدينية كل رائعة. أما ما نقصد إليه فى هذا المقام فهو ذكره لمغازى الرسول ﷺ، فى قصيدتين عصماوين: أولاهما الهمزية النبوية، والأخرى نهج البردة. وهما رائعتان مشهورتان ولذلك دخلتا الغناء الذى رادهما حسنا على حسن وشهرة على شهرة.

(١) مبارك شاه. آداب الحرب والشجاعة، ترجمة الدكتورة ثريا محمد على ص ١٦ القاهرة ١٩٩٢م

إن شوقى كان حقيقاً بأن ينظمهما فى مدح الرسول ﷺ لأنه وهو شاعر العربية - لم يغفل عن صلة العرب بالإسلام ونبى الإسلام ﷺ وأنه لا بد مستوجب على نفسه أن ينظم فى هذا الغرض. فبعد أن ساق كلاماً طويلاً أخذاً بعضه برقاب بعض فى شمائل النبى ﷺ وفى رفعة قدره بين الأنبياء وكل ما هو متصل من ذلك بسبب ما ترك صفة من صفاته إلا أحصاها ولا محمداً من محامده إلا عرف بها إلى أن ذكر غزواته ﷺ على أنها على رأس فضائله ومحامده فقال:

كم من غزاة للرسول كريمة	فيها رضا للحق أو إعلاء
كانت لجسد الله فيها شدة	فى إثرها للعاملين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهب بها	فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام وطالما	حقنت دماء فى الزمان دماء ^(١)

فشوقى فى هذه الأبيات ينظر إلى الغزوات من زاوية لم ينظر أحد قبله إليها منها لأنه بين فضلها وأن غزاة المسلمين فيها إنما تبتوا فى مرضاة الله وأعلوا كلمة الحق وكابدوا فى غزواتهم ما تكبدوا واستشهدوا ما استشهدوا فعاد ذلك على الدنيا وخلّثها بالخير، كل الخير وأسفرت الشدة عن الفرج، وكانت هذه من البشريات للعالمين ونصراً لدين الله نعمت به الدنيا من بعد وخرجت من ظلمات الجهالة إلى نور الحق واليقين، إن شوقى كان على صواب فيما قال لأنه رتب النتيجة على المقدمة، ورد المعلول إلى العلة، وكان المؤرخ الثبت الذى قال ما لا ريب فيه، إنه دعم دعواه بدليلها وبين كيف أن هذه الحروب كانت من بعد سلاماً وكانت لا مدوحة عنها لما تلاها من خير نعمت به الدنيا، فحسنت أحوال المؤمنين فى دنياهم وأخراهم، وخرجوا من تلك الكروب إلى ما هو أحسن المطلوب، إنه كمؤرخ لا يحلق فى الخيال، واللفظ فى كلامه على قدر المعنى لا ينصرف عنه ولا يتعداه إلى خيال محال مما يجعل من كلامه نصاً يساق شاهداً صحيحاً.

أما القصيدة الأخرى فهى "نهج البردة" التى عارض بها قصيدة البردة للبوصيرى فى مدح النبى ﷺ ومعلوم أن الشاعر الذى يعارض غيره إنما يساجله ويحرص على أن ينافسه ويتت أنه أتى بما لم يأت به، وهذا مما يدفع الشاعر المعارض إلى محاولة التفوق والإحسان

(١) أحمد شوقى 'الشوقيات ص ٢٨ ح ١، القاهرة

جهد المستطاع، وقد كان هذا من شوقي فى قصيدته. إن شوقى يستهل قصيدته فى مدح الرسول ﷺ بالغزل لأنه يريد أن يضرب على قالب البوصيرى، وغزله تقليدى كغزله، ثم دخل على المديح وكل ما مدح به النبى ﷺ متعالم مشهور، وبعد أن ساق فى ذلك ما ساق من م صويل قال:

قالوا غزوت، ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب	تكفل سيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعا وإن تلقاه بالشر ينحسم

وملاحظ أن كلام شوقى فى ميميته هذه متمم لكلامه فى بائيته تلك. إنه يقف موقف محق للحق مبطل للباطل مشير إلى عمى البصائر وخبث السرائر، إنه فى واقع الحال يناطق العقل ويلتزم حدود المنطق أولا وبالذات فكان كلامه هو الصواب الأصوب.

وشوقى فى صنيعه هذا مذكرنا بشاعر تركى قديم من أهل القرن الرابع عشر يسمى سلمان جلبي صاحب منظومة طويلة مشهورة مأثورة بعنوان "المولد" أو "وسيلة النجاة". وكلمة مولد أو مولد سليمان جلبي فيها الحاجة إلى فضل إيضاح، فالمولد معنى المنظومة التى يمدح فيها النبى ﷺ مع ذكر كريم صفاته وعظيم مناقبه وسرد سيرته العطرة منذ ولادته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى.

أما دافع سليمان جلبي إلى نظم المولد فهو أنه كان يلقي السمع ذات يوم إلى أحد الوعاظ، وكان من كلام هذا الواعظ أن قال إنه لا يفضل محمدا ﷺ على غيره من الرسل، وحجته قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ واتفق أن كان بين الحضور رجل عربى من أهل الشام، فما سمع هذا من كلام الشيخ حتى دخله غضب شديد وأخذ منه الأسى كل مأخذ، وما صبر أن صاح عليه صيحة شديدة وهو يقول (أيها الجاهل لا نصر لك بالتفسير ولقد دهلت عن المتشابه والناسخ والمنسوخ. إن المعنى المقصود من هذه الآية عدم الفرقة بين الرسل فى أمر الرسالة والنبوة لا فى مراتب الفضل، وإذا ما صح هذا فكيف يفسر قوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾. وعاد الرجل إلى

بلده وهو يكاد ينشق غيظا ولا يجد شفاء لغيظه إلا فى قتل الواعظ فاستفتى فى قتله ثم رحل إليه وقتله^(١).

ولذلك صح عزم سليمان جلى أن ينظم مولدا هو سرد لسيرة الرسول ﷺ وقسمه إلى فصول وكان مندفعاً إلى ذلك بفرط محبته لحبيب الله ﷺ ورغبته فى دفع المفتريات والأراجيف عنه إحقاقاً للحق وتصحيحاً للخطأ وقصد بنظمه هذه المنظومة جزيل ثواب الله فى الآخر.

ولهذه المنظومة فى الأدب التركى منزلة لا تسامى، وإن كان شاعرها ليس من شعراء الترك المشاهير، ولكنه أحسن فيها أيما إحسان، حتى قال الرحالة التركى أوليا جلى وهو يتحدث عن مدينة بروسه إن مولد سليمان جلى الذى يتلى فى بلاد العثمانيين وغيرها شعر معجز وسهل ممتنع^(٢). ويقول ضيا باشا "لست أدرى هذا الكلام من أى نوع. إنه يخلب لب كل مسمع"^(٣) أما كوبرىلى زاده محمد فؤاد فيسميه جوهرة الأدب التركى^(٤). تلك هى منزلة هذه المنظومة فى الأدب التركى، ومنزلتها أعظم فى نفوس الترك فما من تركى لا يحفظ منها أبياتا متبركا بتلاوتها وفى شهر ربيع من كل عام يجتمع الترك لسماع من يتلو مولد سليمان جلى بصوت بلبل فيقع الخشوع فى القلوب وتفيض العيون من الدمع.

وسليمان جلى يعبر تعبير المؤمن الموقن عن حبه للنبي ﷺ ويركن إلى أسلوب المتصوفة الذين يخلقون فى الخيال كل محلق، ويزحمون كلامهم بالمصطلحات والرموز ويجعلون من اجاز قنطرة للحقيقة. إن سليمان جلى يمدح الرسول الكريم بكل جميل، ويجرى عليه حميد صفاته ويذكر عنه معجزاته وهذا مثال من قوله "وجعل المصطفى له حبيبا، فكان لكل الأوجاع طبيا. وكملة على الخلق فضله، وكان منه كل ظاهر وكل خفى، وفى العرش والفرش والغبراء والسماء وكل شىء.

ولو أن محمدا ﷺ أظهر، لما بدت أرض ولا سماء للنظر، ولا شمس ولا قمر، يا صاح، بل ولا ليل ولا نهار ضاح. ولولا قدوم محمد ﷺ إلى العالم، لما أنزل تاج العزة على آدم.

(١) كوبرىلى زاده محمد فؤاد - شهاب الدين سليمان. يكى عثمانلى تاريخ أدبائى ص ١٤٥ (استانبول ١٣٣٢هـ).

(٢) أوليا حلى أسيا حنما ص ٥٣ ايكجى جلد (استانبول ١٣١٤هـ).

(٣) ييلم نه سحدر اوسحدر. أشفته أو لورهب ايشيتلر

(4) Pareha: Islamalegia P,543 (Roma 1951)

ومن أجل ذلك الرسول ﷺ نالت توبة آدم عند الله القبول. وكرامة له قدرت لنوح من الغرق نجاته، وقبل مولده بدت معجزاته.

أما موسى ففي يده العصا قد أصبحت بعزته أفعى ولما كان جده الخليل جعل النار جنة له ذلك الجليل^(١).

وهنا مجال المقارنة بين الشاعر التركي. فكلما الشاعرين وقف موقف المدافع عن رسول الله ﷺ، وشوقى إنما يذكر غزواته بالذات ليدحض عنه المفتريات، أما الشاعر التركي فامتدحه وأطال رغبة منه في أن يثبت أفضليته على الأنبياء والمرسلين والخلق أجمعين، وما خطر بباله أن من الملاحظة من رأى في المغازى عيبا يشين مثل شوقى الذى عرف ذلك من بعض ما كتبه كتاب الغرب. وشوقى شاعر العربية الأعظم الأشهر ولا شك فى جودة قصيدته. أما سليمان جلبى فما كان إلا مغمورا وليس فى عداد شعراء الترك المرموقين، وإن كان ذلك لا ينفى أنه بلغ ذروة الإجابة فى منظومته تلك الطويلة.

وليس لقصيدتى شوقى هذه القدسية التى لمولد سليمان جلبى الذى يتلى تبركا واحتسابا فى كل عام، وفى كثير وكثير من المناسبات، كما أن شوقى أميل إلى ذكر الواقع وتحديد كلامه، ولكن سليمان جلبى يهيم فى الخيال مندفعاً إليه بعشقه الصوفى الذى يريد تفسير الحقيقة بالجهاز، وإن كان لم يتجاوز الحقيقة فى وصف معجزات وكرامات النبى ﷺ وكلامه هو الحقائق ترفل فى وشى من المجاز يكسبها الجمال والجلال، ولنا أن نقول إن شوقى فى مدحه للنبي ﷺ يتفق مع سليمان جلبى. فالشاعران فى هذا الصدد متكاملان وإن تصدى شوقى لما لم يتصد له سليمان جلبى. بيد أننا استوجبنا على أنفسنا عقد هذه

جملة درده هم أول اولدى طيب
يارد لمشدن معضل ايلدى
اوليسردى رمسين واسمان
عرش وفرش ويرو كوك هراكه وار
اولمريدى اى وكوون ليل ونهار
تساح عرت انمريدى آدمه
آدمك حق توبة سن قلدى قبول
داحى طعمادان كوربدى معجرات
اولدى انك عرتيه اردما

(١) مصطفى كندويه قلدى حيب
حق اكا وردى مكميل ايلدى
كر محمد اولمايدى عيان
اندن اولدى هر بهان واشكار
كر محمد او لمسا ييدى اى يار
كر محمد كلمسيدي عالمه
هم وسيلة او لد غيخون اول رسول
نوح انكحون غرقدن بولدى نجات
داحى هم موسى النده كى عصا

المقارنة بين الشاعرين العربى والتركى. وهذا ما كشف بنا عن فوارق بينهما من أهمها أن شوقى يمثل الروح العربية فى الشعر كما يمثل سليمان جلى الروح التركية الصوفية، وقد جمع بينهما موقفهما موقف المدافع عن نبي الإسلام ﷺ. ولنا أن نضيف إلى ذلك ما يمكن أن يلحظ وهو أن الشاعر التركى لم يجد باعنا يبعثه على ذكر مغازى النبي ﷺ لأن المغازى من المتعالم المعروف عند الترك، فهم يمتدحونها لدى سلاطينهم وهذا حسبهم، فلا حاجة بهم إلى ذكرها فى سيرة سيد المرسلين، ولكن شوقى اضطر إلى ذكرها على أنها من فضائل النبي ﷺ ردا على من توهموا بجهالتهم وسقم فهمهم إلى غير ذلك.

ومدار الحديث بعد شوقى على شاعر آخر من شعراء العصر الحاضر هو أحمد محرم، وشهرته فى المقام الأول بأنه شاعر العروبة والإسلام، وذلك مردود إلى أنه صاحب كتاب منظوم عنوانه ديوان مجد الإسلام، وقبل أن ندرس فيه المغازى نتعرف إلى الشاعر فى شخصيته بعامة ونحاول تبين ما حفزه على نظم هذا الكتاب رجاء أن نتبين الصلة بين الشاعر وما قال من شعر.

ولد أحمد محرم فى بيت متوسط الحال لأبوين تركيين عام ١٨٧٧م فى القاهرة، وتوفى عام ١٩٤٥م وأبوه تركى صميم. أما أمه فاتصل نسبها بالمصريين، وكان أبوه التركى شديد المحبة للعرب تقيا نقياً محبا للعرب مطالعا على تاريخهم، وعنه ورث ابنه ذلك الطبع وتلك النزعة، ولم يتم تعليمه فى المدارس، وذلك أن مناهج الدراسة فيها وهى أوربية لم تطب نفسه بها، والظن أن ذلك يشير إلى نزعة الإسلامىة المحضة، وقال الشعر وبعث بقصيدة وهو فى حدود الخامسة عشرة من عمره يشكو فيها إلى أبيه ما يقاسى من اغتراب نفسى، فما كان من أبيه إلا أن أعاده إلى قريته واستحضر له من شيوخ الأزهر من جلس منهم مجلس التلميذ، وبذلك حذق العربية وعلوم الدين، وكانت ثقافته إسلامية بتمام المعنى، فعالج نظم الشعر جدياً، وكان لنشأته الدينية الإسلامية أثرها فى نفسه بحيث إنه وحد دافعا يدفعه إلى الدود عن الدين والرغبة فى الأخذ بتعاليمه، والدعوة إلى بيان حقيقته وتفسير ما أشكل على الناس فهمه من تعاليمه، والدعوة إلى بيان حقيقته وتفسير ما أشكل على الناس فهمه من تعاليمه، وبلغ حداً سمى فيه نفسه نصير الدين.

وتقلب شعره فى كل فنون الشعر المعلومة إضافة إلى شعره فى الإسلاميات.

وأحمد محرم أحد الشعراء الذين نهضوا برسالة الشعر بعد البارودي إلى جانب شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران^(١).

أما أهم ما فاضت به قريحة أحمد محرم ويعيننا فى هذا الصدد فهو (ديوان مجد الإسلام) الذى سرد فيه سيرة الرسول ﷺ، وأشتهر غزواته، وبطولات أصحابه، وما ماجت به حياتهم من أحداث.

وشعره فى هذا جزل العبارة متين السبك وله القدرة على أن يعبر عن الحقائق التاريخية فى أسلوب شعرى لا يصرف الحقائق عن وجهها، بل يكسبها أثرا له موضعه فى أغوار النفوس، فهو لا يهيم فى الخيال والحجاز إلا بمقدار مما يجعل من كتابه سجلا لما ذكر فيه من أحداث يعتمد عليها ويرجع إليه.

وديان مجد الإسلام فى مجلدات أربعة مما يدل على أن الشاعر غزير المادة طويل النفس له الحرص على إيراد الحقائق مجذافيرها غير منقوصة. ومما يلتفت إليه أنه فى مقدمة ديوانه أو منظومته آيات بينات من كتاب الله المسين تدعو إلى الجهاد و ترفع من شأن المجاهدين، مما يقوم دليلا قاطعا على أنه كان ذا رغبة فى تأريخ المغازى وعدها مجدا من أجداد المسلمين، كما أورد مقولات لبعض أهل العلم فى المغازى كقول الزهرى:

(علم المغازى علم الدنيا والآخرة) وقول زين العابدين بن الحسين بن على (كما نعلم مغارى رسول الله ﷺ، كما نتعلم السورة من القرآن).

وقول سعيد بن محمد بن سعد بن أبى وقاص (كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا، ويقول: إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها).

ومما زين لأحمد محرم أن يعكف على نظم منظومته الطويلة تلك أن محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح كتب إليه يعرض عليه فكرة النهوض بتسجيل مفاخر الإسلام، والعكوف على نظم وقائعه ليتشكل من ذلك إليادة إسلامية تذكر الجيل الحاضر من المسلمين بمحدهم فى الرمان الخالى، وتقوم فى الشعر العربى مقام إليادة هوميروس فى

(١) محمد إبراهيم الحيوشى: شاعر العروة والإسلام ص ٥٢ القاهرة سنة ١٩٦١م

الأدب اليونانى، وشاهنامة الفردوسى فى الأدب الفارسى^(١). وهذا ما ينزل منظومة أحمد محرم منزلتها فى الأدب العربى ويبين أنه بلغ فى الشعر علو الرتبة، وإن رددنا قولنا بأن المغازى كانت المحور الذى تدور عليه، فصادف قول محب الدين هوى فى نفس أحمد محرم وجعل ينظم ما ينظم لينشره فى الصحف تباعا وبذلك اتسعت شهرته وعرفت أهمية شعره، وأحمد محرم يبدو داعيا إسلاميا بمعنى الكلمة بمثل قوله:

هل الدين إلا معقل نهتدى به	إذا دلف العادى إلينا فأسرعا؟
هل الدين إلا الروح يحى نفوسنا	حياة ترينا ماحل العيش مرعا؟
أنعرض عنه لا مبالين رزء	وآلامه مهما اشتكى وتوجعا؟
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده	وإن جد ساعينا على إثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم	ويصبح منهم موطن الغى بلقعا

فمثل هذا من قول أحمد محرم يستدل منه على أنه نظم منظومته هذه فى الدين، وعد المغازى جزءا لا يتجزأ من الدين، ولذلك كان له الحرص على القول فيها. وقبل أن ننظر فيما قال عن المغازى نتدبر قوله فى مدح النبى ﷺ

املاً الأرض يا محمد نورا	واغمر الناس حكمة والدهورا
جبتك الغيوب سرا تجلى	يكشف الحجب كلها والستورا
عب سيل الفساد فى كل واد	فتدفق عليه حتى يغورا
جئت ترمى عبابة بعباب	راح يطوى سيوله والبحورا
ينقذ العالم الغريق ويحمى	أمم الأرض أن تذوق الثورا

فملحوظ أن اللفظ فى هذا الكلام على قدر المعنى، فلا شطحات فيه ولا مجاز يحجب الحقائق، مما يرشد إلى أن الشاعر إن هو إلا مرشد واعظ لا يقول إلا حقا ويريد من يقرأونه على أن يقتنعوا بما يقول فى جزم ويقين.

وتحت عنوان غزوة بدر الكبرى يتجه الشاعر بالخطاب إلى النبى ﷺ يحثه على القتال مما يدل على أنه يلتهم حماسه ويمتلئ فخرا فيقول:

ما للنفوس إلى العمابة تجنح أتظن أن السيف عنها يصفح

(١) محمد إبراهيم الحيوشى: شاعر العروبة والإسلام ص ٦٢ القاهرة سنة ١٩٦١م

ظمئت سيوفك يا محمد فاسقها
فجر ينابيع الفتوح فريها
المشركون عموا وأنت موكل
خذهم ببأسك لا ترعك جموعهم
ضلوا السبيل وفي يمينك ساطع
يهدى النفوس إلى التي هي أوضح^(١)

فهذه نبرة لا عهد لنا بمثلها بما أسلفنا النظر فيه من شعر حسان بن ثابت مثلاً الذي كان يقرر الواقع بل يؤرخه وكفى ولم يكن له من الحماسة أو الجرأة ما يتجه به إلى النبي ﷺ حاثاً له على قتال المشركين، بل كان حسبه أن يقف موقف المدافع وأن يصرف عن النبي وعن رجاله أذى أعدائه، ولكن أحمد محرم كما أسلفنا لا يتمالك نفسه من الهتاف برسول الله ﷺ راغباً إليه أن يحارب من أرادوا له كيذا مبينا أن السيف وحده هو الذي يصرف شرهم عنه، وما من وسيلة سواه مما يدرك منه أن النبي ﷺ كان على الحق والصواب في قتال الكافرين الذين بيتوا الشر للمسلمين وسعوا في هدم الدين. وهو في هذا يتفق مع شوقي فيما قال ولقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويمضى أحمد محرم في السرد القصصى وهو إنما يذكر ويصف ما حدث كما حدث فهو راوية لا يتحدث عن تجربة شخصية ولا يدلى برأى فيما وقع ولا يعبر عن رؤية خاصة أو ينطق من شعور هز أعماق نفسه فيقول:

عد باللواء، وقل لحمزة إنهم
نفرؤا يريدون القتال وغرهم
غننت بهجو المسلمين وإنها
لأضل من يهجو الرجال ويمدح
رهن بمرزومة تسح وتدلح
عبث اللواتى فى الهوادج تنبح

إنه فى هذه الطائفة القليلة من الأبيات يلتفت إلى النساء المشركات اللاتى جعلن يشحذن هم الرجال ويحفزنهم على قتال المسلمين وكل ما يستطيعه هو الثلب والسب، وهذا منهم خسة وما كان لها من أثر، بل إن الله أعز جنده وإن كره المشركون. ولكنه بعد ذلك يلتفت إلى النبي ﷺ وينطق عن نفسه كأنه خاض بنفسه غمرات تلك الغزوة. وهذا من الدليل

(١) أحمد محرم. ديوان مجد الإسلام ٣٥، ٣٦، القاهرة. سنة ١٩٦٣م

على أنه غاب بعض الشيء عن وعيه ودفعه إيمانه إلى آفاق الخيال وذلك مردود إلى إيمانه و يقينه، وكأنما كان يأمل أن يكون بين المؤمنين المقاتلين فى تلك المعركة لينال حسن المثوبة، بذلك يعبر عن رؤيته وشعوره بعد أن كان مجرد راوٍ أو وصاف.

لقد خاطب رسول الله ﷺ قائلا له إنه ممن ينصرونه ويشدون أزره ولا يفضون من حوله مدبرين لأنهم يريدون ثواب الآخرة. ويلتفت إلى تاريخ الأنبياء - عليهم السلام - وما كان من أمر موسى لقومه أن يدخلوا الأرض المقدسة إلا أنهم لم يأتروا بأمره وكانت عاقبة ذلك أن الله أخذهم بما صنعوا فضرب عليهم التيه أربعين سنة. إن الشاعر على ذكر من تواريخ الأنبياء، وهو هنا يورد ما وقع لموسى مع قومه ويغلظ اللائمة ضمنا على من خذلوه، وينزه نفسه أو أصحاب النبى ﷺ عن أن يكونوا مثل قوم موسى. إلا أنه بعد ذلك يتجه بغتة إلى وصف المعركة فيقول:

هذا على فى اللواء ومصعب	والنصر فى عطفيهما يترنح
حملا لوائيه، فلو صدح الهدى	فى مشهد جلل لأقبل يصدح
هذا رسول الله من يك مؤمنا	فإليه إن طريده لا يفلح
الموت فى يده وعند لوائه	ريح الجنان لمن دنا يستروح

إنه بعد الإجمال ينجح إلى التفصيل فيذكر بعض الأسماء ولكن لا يفوته كما عهدناه من قبل أن يذكر الشهادة فى سبيل الله بين الفينة والفينة. و بذلك يطلعننا على فحوى الجهاد فى سبيل الله.

ويميل ثانية إلى ذكر الأحداث تفصيلا ما وقع من يسمى الأسود المخزومى الذى قال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم (المسلمين) أو لأهدمنه. أو لأموتن دونه، ثم أقبل فضربه حمزة فى الحوض، وهو أول قتيل من المشركين فى بدر. والشاعر يذكره مثل هذه الجزئية إنما يدل على أنه شاء أن يؤرخ تلك الغزوة وأن يتبع ما وقع فيها.

وقد أكد ما نذهب إليه مشيرا إلى عزم أبى بكر على مبارزة ابنه عبد الرحمن لما طلب المارزة، وكان لانزال من المشركين ثم أسلم فى هامة الحديبية.

ولم يمه هنا أن يعقب على ما كان من أبى بكر مع ابنه وينصح له أن يعرض عن مبارزته لأنه لو كان خر صريعا تحت سيف ولده لأحزن مونه النبى ﷺ كل الحزن. إن

الشاعر وهو يسرد الأحداث يميل إلى النطق عن نفسه متخيلاً. وتلك منه لمحات مفسرة لما يدرك من تلك الأحداث في كثير من المواضع، وأضاف إلى ما قال عن أبي بكر وابنه ما كان بين أبي عبدة وأبيه إذ حمل أبو عبدة بن الحراح على أبيه وكان مع المشركين ليقنتله فأعرض عنه فتعقبه وأدره حتى قتله.

وليس يخفى ما في هذين الخبرين الذين أسلفنا ذكرهما بين أبوين وولدين لهما في معركة بدر مما يجتذب الانتباه ويستعصى على النسيان ويحرك المشاعر.

إن خبر أبي بكر مع ولده عبد الرحمن يذكركنا بقصة من قصص شاهنامه الفردوسي مدارها على أسطورة تقول إن البطل رستم قتل ولده سهراب، والخبر في ذلك أن سهراب بن رستم تربى في كنف الترك وكان أميراً على جيشهم الذي زحفوا به على إيران، وكان رستم على رأس جيش الإيرانيين واتفق أن قتل رستم سهراب ولده وهو لا يعلم أنه ولده، وكان هذا حدثاً مؤثراً. ولقد أورد الفردوسي في شاهنامه هذه القصة فقال الفردوسي في ذلك شعراً يعد من أروع ما قال ويمثل فجيعته في ولده، والفردوسي بذلك يجعل من الأسطورة الخيالية إلهاماً لشعر قاله معبراً عن ذات نفسه ناطقاً عن تجربة وقعت له ومن قوله في هذا:

(آن لى اليوم عن ديبای آن أروح، المت لموت الفتى فأننا جسد بلا روح. أحت خطایا لعلی ألقاه بعد سفر طویل، وإذا ما لقیته فسوف أعاتبه على الرحیل)^(١).

وهنا يتجلى الفرق واضحاً بين أحمد محرم والفردوسي فأحمد محرم مر على ما وقع بين أبي بكر وابنه مر النسيم وكان حسبه إشارة لائحة وكان المتوقع منه أن يتأثر لذلك وأن يبين كيف بلغ أبو بكر من الإيمان واليقين حد أن يهتم بقتل فلده كبده ولو فعل أحمد محرم لو وجد المجال متراحب الأرجاء وإن ألمح إلى ذلك في بيت واحد لا غناء فيه. أما الفردوسي فقد تأثر بالأسطورة واستلهم منها ما قاله في موت ولده وكان لكلامه موقعه. إن رستم قتل ولده وهو لا يدري أنه ولده وهذا التناقض بينهما كان تيمناً بأن يزيد من حزن

(١) رضا زاده شفق تاريخ ادبيات إيران ص ٩٥ (تهران ١٩٢١)

مرا فوت برفت آن حواں
دروش مم حو تى بی رواں
شتایم همی تامکر یانمش
جويایم په یسعاره بشتا یمش

أبى بكر ويشعب بعض الشيء قلب الفردوسى بالسلوك ثم ينبرى أحمد محرم لوصف المعركة وبعد أن يصف الفرسان وهم يصولون ويجولون ولحيولهم حممة تلهب الحماسة وتغرى البئيس المقدام بالمضى قدما، يشير إلى أن الملائكة شاركوا المؤمنين قتالهم فكانت المعجزة ويتميزت الغزوة بما لم تتميز به غزوة سواها.

ثم نجد أنفسنا إزاء عنوان هو مصرع أبى جهل، والشاعر يخاطبه مستخفا به ساخرا منه ويذكر أعلاما معه فى المعركة وبذلك يعبر عن المؤمن الموقن فى فرحته فى شماتته بعدو الله والرسول ﷺ وينطق عن لسان المسلمين الذين يرون فى مصرع أبى جهل معنى النصر المبين. إنه يتحدث إليه مبينا كيف ساءت عاقبته وأن مصيره كان مصير كل ظلام كفور:

سقيت ذعاف الموت، فاشرب أبا جهل ولم	بسيفك فيما اخترت من عاجل القتل
يرض فى جد الكريهة بالهزل	هو السيف لولا الجبن لم يمض حده
فراعينها من دى شباب ومن كهل	أفرعون إن تجهل، فلن تجهل الوغى
هو الجد كل الجد لو كنت ذا عقل	دع الهزل يا ابن الحنظلية إنه
وزادتك هوى من ضلال ومن خبل	هى اللات والعزى أضلته هذه
رضيت به ربا يفوز ويستعلى	لقد كنت ترجو أن ترى الهبل الذى
وباء عدو الله بالخرى والذل	أصبت ابن مسعود سناء ورفعة

فأحمد محرم مستوعب للسيرة النبوية ملم كل الإمام بتاريخ الغزوات وكأننا به نشاهده وهو يقرأ تاريخ المغازى سطرا بعد سطر ليستمد منه ما يقوله شعرا وبذلك يجعل من ديوان "مجد الإسلام" تاريخا دقيقا متضمنا تاريخ مغازى الرسول ﷺ.

وحسبنا أن نقول إنه قال عن أبى جهل إنه فرعون وهما يحضرنا أن النبى ﷺ قال "إن أبا جهل فرعون هذه الأمة"، ثم يبين كيف تم قتله تفصيلا، ومعلوم أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء من الأنصار هما اللذان ضرباه، وأن ابن مسعود أجهز عليه. وكان ابن مسعود كليلى السيف فقال له أبو جهل: خذ سيفى فاحتر رأسى به ففعل. وقال ابن مسعود وهو على صدره يحتر رأسه لقد ارتقيت يا روى الغنم مرتقى صعبا.

وما أسلفنا ذكره يستبين لنا أن قراءة شعر أحمد محرم تستوجب من القارئ أن يرجع إلى تاريخ المغازى ليتابع ما ذكر من أحداث على التفصيل وذلك ما يجعل هذا الشعر تاريخا

صحيحاً للمغازى ولا غرو، فهذا الكتاب كتاب تاريخ منظوم لأن صاحبه يعقد فيه الأبواب ويرتب الفصول وهذا ما ينأى به عن أن يكون قصيدة فى مدح النبى ﷺ كقصيدة شوقى أو البارودى.

ولنتجاوز عناوين على فصول عدتها ثلاثة عناوين لنقف على فصل عنوانه شهداء بدر. وهذا الفصل قصيدة رائعة يتحدث فيها عن شهداء بدر حديثاً هو كل ما يمكن أن يقال عنهم وهو فى تلك القصيدة يخرج عن ترديد ذكر الأسماء التى تجعل لكلامه طابعاً تاريخياً واضحاً ليحيى هؤلاء الشهداء ويبين فحوى الشهادة فى دياجى مشرقة فيقول:

طف بالمصارع واستمع نجواها	والثم بأفياء الجنان ثراها
ضاع الشذى القدسى فى جنباتها	فانشق وصف للمؤمنين شذاها
حلل يروع جلالها ومنازل	من نور رب العالمين سناها
ضمت حماة الحق ما عرف امرؤ	عزا لهم من دونه أوجاها
الخائفين من الخطوب غمارها	المصطلين من الحروب لظاها
الباذلين لدى الفداء نفوسهم	يغنون عند إلههم محياها

إنه يطيل فى الوصف غير أنها إطالة محبة إلى النفس لا يشعر القارئ منها بسآمة ولا ملالة، لأنه عبر عن ذلك بشعر بلغ علو الرتبة كما أن ما قاله وصف دقيق لهؤلاء الشهداء تحيط به هالة من القدسية. ويمضى الشاعر فى القول ويغرينا بإيراد الشواهد من شعره التى نخشى معها الإطالة، بيد أننا مع ذلك نجد أنفسنا فى ضرورة أن نكثر من إيراد الشواهد خصوصاً إذا اغترفناها من هذه القصيدة التى تعم بالوصف الصادق شهداء بدر، ومن ثم شهداء المسلمين فى المغازى. إنه يهتف بهم ويناجيهم بعد أن خروا صرعى بعد أن نصروا دين الله ورسوله ﷺ فارتفعت أرواحهم إلى حيث تنعم فى عليين بالنعيم المقيم.

شهداء بدر أنتم المثل الذى	المدى بعد المدى فتنهاى
علمتم الناس الكفاح فأقبلوا	ملء الحوادث يدفعون أذاها
أما الفداء فقد قضيتهم حقه	وجعلتموه شريعة نرضاها
لولا الدماء تراق لم نر أمة	بلغت من المجد العريض ماها

كم أمة لم توق عادية الردى لولا الذى اقتحم الردى فوقها
ما أكرم الأبطال يوم تفيأوا ظلل المنايا يبتعون جناها
راحوا من الدم فى مطارف أشرفت حمر الجراح بها فكن حلاها
هم عند ربك يرزقون فحيهم وصف الحياة لأنفس تهواها

هذه طائفة أخرى من الأبيات قالها فى شهداء بدر وقد ترددنا فى اختيار الشواهد ماذا نبقى وماذا نذر منها لأن الكلام أخذ بعضه برقاب بعض مطرد السياق والمعانى مترتب بعضها على بعضها الآخر ولكن ذلك دافعنا إلى القول إن الشاعر لم يكن فى بعد عن الصواب حين أطل ولأن إطلاته غير مملولة ونحن فى صدد المقارنة بينه وبين غيره فى تاريخ المغازى لا فى مدح النبى ﷺ ليس غير. لقد أحسن الشاعر فى التعريف بهؤلاء الصرعى فى بدر، فبعد أن صرح بأن مثواهم الجنة وأنهم نصروا دين الحق وهذا ما يبدو من قبيل نافلة القول أو تحصيل الحاصل استطرد إلى ذكر المحاربين فى شمول وشرح معنى أن يخر محارب صريعاً إذا كان قتاله مسعى منه فى الذود عن حق أو الدفاع عن ضميم، وبمثل هذا من قوله يرر تلك المغازى التى خفيت بواعثها عن بعض من كلت أفهامهم عن إدراك مغزاها فقالوا عنها ما لا يقال وطمسوا الحق بالباطل وجاءوا بالأراجيف والمفتريات. وأحمد محرم - وهو من أهل التقوى والورع - إنما استنهض لنظم هذا الكتاب إيمانه الذى بغمر رحاب نفسه ورغبته فى أن يحتسبه عند الله ويرجو به حسن المثوبة، يعبر عن ذلك بقوله:

يخل الزمان، فكنت من شعرائها لو شاء ربي كنت من قتلاها

ولقد نظم أحمد محرم قصيدة فى ذكرى بدر وذلك فى حفل أقامته جمعية إحياء مجد الإسلام بالقاهرة عام ١٣٥٨ للهجرة كما ألقى أخرى فى حفل أقامه المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٣٦٠ للهجرة.

ويستدل من ذلك على اختصاص أحمد محرم بموقعة بدر. ولنا أن نسببه شاعر بدر وحسباً ما أسلفنا ذكره عن غزوة بدر لنكون نفلتنا إلى غزوه أحد النى نظم الشعر فيها بعد غزوتى بى فينقاع والسويق، وأول ما بلحظ أنه نظمها فى ذلك النمط المعروف بالخمس وبذلك يتفق مع الشاعر الأندلسى ابن حبيس من أهل القرن التاسع الذى أسلفنا النظر فى منظومته

وهذا الخمس تستغرقه عشر صفحات من الكتاب وهو من بحر مرقص هو الهزج. والشاعر يدأب على مجرى عادته من التأريخ ويدفع القارئ دفعا إلى مراجعة الأحداث لنفقته عنه قوله: ونحن نجده لذلك يبادر إلى الشرح والتعريف بحقيقة ما وقع قبل أن يعرض علينا شعره، فهو القائل ما مجمله لما لحقت الهزيمة الماحقة بقريش يوم بدر مضى بعضهم إلى أبى سفيان وإلى من كانت له تجارة فى العير التى كانت سببا للواقعة - وكانت موقوفة فى دار الندوة - وأراد القوم أن يجرضوا على الحرب وأن يجعلوا ربح التجارة لتجهيز جيشهم فارتضى هذا أبوسفيان وقال أنا أول من يفعل. ونزلت الآية الكريمة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا تَمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

إن هذا الشاعر المؤرخ يأبى إلا أن يتابع أحداث التاريخ حسب ترتيب وقوعها فيحاطب أبا سفيان قائلا:

أدأبك أن تريد المستحيلا؟ تأمل أيها المولى قليلا

لبثت تعالج الداء الدخيلا وتضممر فى جوائحك الغليلا

وما يجديك لاعجه فتىلا

أما تفك تذكر يوم بدر وما عانيت من قتل وأسر

وراءك، إنها الأقدار تجرى بنصر للنبي وراء نصر

وكان الله بالحسى كفىلا

أراك أطعتهم وأيت إلا سبيل السوء تسلكه مدلا

تريد محمدا وأراه بسلا رويدك يا أبا سفيان: هلا

أردت لقومك الحسن الجميلا

أما ما يسترعى النظر ويقم بالملاحظة والذكر فهو الكيفية التى خاطب بها الشاعر أبا سفيان فهو يحذره عن فساد قلبه وخبث طويته، ويذكره بأنه مطبوع على الكيد والشر وكأنه بذلك يهجوّه وكأنه حسان الذى هجاه فى سالف الدهر إلا أنه يختلف عن حسان بجمال العبارة وروعة الشعر ووضوح المعنى فيما قاله خاصا بأبى سفيان. وإذا انتقلنا من

الجزئيات إلى الكليات أدركنا في التو أن هذا الخمس يفضل كثيرا خمس الشاعر الأندلسي ابن حبيش.

لقد أحسن أحمد محرم اختيار البحر واختيار النمط، ومعانيه في ظاهر ألفاظها، بل يمكن القول إن كلامه يسابق لفظه معناه وليس فيه غريب على الأسماع. نقول هذا لأنه سبق لنا أن أوردنا شعرا له تضمن ألفاظا غريبة لعله اضطر إلى إيرادها لضيق القافية ووضعه عناوين لما يندرج تحتها من شعر يجعل من ديوان مجد الإسلام كتاب تاريخ منظوم بتمام المعنى، فهو ليس قصيدة طويلة بل فصول يورد فيها حقائق تاريخية لا ريب فيها ويستخدم الشعر أسلوب تعبير وبذلك يشبه شعراء الفارسية والتركية والأوروبية فيما نظموا من كتب: إلا أنه جعل تحت كل عنوان قصيدة طويلة بتمامها. أما شعراء الفارسية والتركية والأوروبية فينظمون ما يعرف بالمشوى أو المزدوج وفيه يتفق الروى بين شطرين في كل بيت ولا يلتزم في بقية المنظومة. وهذا ما يبرزه شاعرا طويل النفس إلى أبعد مدى مالكا لخاصية اللغة بتمام المعنى.

ويكثر الشاعر من ذكر الأسماء فيضعنا إزاء كتاب تاريخ، وكأننا بهذه الأسماء نخرج بعض الشيء عن إطار الشعر، أو تغض قليلا من روحانيته وتشعرنا أننا نقرأ كتاب تاريخ. هذا شعورنا نعبّر عنه، وتذوقنا نصفه ونحن نقرأ ذلك الشعر، ولكن الشاعر كان مضطرا إليه في سرده التاريخي ولذلك بادر إلى التعريف بما أورد من أعلام في كلامه. وفي هذا الخمس أشار عرضا إلى حمزة إلا أنه أفرد لمقتل حمزة قصيدة بعنوان مقتل حمزة وكان على الحق في ذلك وحسنا فعل.

إنه عرض صورة لمصرع حمزة لم يصف إليها من عندياته ، ومع ذلك كان لها عميق الأثر في أغوار النفس لأنه وهو يتجه بقوله إلى النبي ﷺ لأن حمزة عمه ويصف كيف أن هدد بنت عتبة لاكت كبده وكيف أن أبا سفيان زج رمحه في شدة وهو صريع وبذلك كان بالواقع في غنية عن الخيال وبالعبارة الصادقة عن الإشارة التي بمنأى عما يصح في الفهم أن يستهل كلامه متسائلا عن حمزة إلى أين كانت غيبته عن صحابه وكيف لم يودعهم، وتلك حقيقة ما وقع فقد خر صريعا في معركة الإيمان، إلا أنه لا ينسى ما بينه وبين الرسول ﷺ من قربى فإلتفت إليه قائلا:

يا رسول الله هذا حمزة أترى عيناك منه المصرعا؟
إنه عمك فانظر بطه كيف شقوه، وعاثوا في المعى؟
كبد الفارس، ماذا فعلت؟ أين طاحت من قضى أن تنزعا؟

ثم يلتفت إلى هند ويذكر كيف أنها نذرت لتلوكن كبد حمزة ولتمثلن به أبشع تمثيل، ولقد فعلت، كما أنها جدعت أنفه وقطعت أذنيه وجعلت من ذلك ما يشبه السوار في يديها. وقلائد في عنقها. وبذلك بلغت في قسوتها ووحشيتها المدى، وكانت أسوة لنساء المشركين الذين مثلوا بقتلى المسلمين أبشع تمثيل. ولما خرج ﷺ يتلمس حمزة وجده وقد بقر بطنه ومثل به فلم يكن أوجع لقلبه مما رأى، وقال: "لن أصاب بمثلك، وما وقفت موقفا أغيظ من هذا، رحمة الله عليك كنت فعولا للخيرات. وصولا للرحم"، ثم صلى عليه وعلى إخوانه من الشهداء وأمر بدفنهم.

وهكذا يواكب الشعر التاريخ، ويبدو أحمد محرم شاعرا مؤرخا بكل ما تتسع له الكلمة من معنى. إنه يشبه شعراء الملاحم في الفارسية وفي طليعتهم الفردوسي الذي نظم تاريخ الفرس في ستين ألف بيت من الشعر وكانت منظومته المعروفة بالشاهنامه كتاب أدب وتاريخ في آن. والشاعر يعتمد على الحقيقة التاريخية ويؤيد بها ما يقول من شعر، فقد قيل إن النبي ﷺ رأى فيما يرى النائم كأن بقرا تذبج وفي ذبابة سيفه ثلما، كما رأى أنه أدخل يده في درع حصينة، كما رأى كبشا، فعبر ﷺ هذه الرؤيا أن البقر ناس من أصحابه يقتلون، وأما الثلم في سيفه فرجل من أهل بيته يقتل. وأما الدرع الحصينة فالمدينة، أما الكبش فإنه يقتل كبش القوم وهو (طلحة حامل لواء المشركين).

أما المستفاد من هذه الرؤيا فهو اقترانها وإنباؤها بخطب جليل وقد أومأت إلى ما وقع. ولقد شعر به قلب الرسول الطاهر ﷺ مما يدل على ما له من مرموق الخطر وأن مصرع حمزة حدث له الصدارة بين الأحداث التي ماجت بها غزوة أحد.

والشاعر يحدثنا عما أسلفنا ذكره ولكن الشاعر يستطرد إلى معان أخرى يستمدّها من مصرع حمزة فتد على خاطره قيم الإسلام ومثله، ويهيب بالمؤمنين أن يأخذوا بها ويكونوا على ذكر منها:

مثل القوم به من بعيهم ما نهاهم ديهم أو منعا
ليس للأخلاق إلا دينها يوثر المثلى ويهدى من وعى

وعد الإسلام خيرا من عفا
يا لريب الدهر ما أفدحه
إن حسن العفو مما شرعا
حادثا نكرا ورزءا مفجعا
اذكروا يا قوم من أمجادكم
ما نسيتم رب ذكر نفعنا
وهذه أبيات من الخمس الذى سلف ذكره لا نصبر عن إيرادها لجمال إيقاعها واطراد
أنغامها ونعدها روعة فى وصف معركة أحد.

سيوف محمد أمضى السيوف
إذا هوت الصفوف على الصفوف
وأجلب للمعاطب والحتوف
وَأعرض كل جبار مخوف
مضت ملء الوغى عرضا وطولا

أرى السعدين قد دلفا وهذا
وحمزة جد معترما فماذا
على بالحسام العضب لآذا
ومن للقوم إن أمسوا جذاذا
وطار حماتهم فمضوا فلولاً

وفى الأبطال فتیان رقاق
لهم فى الناهضين لها انطلاق
بأنفسهم إلى الهيجا اشتياق
دعسا داعى الجهاد فما أطاقوا
بدار السلم مشوى أو مقيلا

أعادهم النبى إلى العرين
يضمن بها إلى أجل وحين
شبولاً سوف تصلب بعد لين
رعاك الله من سمع ضنين
يسوس الأمر يكره أن يعولا

وفى هذه الطائفة من الأبيات يبدو الشاعر ملتزما للدقة الدقيقة فى مراعاة وفروع
الأحداث وتسلسلها ويدفع القارئ دفعا إلى مراجعة التاريخ كما راجعه واتكأ إليه واتخذ منه
سندا فى كتابه المنظوم من ألفه إلى يائه.

اتفق لرسول الله ﷺ أن عرض جيشه فوجد فيه من الفتیان من لم يبلغوا الخامسة عشرة،
فردهم وأجاز رافع بن خديج لما قيل إنه يحسن الرماية، كما أجاز فتى آخر قيل إنه كان قويا
صرعه، صارع رافع الذى أجازته النبى ﷺ فغلبه فارتضاه النبى ﷺ مجاهدا مع المسلمين.

وأحمد محرم ينتقل من الخمس إلى غيره فيأتى بسبعة أبيات من قافية واحدة ويختتمها
بشطر وبذلك يدفع عن القارئ ما قد يعتريه من سأم ثم يعود بعد ذلك إلى الخمس، وهذا

يدلل على أنه يقتدر على النظم فى سهولة ويسر ولا يعجزه أن يتناول أنماط الشعر بالتبديل بين الفينة والفينة. ويحضرنا فى هذا المقام أن شعر الملاحم والقصص فى الفارسية والتركية والأوردية يشعرونا بالملل والسأم فى الأحيان لأنه من نمط واحد وبجر واحد. وما أشبه فى ذلك الحديث المعاد والحديث المملول، وشاعرنا يصطنع لنفسه فى كتابه هذا منهجا واضح المعالم، فبعد أن يدور كلامه على الغزوة من الغزوات، يجعل عنوانا لأهم ما وقع فيها يندرج تحته قصيدة. وبذا يميز الأهم من المهم ويفرق بين المطلق والمقيد مما يضيف على كتابه صفة كتاب ذى أبواب وفصول.

وفى طائفة من الآيات تسبق الطائفة الأخيرة يلتفت إلى من حاربوا الله ورسوله ﷺ معبرا بذلك عن المؤمن الموقن الذى يغار على دين الحق.

دعاة اللات والعزى أنيوا	فليس لصائح منكم مجيب
وليس لكم من الحسنى نصيب	لرب الناس داع لا يخيب
ودين الحق يعرفه اللبيب	وما يخفى الصواب ولا يغيب
لواء ليس يحمله عسيب	عليه من مناياكم رقيب

إن التزامه روياء واحدا فى أسطر شعره يكسبه إيقاعا وتنغيما ويجعله شئء بخفقات قلب يعمر بالإسلام يعبر عن نفسه فى حماسة دافقة، إنه لم يشر إلى هزيمة المسلمين فى أحد. فقد اشتد عليه أن يذكر ذلك وأشاح عه كرها كما أنه تحدث فى أكثر من موضع عن نساء المشركين، وفى طليعتهن هند، وما أظهرن من الشماتة بقتلى المسلمين وبين كيف مثل بهم فى قحة وقسوة ووحشية ولعله اكتفى بذكر هذا عن النساء فكان إشارة لائحة إلى هزيمة المؤمنين.

وبعد غزوة أحد نصادف عدة عناوين على قصائد نختار منها قصيدة بعوان محمد رسول الله ﷺ. فهذه القصيدة ليست مدحة وكفى، بل فيها تعريف بالجهاد والمهمة التى اضطلع بها ﷺ وهى متصلة بجهاده وكفاحه فى سبيل إنجاحها وقد أيده الله تعالى بالتوفيق:

هذا إمام الديس فى أعلامه	والدين معتصم بيزس إمامه
يحمى حقيقته بقوة بطشه	ويصون بيضته بجد حسامه
شيخ الجهاد يود كل مجاهد	لو كان يدعى فى الوغى بغلامه

على اللواء يقيمه بحدوده
المصلحون على الزمان سيوفه
عرفوا الجهاد به ومنه تعلموا
هذا مقام محمد فى قومه
الله أرسله طبيبا شافيا
للعالم الوحشى من أسقامه
ويبين المأثور من أحكامه
وجنوده فى حربته وسلامه
ما صرح من دستوره ونظامه
هل لأمريئ فى الدهر مثل مقامه
للعالم الوحشى من أسقامه

والقصيدة طويلة، من الفصاحة فى علو الرتبة، وحسبنا هذه الطائفة من أبياتها المتعلقة بالغزو والجهاد، من حشية أن تغرينا روعتها باختيار أبيات أخرى وبذا نتباعد عن المقام الذى نكتب فيه وهو المغازى. ونتجاوز ما نسميه فصولا من هذا الكتاب على عدة غزوات حتى نبلغ غزوة الخندق.

لما أجلي رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر، وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد، وقد اتفق بنو النضير وأهل خيبر - مع قريش لمحاربة الرسول ﷺ، ووافقت قريش على التحالف بقيادة أبى سفيان. ولما علم الرسول ﷺ بخبرهم شاور أصحابه، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق. وقد استعان النبي ﷺ بأحد المسلمين وهو نعيم بن مسعود ليفرق بين قريش وبين اليهود ويشتت كلمتهم وما كان من تحالفهم، ونجح نعيم فى مهمته^(١).

ومهد أحمد محرم بتقدمة تاريخية نقتطف بعض أبياتها لنلتفت إلى أنه استند إلى كتاب الواقدي بل وأورد فى شعره ما أورد هذا المؤرخ فى كتابه:

نزلوا على الشورى بأمر نبيهم
قال: انظروا، أنقيم أم نمضى معا
يغى لأمته السبيل القويما
نلقى العدو إذا زاد هجوما
فأجابه سلمان: نخفر خندقا
كصنيع فارس فى الحروب قديما
حملوا المساحى والمكاتل ما بهم
أن يحموها أنفسا وجسوما

ثم يذكر ما كان من سلمان الفارسي ويشير إلى قول النبي ﷺ: سلمان ما أهل البيت. ويضيف إلى ذلك قوله إن الدين لا يفرق بين عربى وغير عربى، ويستطرد ليخاطب النبي ﷺ بقوله:

(١) الواقدي: كتاب المعارى ص ٤٤٠ ح ٢ (اكسمورد ١٩٦٦م)

اضرب رسول الله كم من صخرة
من ليس يبلغ من جابرة القوى
بشر جنودك بالفتوح ثلاثة
وصف المدائن والقصور لمعشر
أبصرتها في نور ربك، ما رأت
عينك آفاقا لها ونحوها
لم تألها صدعا ولا تحطيمها
ما أنت بالغه، فليس ملوما
تدع العزيز من العروش هضيمها
مثلتها صورا لهم ورسوما
عينك آفاقا لها ونحوها

إنه يذكر ما روى عنه عليه السلام من أنه رأى قصور فارس وعرف أن الله سوف يفتح فارس على يد المسلمين، ويقول التاريخ كذلك إن كسرى أمر رجلين من اليمن بالرحيل إلى النبي ﷺ ليأتياه به فكان من قوله ﷺ: إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي الخف والحافر^(١).

وعلى هذا النحو تتداعى أفكار أحمد محرم فهو لا يغفل قط عن ذكر الحقيقة التاريخية ويوردها مؤرخا شارحا وليس هذا تباعدا منه عن المقام، بل على النقيض من ذلك هذا أوجب ما يكون لكشف الغامض وإضافة مزيد من معارف يخرج بها القارئ وقد تحصل له منها علم غزير وخير كثير.

ويتابع الشاعر كلامه مؤرخا شاعرا تحت عنوان "بعد حفر الخندق" ويذكر ما وقع من أحداث ساهم فيها أعلام من المسلمين ومن المشركين ويشير إلى وقوع القتال بين الفريقين بعد أن غدر اليهود الذين آزرُوا المشركين ومزقوا الميثاق بينهم وهو صحيفة.

إنه يتهمهم بالمشركين ويذري بأصنامهم وبذلك يشبه بعد التشبه حسان بن ثابت في مواجهته لهم بالرد عليهم وتسفيه أحلامهم والغض من شأنهم، إنه بمثل هذا يكمل ما بدأ حسان أو يؤبده، ولكن على التفصيل، ويضرب على قلبه ولكن في توسع. إنه أطول منه نفسا ولا عجب فهو صاحب كتاب مبوب مفصل يؤرخ فيه مغارى الرسول ﷺ، أما حسان فهو يقول شعره بمقتضى الضرورة ويرصد كل ما يستوجب منه أن يكون منافحا بلسانه عن سيد المرسلين ﷺ.

يقول الشاعر:

مضت السيوف، وولت الأرباب
فإلى الهزيمة أيها الأحزاب

(١) اس الأثير: الكامل ص ٨١ ح ٢ (القاهرة).

لا اللات نافعة ولا أخواتها كل بلاء واقع وعذاب
لا بوركت تلك السيوف، فإنها لتصيب من أعدائها فتصاب
كل الذى نلتهم ونالت من دم عطب يتاح لكم معا وتباب

وأحمد محرم يحرص الحرص كله على الإيضاح فى كلامه فيمهد بسطور قبل ما يورد من شعر ليفسر ما سوف يقول فى حدث معين، ويستعين على ذلك بذكر أسماء الرجال، وقد يكثر من ذكر الأسماء إلى حد أن يجد القارئ نفسه أمام أحداث يموج بها التاريخ، ويخيل إليه أنه قبالة مؤرخ يتخذ من الشعر أسلوب تعبير. إن الأحداث فى كلامه تمر سريعا وهذا ما يجعل الطابع التاريخي أغلب على كلامه من الطابع الفنى.

ويذكر على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وهو الذى يسميه الفرس فارس الإسلام والحاجة تنس إلى تبيان ما وقع لعلى فى حومة القتال.

اتفق أن من يسمى عمرو بن عبد ود أقبل فى جماعة من أهل الشرك، اقتحموا الخندق بخيولهم، وكان عمرو شيخا بلغ من الكبر عتيا فصاح فيهم قائلا: من يبارز؟ كما أنه جعل يهزأ بالمسلمين ويقول لهم: أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ ورفع عقيرته بأعلى صيحة يقول فيها:

ولقد مجحت من النداء بجمعكم، هل من مبارز؟
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقام إليه على بن أبى طالب وضربه بسيفه على حبل عاتقه فخر صريعا، وكبر المسلمون وقال فى ذلك أحمد محرم:

دفعوا الجياد، وصاح عمرو صيحة هاج الهزبر لها، وماج الغاب
شيخ قضى فى الغالبين لنفسه فقضى عليه الأشوس الغلاب
عمرو خذها من على ضربة هى إن سألت عن الجحيم جواب

وكان الظن بالشاعر أن يطيل شيئا ما فى وصف على بنجدته وبسالته من حيث كونه خواض غمرات وليث كريهة. ولكن ربما أعجل الشاعر عن قول ما كان حربا بقوله فى هذا المقام بحرصه الملحوظ على تنوع الأحداث وهى تتوالى كموج البحر فما أشار إلى على كرم الله وجهه إلا إشارة لائحة وفى لحظة دالة.

وهنا مجال المقارنة بين هؤلاء الشعراء المحدثين البارودى وشوقى وأحمد محرم، فقد تواردوا ثلاثتهم على صنيع متقارب.

ولكلامنا أن يدور على البارودى الذى انفرد عن صاحبيه بأنه أعلى فى جهاره أن الذى حداه على نظم مدحته العصماء إنما هو رغبته فى أن يجعلها زاد المعاد ويحملها فى أخراه على أنها ما عمل من صالح فى دنياه.

ومما يتأكد به هذا من عزمه أنه ذكر ذلك فى سطور على حدة فى نثر لم يحاول فيه البلاغة، وما ارتكن إلى تزويق ولا تنميق، وكأننا به أراد أن يجلى الحقيقة ولم يرتض أن يعبر عنها فى صدر شعره من خشية أن يصرف الشعر بكنائياته واستعاراته والخيال الذى يكون من الممكن أو المحال ولذلك صد عن هذا كله على غير ما كان المتوقع منه.

وهذا ما لم نجده عند شوقى، فنحن لا نعلم عن شوقى أنه خطر له مثل هذا التفكير ولا انعقد له مثل هذا العزم، بل شاء شوقى أن يساجل البوصيرى وكفى، وإن كان ذلك لا ينفى عنه أنه جاء بالمعجب المطرب. وشوقى لم يقصد أن يكون مؤرخا ينقل عن أوسط كتاب فى السيرة النبوية وهو سيرة ابن هشام. أما أحمد محرم فما كان مداحا كالبارودى وشوقى وإنما كانت له صفة المؤرخ بارزة لا شك فيها وإن كنا نتحفظ بعض الشيء إنصافا للحق فنقول إن شوقى نظم قصيدته تذكارا لحج الخديوى عباس حلمى الثانى، ولا عجب فهو شاعر القصر وشاعر مصر، فهو من يسارع إلى تحين كل مناسبة يقول فيها شعرا، فنظمه للقصيدة مما يستوحه منصبه أولا وبالذات وهو يصرح بذلك فى تقديمها قائلا: (رأى الله لهذا العبد الخاضع، شاعر بيتك الكريم، أن يمشى بنور العلم الفرد المغفور له البوصيرى صاحب القصيدة الشهيرة البردة، فنظمت هذه القصيدة التى أسأل الله وأرجو من رسوله قبولها، وحعلتها با مولاي لحجتك المبرورة تذكارا^(١)).

ومن أعجب العجب بما أوردناه من قوله عن نظم قصيدته أنه يؤيدنا فيما ذهبنا إليه وحكمنا به حتى قبل أن نطلع على كلمته، كما أن شوقى يقدم قصيدته إلى مولاه العاهل على حين قدمها البارودى إلى الله، وستان بين تقديم شوقى وتقديم البارودى، وبلغت إلى

(١) د نفوسة ركريا سعيد البارودى، حياته وشعره، ص ٢٢٣ (الإسكندرية ١٩٩٢م)

أحمد محرم فلا نجده مداحا للنبي في المقام الأول، وإنما مؤرخا لمجد الإسلام، وإنما قدم كتابه ديوان مجد الإسلام إلى الشباب مذكرا بما كان للإسلام من عز تالد في الزمان الخالي. وترتب على طول قصيدة البارودي أن اضطر إلى إيراد ألفاظ غريبة غير مأنوسة كأنما نقب عنها في المعاجم، وليس الشأن كذلك عند شوقي. وأحمد محرم كتابه سلسلة من القصائد وهو إذا بدأ بمطلع قافيته ضيقة يضطر إلى الاستمرار فيها إلى بقية القصيدة وإن كان ذلك لا يقع في كل ما أورد في كتابه من قصائد.

وأيا ما كان فهو لاء الشعراء الثلاثة فيما نظموا يتكاملون في اجتماعهم على ما كان من صنيعهم.

أما ذكرهم لغزوات الرسول ﷺ وهو لب لباب ما يعيننا في هذا الصدد فنجد أن البارودي ذكر الغزوات مؤرخا لأنه صرح بأنه يضرب على قالب ابن هشام وإن كان يضيف من عندياته ما عن له من أفكار يضمنها كلامه، أما شوقي فاقتصر على أن يقف من الرسول ﷺ موقف المدافع المنافع وحصر كلامه في دفع مفتريات وأراجيف الملاحد، وكان هذا منه قصاره فما أرخ ولا عين غزوات بأسمائها ولا أبان عما وقع فيها.

ولكن أحمد محرم يبسط مفصل الكلام في ذكرها ويعقب في الأحايين برأى يدلى به مستطردا من الجزئيات إلى الكليات، وله نزعة تعليمية، أي أنه يتلمس موضع العبرة في الغزوات ليطلع الشباب على ما يريد أن يحثهم عليه ويحيطهم علما به من شأن الإسلام وقيمه ومثله التي يستحب لهم أن يقفوا عند حدودها ويأخذوا بها في حاضرتهم كما أخذ بها سلفهم الصالح في ماضيهم فصلحت بها أمورهم واستقامت في دنياهم وأخراهم وسادوا وشادوا ومكن الله لهم في الأرض ولما ساروا في نبراس دينهم القويم رضى الله عنهم كما رضوا عنه فكانوا من المفلحين وأتم الله نعمته عليهم فهدوا غيرهم من الأمم وخرجوا بهم من ظلمة الجهالة إلى نور الهداية.

الباب الثانى

الغزوات فى الشعر التركى

الغزوات فى الشعر التركى القديم

عرفنا فيما سبق، إلى أى حد كبير كان تعلق العثمانيين بمحبة رسول الإسلام ﷺ وكانت حجتنا أن سليمان جلى نظم المولد وأمسى المولد ربحانة العثمانيين منذ نظمه إلى يومنا هذا يتبركون بتلاوته فى مناسبات رسمية وغير رسمية، كما أن الشعراء بعد سليمان جلى أقبل كثير منهم على نظم مولد تأسيساً به.

ورأينا فى هذا أمانة لا شك فيها على حب الأتراك العثمانيين لسيد المرسلين حباً لا يبرح عن الحقيقة إذا قلنا إنه يبدو أكثر من حب غيرهم من المسلمين له.

ونرى من الخير فى هذا المقام أن نورد تكملة لما ذهبنا إليه وحكمنا به فنقرن حب بعض سلاطين العثمانيين بحب رعاياهم للرسول الكريم ﷺ لأن هذا فيه تأكيد وتوكيد للواقع.

فلما فتح الله القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح اتفق أن دعا ولياً من أعظم الأولياء يسمى آق شمس الدين إلى مجالسته ذات ليلة، وبعد الصلاة قال له إنه قرأ فى الكتب أن قبر أبى أيوب الأنصارى الصحابى مضيف النبى ﷺ فى تلك المدينة. ورغب إليه أن يدلّه على موضعه. فقال: "يا مولاي إني آنس نورا يهبط على بقعة من الأرض، وأحسب أن هذه البقعة موضع قبره رضى الله عنه".

وبعد مدة من الزمن قال للسلطان إنه التقى بروح أبى أيوب الأنصارى التى زفت إليه التهنية بفتح القسطنطينية، فما كان من السلطان إلا أن وقع الخشوع فى قلبه وانطلق مع الشيخ إلى موضع القبر، وطلب تعيينه ليقيم عليه ضريحاً. ولما كان البدء فى الكشف عن القبر عرف السلطان هزة طرب وراح فى نشوة حاملة فما كاد يتماسك فى وقفته، وأمر بإقامة ضريح لمضيف الرسول ﷺ، وبنى فى تلك البقعة مسجداً^(١).

ولهذا المسجد منزلة عظيمة فى نفوس الترك وحسبنا أن نقول إن سلاطين العثمانيين يتوحدون فى هذا المسجد^(٢) ولا يسكن هذا الحى إلا دراويش بلغت منهم الشيخوخة وحراس المقابر، وهذا المسجد لا يزوره إلا مسلم وظل الأمر كذلك إلى وقت غير بعيد^(٣).

(١) طاشكبرى راده الشقائق العمانية على هامش وميات الأعيان لاس حلكان ص ٣٤٦ ح ١ (القاهرة ١٢٩٩هـ).

(2) Loti: Azıyade PP 49 (Panise).

(3) Monree: Turkey and Turksn. P176 (London).

وللترك عادة مرعية مألوفة هي أن يفرضوا على صغارهم أول عهدهم بالتعليم أن يمضوا إلى قبر أبي أيوب لزيارته. وهناك يلتمسون البركات والرحمات رافعين أكف الدعاء. ولهم عادة أخرى مع صغارهم تتعلق مع أبي أيوب فإذا عقدوا العزم على ختانهم حمولهم معهم لزيارة قبره^(١).

فهذا كله فيه قاطع الدلالة على سمو منزلة هذا الصحابي الجليل عند الترك، سلاطينهم ورعيته. وليس بخاف أن هذه المنزلة إنما كانت لهذا الصحابي لأنه كان مضيف النبي ﷺ فكانها لم تكن لستخصه أولاً وبالذات، بل لصلته بنبي الهدى عليه الصلاة والسلام. ولقد نظم شاعر منظومة طويلة بعنوان "مناقب أبي أيوب الأنصاري" كما نظمت إحدى الأميرات منظومة أخرى فيها ما فيها من تمجيد لهذا الصحابي وإعلاء من شأنه. ويمضى بنا مقتضى السياق إلى ما فيه تعزيز لما نريد أن ندلل عليه من شأن هذا الصحابي واعتزاز الأتراك العثمانيين سلاطينهم ورعاياهم بهذا الصحابي الجليل لوثاقة صلته بالنبي ﷺ.

يقول التاريخ إن السلطان أحمد الثالث المتوفى عام ١٧٣٠م حينما أقام جامعة نمت إلى علمه أن حجراً عليه أثر قدم النبي ﷺ في ضريح السلطان المملوكي قايتباي في مصر، وقال له قائل إن هذا الأثر النفيس وجد من قبل عند العرب وهو أليق وأحق ما يكون بجامعة. وكان لهذا من قوله أعمق الأثر في نفس السلطان، فما صبر أن أرسل من يسمى مراد الرئيس إلى وزير مصر، يطلب إليه إرسال هذا الحجر. ولما حاولوا رفع حجر هذا الأثر من ضريح قايتباي عصفت ريح عاتية، وقصفت الرعد وخطف البرق، فانصرفوا عنه دون أن يحملوه، وعرف السلطان ما وقع، فأصدر أمراً خاصاً مع أحد رجاله الذين تلووا سورة الأنعام ألف مرة في ضريح قايتباي. واستطاع مراد الرئيس أن يحمل الحجر إلى الإسكندرية. وبعد سبعة أشهر بلغ الخبر السلطان بوصول هذا الحجر الذي يحمل الأثر فأمر بإرساله إلى جامع أبي أيوب الأنصاري في القسطنطينية وذلك في موكب عظيم من الجند. وما عرف أهل القسطنطينية ذلك حتى قاموا في مطلع الفجر رحالاً ورساءً وصغاراً وكباراً لاستقبال الحجر وانطلق السلطان أحمد إلى جامع أبي أيوب في موكب عظيم ومسح بوجهه أثر قدم النبي ﷺ في ذلك الحجر.

(1) Oguir Eyyurb Sultan S.217 (Istanbul 1957)

كما وضع الحجر على رأسه. وقال هذا البيت: (ما ضر لو جعلت على رأسى كالتاج على الدوام، أثر قدم النبي خير الأنام).

ثم حمله فى موكب كأنه البحر وسلمه نقيب الإشراف.
ولما دخل به القسطنطينية صاح الناس جميعاً من قلب واحد وفى صوت واحد قائلين: شفاعة يا رسول الله^(١).

هذا من موقف الأتراك العثمانيين من النبي ﷺ لا شك يفضى بنا إلى النظر فيما قال شعراؤهم خاصاً بسيد المرسلين، وليس من تجاوز الحد قولنا إنهم فى هذا من شأنهم يتقدمون خطوات من غيرهم من المسلمين فى الظن الأغلب.

وأول من نذكر من شعرائهم القدامى الذين اختصوا بذكر المغازى، يازيچى أوغلو محمد المتوفى عام ١٤٥١م وهو صاحب منظومة لها واسع من شهرتها تسمى (المحمدية)، وهى لها شهرتها عند من يداوم على تلاوتها من أهل الأناضول والقرم وقازان وغيرها. وهى طويلة تقع فى قريب من تسعة آلاف ومائة وتسعة عشر بيتاً.

ويازيچى أوغلو هذا من أهل الطريقة البيرامية قضى الشطر الأكبر من عمره فى (غالبولى) وقد نظم الشعر التركى فى شتى فنونه وأنماطه^(٢).

ويقال عنه إنه كان متضلعا فى شتى علوم الظاهر والباطن، ومن الدليل على شعبية منظومة الحمدية أن شاعرا من شعراء الترك الحديثين هو يحيى كمال كانت أمه تقرأ له من كتاب (المحمدية) فى صغره فكان للمحمدية عميق أثرها فى توجيهه الفكرى بعد أن أصبح شاعرا من شعراء الطليعة^(٣).

ومن تأثر شعراء الترك بها ما قيل من أن الشاعر حمدى المتوفى عام ١٥٠٨ للميلاد له منظومة بعنوان (أحمدية).

ولشاعر آخر يسمى خاقانى المتوفى ١٦٠٦م منظومة بعنوان (حلية خاقانى) يتلو فيها تلو ما جاء فى الحمدية.

ومن ثم نلاحظ أن هذه الحمدية أوجدت فنا خاصا من فنون الشعر طرقة أكثر من شاعر وذلك لأن موضوعه محبب إلى الترك المتقين على تفاوت طبقاتهم.

(1) Evliye Colebi, Mısır Seyaha Tnamesı. S. S 296-267 Cilt. 9. (İstanbul 1938).

(2) Kemelkaralioglu Resimli Tunk Edebiyacılar sozlugu. S. 618 TsTanbul 1982.

(3) Nı had Samı Banrılı Resimli Turk edebiyat. Tarihi C.III S. 179 İstanbul 1971

هذه الحمديّة على نسق المولد، والمولد منظومة فيها سرد للسيرة النبوية العطرة مع تعبير المسلم عن عاطفة المحبة نحوه. وقد تحركت همته إلى نظمها بناء على ما اطلع عليه في كتب السيرة النبوية أو لرؤيا رآها.

تبدأ الحمديّة بالديباجة التقليدية وهي التوحيد ثم النعت، والسبب الذي حدا بالشاعر إلى تأليف الكتاب، والكلام بعد ذلك في ذكر الخليقة منذ فجر الدهر مروراً بالأنبياء الكرام، حتى يبلغ سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ. وهو يذكر ولادته ويجري عليه صفاته كما يصف معجزة وهجرته ومعجزاته وبذلك يكون هذا القدر مما جاء في الحمديّة أشبه بشيء بسيرة نبوية منظومة، وهو في كلامه يعرج على ذكر زوجات الرسول ﷺ وبعض أصحابه وكل ما يتصل بذلك من طرف، مما يجعل الكتاب متصفاً بكتب السيرة، ويمكن أن نتصور الحمديّة قائمة على ثلاثة محاور هي (الخلق، والنبي ﷺ، والقيامة) وهذا ما يجعلها سيرة نبوية ولكن مع فارق هو الرغبة في بسط القول تفصيلاً أو أن رغبة الشاعر في نظم سيرة الرسول ﷺ بعثته على أن يصدر هذه السيرة بتاريخ الخلق ويختتمها بذكر القيامة.

ويحذر بالملاحظة أن الشاعر كشعراء زمانه يميل إلى التكلف في التعبير، كما أن منظومته من أوزان وأنماط شعرية مختلفة، فهو مثلاً لا ينظم سيرة النبي ﷺ في بحر واحد هو بحر الرمل كما صنع سليمان جليبي في مولده وكأنما شاء أن يكون كلامه كلاماً لا يسأم المتلقى من النظر فيه، وإن كان ذلك خروجاً على مألوف شعراء التركية والفارسية والأوردية الذين كانت منظوماتهم في هذا الفن بالغة ما بلغت من طولها في بحر واحد.

وشعره من الشعر التركي التقليدي الذي تزدحم فيه الألفاظ الفارسية والعربية كما أنه من معانيه ما يستغرق وإن كان ذلك لم يمنع الحمديّة من تدريسها في المدارس. وتلك دلائل يقينية على فرط الاهتمام والاعتزاز بها من قبل الترك للموضوع الذي نظمت فيه، ومما يذكر أنها تتلى كما يتلى مولد سليمان جليبي تبركاً ونيمناً كما يحتفظ بها في كثير من بيوت الترك على أنها كتاب دين لا بد أن يكون في البيت لأن وجوده فيه يجلب البركات والرحمات، ومن الشعراء الذين قلدوها من قلدوا حتى عنواها فكانت منظوماتهم تحمل اسم أحمديّة، محمودية، ومحمدية⁽¹⁾.

(1) Nı had Samı Banlır Resimli Türk edebiyat. Tarih C III S 179 İstanbul 1971.

ونحن في هذا المقام إنما يعيننا منها ما جاء عن غزوات الرسول ﷺ وما أجدر أن تستأثر هذه الغزوات بنظرة فيها وعناية بها. إنه يعقد فصلاً خاصاً بها قائماً برأسه. وهذا الفصل كبير لأنه مخطوطة المحمدية التي تكرم الأستاذ سعد أبو بكر مدير مكتبة السليمانية باسطنبول بإهداء صورة مخطوطة منها إلى. هذا الفصل يقع في ثلاث وعشرين ورقة. وقد مهد بقوله: (ألق سمعا، يا طول ما فتح الدنيا هذا الرسول، بعد فتحه بحجته فتح بالسيف المسلول. إنه الدين على العالمين أعلن، فكأنما أظهر نورا في السحاب، عشرين مرة غزا الكفار، في ست وخمسين حرب سحقهم بصحبه الأبرار. في تسع بنفسه على القتال أقدم، وفي بدر هزم العدو حطم. في أحد قاتل ولكن أعنف قتال، وفي الخندق إياه رب من عدوه أдал. الرابعة بنو قريظة الخامسة بنو المصطلق، والسادسة خيبر، وفيها إلى عدوه انطلق. والسابعة فتح مكة وفي الثامنة كان له الغلاب، وفيها أحال الكفار إلى كومة من تراب. والتاسعة الطائف وبها في القتال ساهم، وفي التسع حومة الوغى اقتحم)^(١).

في هذه الطائفة من الأبيات التي يوردها في صدر ما يذكر عن المغازي يبدو هذا الشاعر تعليمي النزعة، أي أن غاية مطلوبه منها نزعة تعليمية يحرص كل الحرص عليها، فإنه يبدأ بقوله (ألق سمعا) يرسم لنا صورة لمعلم يريد بمن يعلمه أن يتعلمه منه ما لم يكن يعلم، إنه يجتذبه إلى كلامه الذي يرغب أن يتلقاه منه ويعيه عنه.

(١) دكله ايمدى نيحه فتح ايتدى جهاي أول رسول	حجتيه صكره سيميه بيحه فتح ايتدى سات
بيحه اظهار ايتدى ديبى عالمه اظهار ايدوب	بيحه اشراق ايتدى اسلامى احوب نورون سحاب
كندورى ايتدى يكرمى بش عز كفار ايله	اللى التى كر جري كوندردى ايتديلر خراب
ايتمه ميشيدى قتال الاطقوز برده همين	أولى بدر ايدىكم كسديلر نده حوق رقاب
هم ايكنجيسى أحد ديكم قتال ايتدى قتى	ثالثنحى خندق ايتدى ايتدى انده اكتساب
رانعى ننى قريظه مصطلق شججيسى	ساد سحى حير ايتدى كله ايلدى أكاهاب
سابعنحى فتح مكة سكرنجيسى حين	كم صدى كفارى انده براوح صيحدى تراب
طقوزنجى طائف ايتدى ايلدى انده عزاء	بوطقوز يبرده قتاله ايلمشدى انحداب

(يارنجى أوعلو، محمديه نام كتابى، ورقة ١٤٧ (مخطوط مكتبة السليمانية باسطنبول)

إنه لا يريد تحسين الكلام ولا التأنيق فيه. بل حسبه أن يسمى الغزوات بأسمائها ويذكرها بترتيبها وذلك لترسخ في حفظ من يجلس منه مجلس التلميذ أو من يظفر في كلامه وشأنه شأن التلميذ. إن يازيجي أوغلو يذكروا بمثل هذا من صنيعه بالكثير من شعراء التركية والفارسية الذين نظموا المطولات في شتى العلوم كالتنحوي، والتصوف وغيرهما وكان غرضهم تعليميا أو تربويا عضا. لذا خلا كلهم من المحسنات وكان حسبهم حشد المعلومات وإن كنا لا ننكر أنه حاول البلاغة شيئا ما كان يشبه نور الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ العالمين قاطبة بنور البرق إذا خطف في الظلماء. إنه يحرص على الإحصاء والتحديد والتقيد وهذا ما يفرغ على كلامه ذلك الطابع العلمي الذي نشاهده فيه.

ويمتد به السياق إلى قوله إن الرواة حكوا قالوا إن السبب في هذه الغزوة أن حمزة كان ذات يوم سائرا إذ مر به ثلاثة من أهل الشرك وما رأوه حتى بسطوا فيه لسانهم بالثلب والسب، فما كان منه إلا أن استل سيفه وأعمله في ثلاثتهم وقفل راجعا إلى النبي ﷺ وما مسه من ضرر، وما علمت قريش بهذا حتى دخلها شديد الغضب وعزمت على قتال المسلمين.

إن يازيجي أوغلو مؤرخ راوية ينقل عن الرواة ولا يتقل كلامه بشيء من عندياته بل يورد الحقيقة بتمامها. ثم يدخل في التفصيل ويحكى ما وقع كأنما يقص قصة أو يروي خبرا لا يريد أن يحزم منه حرفا واحدا فيقول: إن جبريل عليه السلام نزل على الرسول ﷺ وخبره خبرا هو أن قافلة لقريش عادت من الشام وهو ينبه طالبا إليه أن يأخذ لذلك حذره ويهيئ أمره. ثم ذكر أنه ﷺ خرج في ثلاثمائة من رجاله وثلاثة عشر من صحابته وهذا يرشد إلى أنه يلتزم الدقة كل الدقة في كل ما يذكر، وكأننا به لا يريد إلا حذافير الحقيقة.

ومعلوم أن هذه الصفة التي يستوجبها لكلامه لا تتيح له أن يورد مجازا حتى ولو لتفسير الحقائق. ثم يتحدث عن جبريل ثانية وما يخبره به ويرشده إليه وجبريل في هذا من قوله يسبغ عليه طابعا دينيا ويؤيد أن النبي ﷺ إنما يعمل بناء على ما يوحى إليه إيماء. وفي مثل هذا جمال معنوي خاص بالروح وليس جمالا حسيا تراه العين.

كما يعقب بعد ذلك على ما جرى بينه وبين أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والأنصار مما يستبين منه أن النبي ﷺ كان كذلك يسترشد برأى أصحابه ولا يقطع بأمر دونهم

ولا عجب. فقد قال له المولى عز وجل ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ . إننا نشعر بشيء من السأم أو نكاد لهذا التفصيل، مما يدفعنا دفعا إلى الرغبة فى الوقوف على قدرة الشاعر على رسم صور بيانية رائعة للمعركة، تلك المعركة التى لها ما لها من مكانتها وأهميتها.. والشاعر كغيره من شعراء الترك القدامى يتكئ إلى خلفية إسلامية دينية أساسها آيات الذكر الحكيم مستمدا منها حجية لا تحتل من شك ولا تأويل وهو يتخذ عنوانا من آية قرآنية هى قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ .

إنه يبين بها كيف أن النبى ﷺ استغاث ربه فى تلك الشدة فأمده بروح من عنده واستجاب دعاءه لأنه وجد نفسه أمام عدو لا طاقة له به؛ ففتته كثيرة، أما فئة النبى ﷺ فقليلة وهنا تظهر المعجزة وتتدخل القدرة الإلهية ويمده الله بملائكة فى صورة بشر ليشد بهم أزره فى القتال والنضال، وبذلك يبدو التفاف يازيجى أوغلو إلى جمال الروحانية والمعجزة التى لا يدرك المرء كنهها ولا يسعه إلا أن يقف منها موقف الحيرة والعجب.

وهذا الشاعر يكاد ينفرد بهذا الشعور نحو الغزوات لأن غيره لم يلتفت جديا إلى ذلك الملحظ. وهذا ما يؤيد أنه فى منظومته تلك يتلو تلو من ينظمون المولد أى أن ما يذكره الشعراء فى المولد ليس مجرد سرد تاريخى للسيرة النبوية وإنما يقرنون ذلك بشعور الشاعر نحو نبى الإسلام ﷺ فهم يناحونه ويرغبون إليه فى الشفاعة وما إلى ذلك من تعبير عن عاطفة نحوه وهذا من قبيل تلك الروحانية التى نجدتها عند يازيجى أوغلو. تم يتحدث عن الملائكة التى أرسلها الله تعالى ليشدوا أزر المسلمين فى هذه المعركة ويسميهم بأسمائهم، كأن يذكر جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل وذكر عدد الملائكة الذين يأتى بهم هؤلاء معهم ليشتركوا فى القتال. وبعد أن بين فى وضوح أن الملائكة كان لهم النصيب الأوفى فى معركة بدر وأن نصر المسلمين فيها كان بفضل الله الذى سخرهم لنصرة المسلمين، وبين أن المسلمين كانوا على الدوام يرفعون أكفهم إلى الله راجين منه أن ينصرهم أخذ فى وصف معركة بدر على التفصيل وأكثر ما ذكر من قتلوا من المسلمين ومن المشركين، وهو يشبه غيره ممن نظموا فى هذا الصدد وعين الأسماء. إلا أنه يبدو معجلا فى وصفهم، فهو يصفهم ويصف قتالهم وقلما يقف وقفة ليعرضهم مقاتلين فى صور شعرية معجبة.

إنه يجرى دعاء بالنصر على لسانه ﷺ يعقب عليه باستجابة الله له فيقول: رياه أنت المقصود بالسؤال فى كل أمر، وفى يد قدرتك الفلك والجنة كما البشر. ما كان لأمر من صنع، وليس لعلمك قط من جمع.

ثم قال له ذو الجلال أنا في عونك لا أزال. بالنصر زف البشرى إلى المؤمنين، فقد ألقيت الرعب منك في قلوب الكافرين. من الكافرين عليك تضريب الأعناق، ولا تأمنهم منك على هامة ولا على ساق. ذلك جزاء وفاق لك من ناصب الله العدا، ومن أراد برسوله إيذاء^(١).

في هذه الأبيات يقصد الشاعر إلى المعنى ولا يلتفت ولا يكاد إلى اللفظ، إنه يريد ليؤكد أن النصر في هذه الغزوة من عند الله، فبعد أن ذكر أن الله أنزل عليه الملائكة ليحاربوا المشركين معه شاء أن يبين موقفه ﷺ على أنه ليس المحارب البادئ بالعدوان بل المحارب الذي يمثل لأمر الله، وهذا ملحظ لم يفتن إليه أحد ممن وصفوا المغازي في شعر لهم. إن الله يبيّن له أن قتال المشركين حتم عليه لأنه جزاؤهم ولا جزاء غيره لمن كره دين الحق ومن أراد السوء برسول الله ﷺ ويدخل بعد ذلك على وصف المعركة تدور رحاها إلا أنه يكثر من الحوار بين الفريقين طلباً للبراز.

ويمتد به الكلام في هذا الصدد طويلاً، ومما يلحظ أنه يريد كلاماً يأخذ بعض المقاتلين من المؤمنين بأطرافه بينهم وهو ينطقهم مريداً الإغصام ببسالتهم ويجعل كلا منهم يذهب بنفسه مباهياً بأنه ليث الكريهة وخواض الغمرات كأن يجري على لسان حمزة قوله: إن حمزة قدم وقال: أنا أسد الله، ولقد أصبحت كذلك أسد رسول الله ﷺ. وهذا دليل صدق على أنه أراد لحمزة أعظم صفة تجرى على بئس شجاع، إلا أنه ينسب شجاعته إلى الله بقلوبهم قبل أن يتجهوا إلى المشركين بسيوفهم، فحربهم حرب إيمان قبل أن تكون حرب عدوان كما ينص على أسماء المجاهدين. فيجمع أسماءهم في بيت واحد كعلى وعبيدة وحمزة مما

الكده ولك جس وأنس وملك

سكك علمي كيمسه جامم دكل

كه بن سيره ياردم ايدم لا يرال

هم القا ايدم حوقى بي ديلره

امان وبرميوب ناشي ساقى

رسولينه حقك شقاوت ايدمه

(١) الهى سكدر هرايشده ديلك

سكك حككه كيمسه ماع دكل

بس امر ايلدى بوللره ذو الحلالك

شارت قيك نصرى مؤملره

أورك كاف لرك اعماقى

كيم اللهه هر كيم عداوت ايدمه

يجعلهم على مقصد واحد وهو مجاهدة أعداء الدين ليظفروا بالجزء الأوفى والأجر العظيم عند رب العالمين.

ثم يصف القتال وصفا ولا يصوره تصويرا أو على التوضيح والتقريب لا يقيم كلامه شيئا على غير ما كان متوقعا من شاعر مثله في مثل هذا المقام، فالعهد بشعراء العرب وائفرس والترك أنهم يعرضون صورا للمقاتلين يضيفون إليها جهد المستطاع كل ما في جعبتهم من البديع حتى إنهم إذا أرادوا تفسير الحقيقة بالجهاز لا يبدون مكرتين بهذه الحقيقة بقدر أكثراتهم بالجهاز. فالمعارك في شعرهم صور كثير. الحركات متباعدة الشيات. وهي بذلك تتضمن معنى خصيبا للبلاغة فيازيحي أوغلو يتفرد بالأصالة والبساطة في وصف المعارك ولا يقول إلا ما يرى رأى العين.

ويمضي في الكلام ويكثر من قوله قال فلان ولم يقل فلان إلى أن يذكر كيف أن حبريل أمر من أمره بأخذ حفنة من التراب ليقذفها في وجه العدو فتورده موارد الهلكة فكأنه يعود إلى النص على أن الملائكة حاربوا مع المجاهدين كتفا إلى كتف وبذلك يميز غزوة بدر بأخص خصائصها وهو يؤيد ذلك بالآية الكريمة التي يقول فيها عز من قائل: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وما يسترعى النظر أنه بعد أن أورد تلك الآية الكريمة ترجم معانيها إلى شعر تركي ترجمة صحيحة وكأنما أراد يازيحي أوغلو في نزعه التعليمية التي تعرف عنه أن يبين للناس على تفاوتهم في طبقاتهم وحظهم في علمهم معنى تلك الآية الكريمة وبذلك يكشف النقاب عن معناها ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ويؤكد لهم أن الله إنما نصر المؤمنين على الكافرين لأنه أمدده بمجند من عده.

أما غزوة أحد فيازيحي فيها يطلعنا منه على المؤرخ من الأحداث لأنه يذكرها لا ينقص منها ولا يزيد عليها ولا يحاول أن يعرضها في صور بيانية فقد ذكر أن ثلاثين من الصحابة استشهدوا أمام الرسول ﷺ ومنهم مصعب بن عمير، ثم ذكر أن من يسمى عبد الله وهو قاتل مصعب رمى النبي بحجر كسر ثنيتته وأذاع في الناس أنه قتله مما أوقع البلبلة في الصحابة بعد أن انطلت عليهم الحيلة وقالوا ما عسنا أن نصنع وقدم كعب بن مالك ووحيد ﷺ جالسا وما رآه حتى انطلق إلى المسلمين وقال أبشروا فإبي وجدته ﷺ حيا. وبذلك عادت الحماسة إلى الصحابة وتحركت فيهم الهمم للقتال. ومسحوا الدم عن وجهه الشريف ورغب إليه الصحابة أن يدعو على من آذوه لأنهم أرادوا به الشر والسوء ولكنه ﷺ قال:

"إنما ارسلنى الحق للعالمين رحمة. فيارب اهد هذه الأمة. منك الهداية إنهم لا يعلمون، بفضل مك يهتدون. فتأملوا أى لطف وأى كرم، فقد أراد الجاهلون قتله ودسوا له السم. إنه دعا لهم بخير وأحسن العفو عنهم، هذا من محاسن الشيم"^(١).

وهنا يورد يازيجى اوغلو ذكر الحدث على التفصيل، بيد أنه فى هذه المرة لا يتمالك أن يبدى فرط إعجابه بشمائل النبى ﷺ ويبين إلى إحدى حد بعيد كان عفوا فما قابل السيئة بالسيئة بل بالحسنة، وهذا منه ﷺ خلق عظيم. فالشاعر أحسن صنعا بالوقوف وقفة أمام هذا الحادث. فقد عقب عليه بما هو أهله من تعقيب وما وسعه أن يكتفى بذكره أو أن يمر عليه مر السيم.

ثم يعرض صورة لمصرع حمزة، وهو جريا على عادته لا ينجح إلى التخييل والتمثيل والتنميق والتزويق، بل يذكر ما وقع وكما يشاهد عيانا ويقول إن حمزة بعد أن طعنه وحشى برمح وأسقطه عن فرسه ومزق جسده سبعين قطعة ولكن الشاعر لا يفوته أن يقول إن حمزة أصبح بمصرعه هذا سعيدا شهيدا لأنه قتل فى سبيل الله. ويضيف إلى ذلك أن النبى ﷺ حينما نعى إليه خبر استشهاده صلى عليه سبعين صلاة بعدد جراحاته السبعين. ثم يعود إلى إيراد الحوار فيقول إن أصحاب النبى ﷺ التفوا حوله بعد ما أشيع عنه أنه قتل ولما سأهم عما حاء بهم قالوا إنهم أدبروا وأحجموا وجاءوا لدرء الشر عن النبى ﷺ وليكون له الفداء. ثم يذكر أن جبريل عليه السلام نزل عليه وأبلغه قوله تعالى:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾.

وبعد أن أن يورد هذه الآية يشرحها الشاعر شعرا بل يكاد يترجمها ترجمة دقيقة مريدا للمتلقى أن يفقه ما جاء فيها. وهذا يؤيد نزعة التعليمية فهو يتحين المناسبة للشرح

(١) سى داعى كودردى حق رحمة للعالمين الهى هدايت سى قيل قومى فى الامم

كسه ريرا ولو نلمر اسى كيم هدايت مدر هدايت سن ايت نولره قلمه احسانى كم

رهى لطف وحلق اسى صاحب كمالى كوركى له حاهللر انى اورر لردى صونا لرردى سم

أول البرى عفو ايدوت ايد ردى دعا حير ايله كسه ريرا كماله اولدر مناسب حكم

والإيضاح وتعليم المتلقين عنه أصولهم وتعاليمهم كما أنه يبدى الرسول ﷺ في أروع صورة للفدائي. فقد كره لهم أن يشغلوا بحمايته عن مجابهة العدو وهذا ما له دلالة، وبذلك يولد الشاعر الأفكار والمعاني من مجرى الأحداث. وهو إذا انساق في وصف الأحداث وما أكثرها وأسرعها في حركتها رأى حتما عليه أن يقف بين الفينة والفينة وقفة ليستشهد بآية قرآنية ملتصقا فيها حجية أو تحين فرصة ليبصر الناس قيم الإسلام ومثله.

ولا يملك يازيحي أوغلو إلا أن يمضى مع الأحداث وكأنما تدفعه أمامها دفعا فلا يستطيع القرار. لقد ذكر كيف أن أبا سفيان وقف على رأس جبل أحد وأهاب بالمشركين أن يثأروا لقتلهم في بدر فقال الشعر على لسانه: (ثم صعد أبو سفيان الجبل، وقال يا ابن هبل يا ابن هبل. إنما نحن لبدر نثار، فاغزهم لا تبق منهم ولا تذر).

ولما بلغ النبي ﷺ هذا الخطاب، أمر عمر فكان منه الجواب، فقال: (الله أعلى وأجل، له الملك عز وجل. إن الجنة لقتلانا هي الثواب، ولقتلاك في النار العذاب)^(١).

وأهم ملحظ يفرض علينا فرضا أن نلتفت إليه هو أن الشاعر يحرص كل الحرص على أن يعرف بما للغزو من معنى خصيب، كما يجرى على كلام النبي ﷺ وغيره من المجاهدين تعريفا بمبادئ الدين الحنيف وبما للجهد من مفهوم ينبغي أن يتدبره أولو الألباب.

ولكن هذا الشاعر ما تبين لنا من توخي الدقة في ذكر واقع الحال وتسلسل الأحداث يغفل ذكر هند وما كان منها، علما بأنها تشكل عنصرا هاما في تلك الغزوة وهو عنصر الإثارة، فها هو ذا ابن الأثير يقول عن هند إنها كانت تقول أثناء المعركة التي قتل فيها حمزة عم الرسول ﷺ هذه الأبيات الماثورة التي نكتفي بذكر بعض منها:

ديديكم أعلى هبل أوغلى هبل	(١) سى أبو سفيان حبى فوق الحل
ريز دولاب كيسى دور ايدر عيرا	برده ندرايچون سيزه ايتيدك حيرا
امر قيلديكم عمر ويردى حواب	حون رسول الله ايردى بو حطاب
سلطت انكدر عر وحل	ديديكم الله ورر اعلى أجـل
سردن اولس كوره طاموده عساد	سردن اولس بولسه حنوده ثواب

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
مشى القطا البوارق والمسك فى المفارق

والدرف فى المحالق

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(١)

كما أنه لم يفصح عن أن المسلمين لم يحققوا فى هذه الغزوة النصر المبين على المشركين، ولا ذكر سبب لذلك والسبب معلوم ولكننا نظلم الحقيقة إذا تناسينا أنه ألمح إلى هذا من طرف خفى لأنه أورد قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾.

وإن ذكر أنه مر بشهداء المسلمين وأمر بدفهم فى دمائهم. تم نعامهم إلى صحابته وأحسن عزاءهم فيهم.

ويازيجى أوغلو لم يذكر غزوة الخندق وإنما ذكر الحديبية وفتح مكة وغزوة حنين ثم حجة الوداع وبذلك يبلغ النهاية بما ذكر من غزوات الرسول ﷺ فى كتابه (الحمدية). وهذا كل ما وجدناه فى المخطوط الذى بين يدينا من كتاب الحمدية. ويبدو هذا نقصا يجدر إكماله وصدعا يحسن رأيه وهذا ليس علينا بعسير إذا نظرنا فى مجموعة أخرى من الشعر التركى القديم بعنوان (غزوات الرسول) لدرسون فقيه المتوفى ١٣٢٦.

درسون فقيه هذا من العلماء الأعظم المشاهير فى عهد السلطان عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية. كان صهرا للشيخ اده بالى، وهو من أعلام المشايخ عند العثمانيين ولعله أوسعهم شهرة. كان مريدا لهذا الشيخ جلس منه مجلس المريد وتلقى عنه شتى علوم الدين وبعد وفاته أسد إليه التدريس والفتيا وذاع عنه أنه كان زاهدا عابدا صواما قواما فقيها بكل معنى الكلمة^(٢). وتولى إمامة الجند حين يخرجون للحجه كما أنه كان أول من أم المصلين فى أول صلاة جمعة تقام فى مدينة قره حصار بعد فتحها. وعين إماما لأول مسجده أقيم فيها.

(١) اس الأثير، الكامل، ص ٤٤، ٤٥ ح ٢ بيروت ١٩٨٧م

(٢) شمس الدين سامى قاموس الأعلام، دوردجى جلد، ص ٣٠٢٠ اسطنبول ١٣١١هـ

وله منظومة بعنوان (غزوات ناسمة) بمعنى كتاب الغزوات. يصف فيها معركة قلعة المقضى باليمن ويعرج فيه على وصف مغازى الرسول ﷺ ، ومجموعته الشعرية فى وصف المغازى وديوان شعره مما يعد من بواكير الشعر التركى فى القرن الرابع عشر للميلاد. وقد ترددت أشعاره على ألسنة الناس^(١) مما يقوم دليلا على أن لها طابعا دينيا يقع فى النفوس موقعا خاصة فى هذه الحقبة من تاريخ العثمانيين التى شاع فيها بينهم التصوف وتعاليمه وكثر شيوخه.

وشعر درسون فقيه قريب الشبه من شعر يازيجى أوغلو فى السلاسة والبساطة، ونعنى بذلك أنه يقتصد فى استخدام البديع وقلما نقع فى كلامه على صورة بيانية أو عبارة ينمقها، مما فيه الدلالة على أنه إنما أراد بشعره فى الغزوات الإفادة ولم يشأ أن يحسن الكلام ويتباهى بالبلاغة والإبانة. فشعره تعليمى النزعة وهذا ما جعل له السيورة عند الترك فى زمانه، كما أنه يميل كل الميل إلى سرد الأحداث على التفصيل، ويكثر من ذكر الأسماء، ويورد ما يدور بينها من حوار حريصا بذلك على الواقع متحرزا من الخوض فى شطط الخيال.

وهذا ما يجعل من منظومته تاريخا بتمام المعنى أكثر منه مجموعة من الشعر، إنه كيازيجى أوغلو يتخذ من الشعر أسلوب تعبير ليس غير، وليس له من وراء ذلك مآرب أخرى شأن غيره من الشعراء.

ويميل إلى السرد القصصى وترتيب الأحداث الحدث تلو الآخر من بداية كلامه عن غزوة الخندق. بيد أن أول ما نلاحظه عليه أنه لم يذكر أن سلمان الفارسى هو الذى أثار بحفر هذا الخندق، وفاته أن يشير إلى أن السبى ﷺ شاركه فى حفره وبذلك كان فى كلامه فراغ شاعر يجتذب نظر المتلقى عنه، ولكنه التفت فى وعى إلى المعجزة التى تكشف عنها حفر هذا الخندق وهو وجود حجر فيه صلد لما انحطم تحت المعاول أشرق منه نور فقال:

شرع فى حفر الخندق صغيرهم وكبيرهم، ودام يوما أو يومين فى الحفر عملهم. وفى داخل الخندق ظهر حجر، ما لضربه بالحديد فيه أثر. وبذلوا فى تحطيمه ما بذلوا من جهدهم، فما كان منهم سوى عجزهم. ولما طاف هذا الخبر سمعه مضى ليجد حيلة فى صدعه. وضرب بمعول فخر الأنام، فانفصل عنه تلتة بالتمام. وضرب بالحديد فظهرت من الحجر نار، منها جبل المدينة أنار.

(I) Hasan Aksoy Taurh dılı ve edebiytri ansiklopedisi, Cilt 2 s 386, İstanbul 1977

فقال لهم أنه رأى شبه ما فى أحلامهم من قصور الروم، وامتلاكه لها أمر محتوم.

ثم قال لاحت لى صنعاء بتمامها من بعيد، وهى لأمتى بالتأكيد^(١).

فشاعرنا الفقيه هذا يأتينا بالحقيقة لا يكاد يضيف إليها شيئا من عندياته أى أنه لم يضيف إليها شيئا من شاعريته فما جاء بخيال ولا أورد استعارة ولا كناية ليحسن بها كلامه وبذلك يكون معنيا بالذات بتأريخ ما وقع وكان المؤرخ التبت المحقق الذى لا يزيد ولا ينقص ويرعى الأمانة العلمية.

إنه ليس شاعرا ملحميا كما كان يتبادر إلى الفهم من مثله وهو الذى اطلع ولا بد على شعر الفرس الملحمى، ثم نظم فى معركة ومع ذلك لم يتأس بهم. إنه أجرى على لسان النبى ﷺ تعقيبا على ذكر الحجر وإشراق النور منه رؤيته لأكناف الأرض البعيدة، وقوله وهو الصادق المصدوق إن بلادا بين بعضها وبعضها الآخر من البعد ما بين المشرق والمغرب سوف تكون لأمته وهى خير أمة أخرجت للناس. هذا كله هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس بقول شاعر بل بقول سيد المرسلين ﷺ، تم أضاف يقول على لسانه ﷺ : إن الأرض بأطرافها قد انبسطت له أى للمسلمين وإن أمته سوف يكون لها السلطان فى أكناف الأرض، ثم ذكر أن جبريل عليه السلام هبط عليه وأوعز إليه أن يأخذ قبضة من رمل يلقي بها فى وجه المشركين. ولما فعل ذلك انخلعت قلوبهم رعبا وجرت عيونهم دما. ثم تصدى ثانية لذكر المعجزة ولا يذكر المعجزة ولا يؤمن بها فى

برايكى كون انده ايشى ايشلاديلر

(١) اولو كىحى حديقك ناشلاديلر

كه او لمار اكا هيچ آهس كاركر

حيقىدى اول حديق ايجنده بر ححر

صمدى اول طاشو عاخر قالديلر

بيجهكيم حهد رياده قيلديلر

واردى كه اول طاشه اول اوله جاره كر

جوبكه ايرشدى رسوله سو خبر

شويله كه ايريلدى طاشك ثلثى تمام

أوردى سر معول طاشه ححر الأنام

كه اولدى طيب طابعه اسدن

سور حيقىدى أصله طاشون حالى نار

رومدن كوردن سمدن بى قصور

ديدى النر دوش شلى كى قصور

امتمك در قاموسو بى كلام

ديدى كوردى بكما صعا تمام

هذا المقام إلا من عمر قلبه بالإيمان فقال إن ريحا عاتية عصفت فأذرتهم كأنهم غبار أو هتيم، ويتابع وصفه لتلك الريح وما كان من أثرها في العدو فيقول: إنها عاودت عصفها فاقتلعت دواب الأعداء وخيامهم .. إلى أن يختم كلامه بقوله إنهم منوا بهزيمة ماحقة بلا قتال ولا نزال، وبذلك تحققت المعجزة ونصر الله نبيه وأعز جنده بكيفية تؤخذ منها العبرة ويثبت بها في القلوب الإيمان. ويأخذنا الشاعر إلى خيبر فيقول: "إن المسلمين بعد أن أداهم الله من عدوهم انطلقوا إلى خيبر، وغلبوا على واحتها واستولوا على سبعة من صياصيها، ثم ينبري للقول في خيبر على أنها غزوة قائمة بذاتها إلا أنه يجعل على بن أبي طالب بطل هذه الغزوة، ويبين كيف أبلى فيها أحسن البلاء وبه نصر الله المسلمين نصرا عزيزا.

ويبدو شديد الإعجاب بعلى في صولاته وجولاته، وبذلك يذكرنا بكل ما عرف من ألقابه عند الفرس فهم يسمونه (شه سوارى اسلام، بمعنى فارس الإسلام، وشير خدا، أى أسد الله، وشير مردان، أى أسد الرجال).

وننتقل معه إلى خيبر لتعرف ما قاله عن على، ونلاحظ أنه كان منصب الاهتمام عليه في وصفه لتلك المعركة على أنه هو فارسها المظفر.

إنه في وصفه لمعركة خيبر يطرق موضوعا واحدا من خلال صور متتابعة لشخصية واحدة هي شخصية على بن أبي طالب كرم الله وجهه وبذلك نجد التفاوت بينه وبين يازيجى اوغلو في ذكره لعدة شخصيات، وبذلك يجعل من غزوة خيبر صورة واضحة المعالم لهذا الفارس المغوار فهو القائل: (وعلى حينما من باب خيبر اقترب، اسمع ماذا صنع من عجب. أمسك بالباب وأداره، فأعدمه في القلعة قراره. ضرب الباب ضربة بقبضته، فحلعه من عتبه. حمل الباب وبه انطلق، إلى خير من ربه خلق. إنما كان ذلك بفضل من الرحمن ولم يكن بقدرة لإنسان. وكبر الصحابة لذلك بعد أن تحققوا، وإلى داخل القلعة تدفقوا)^(١).

يايشويى قوسسه خيرك	(١) أشيد ايمدى ايشك اسده حيدرك
قلع ايلدوب قلعه دن دور ايلدى	قبويى شول لحظه كم دور ايلدى
قويى اشكيك يره ديكدى	جيون الن اشتكيه اوروب حكدى اول
مس رسولك قاته كتردى اول	يردن الوب اشتكيه يى كوثر دى اول
اولدى صامه قوه ناسوتله	ديدى بواش قوه اللاهوتله
قلعه يه تكير ايدوس كيرديلر	اشو حالى حون صحابه كور ديلر

إن شاعرنا لم ينجح إلى ما يعرف بالتمثيل البرهاني الذي نعهده عند شعراء الترك والفرس وشبه القارة الهندية، كما أنه علل كلامه من حلى البديع وقدم إلى الساحة الحقيقة لا يطرح منها ولا يضيف إليها، وفي هذا دلالة على أنه شاء أن يكون راوية يصدق المتلقى عنه ما يقول. إنه قد يذكرنا بالمؤلفين في النحو والعروض وغيرهما من العلوم إذا نظموا المنظومات الطويلة في علم من العلوم، وبذلك يكون استيعابه على من ينظر فيه هو الاستيعاب الأيسر. بيد أنه شاء ضمنا للمتلقى عنه أن يستوثق قبل أن يصدق أى أنه أراد له أن يوقن بأن ذلك إنما كان نصرا من عند الله وأن يؤمن في جزم ويقين بمعجزات سيد المرسلين في غزواته التي كان النصر له فيها من عند الله.

بعد إذ عرفنا قول هذا الشعر عن غزوة خيبر وما وقع فيها من أمر على كرم الله وجهه يقضى الحق أن نطلب المزيد ونحس نتلقاه من التاريخ والشعر في آن واحد.

فأخبار على وصفاته ترشد إلى قوة جسدية خارقة عن المؤلف. فربما رفع الفارس عن فرسه وطرحه أرضا دون جهد يبذله كما قيل إنه كان يمسك بدراع الرجل، فكأنه أمسك بنفسه فيعجز عن التنفس، وما صارع أحدا إلا صرعه ولا بارز أحدا إلا قتله، وذاع له بذلك صيت بعيد، يزحزح الحجر بالغا ما بلغ من ضخامته ولا يزحزحه رجال، كما أنه يحمل الباب الكبير يحمى بقلبه الأشداء ويصيح الصيحة فتتخلع القلوب رعبا^(١).

وهذا شاعر معاصر هو بولس سلامة يقول في منظومة له (باسم عيد الغدير):

ومشى حيدر يروم هصورا يلتوى الأخشبان قبل التوائه
أيها النس، دونه كل نسر ليس غير النجوم في أجوائه^(٢)

وحسبنا هذان البيتان اللذان يصف فيهما عليا كرم الله وجهه بالشجاعة البالغة في شاعرية دافقة يتفنن فيها متخيلا، وبذلك يفترق عن الشاعر التركي الذي ذكر الحقيقة عارية عن الزينة. إنه يهيم في الخيال ويبالغ فيه على أن المبالغة تدرك على أنها مبالغة، وهي تبرز المعنى وتؤكد وتؤيده. وننتقل إلى الشعر الفارسي لنجد من شعراء الفرس من يتعرضون لوصف على بكل حميل وبهتمون كل اهتمام بإبراز أخص صفاته، وفي طليعتها قوته

(١) العقاد عصرية الإمام ص ٧ القاهرة ١٩٨٧م.

(٢) د سعد الدين الحيروى الملحمة في الشعر العربي ٨٢ (القاهرة ١٩٦٧م).

وشجاعته، فمنهم من يقول عنه (إنه مظهر لكل الأعاجيب ومنهم من يقول إنه يسير حسا إلى تبوك ولكن سيره إلى المعنوى الروحي مضى من يثرب إلى الثريا. وقال القائل إنه حيدر الصنديد قاتل خير، فاتح خير، السيد الغلاب أمير المؤمنين)^(١).

فهذا الشاعر ينص على أن عليا قتل يهوديا اسمه عنبر، ويعد شاهدا على أنه ذلك الشجاع الذى يجندل البواسل إضافة إلى ما أسبغ عليه من صفات إلا أنه لا ينجح إلى التخييل والتمثيل.

وهذا ثالث يقول (يا طالما من سيفه فى صحراء خير، من دم الكافر نبت الورد الأحمر)^(٢) فهذا الشاعر يتخيّل ويعرض علينا من خياله الإبداعى صورة تقع موقعها فى النفس، ومن ثم نلاحظ الفارق بين هؤلاء الشعراء الفرس وبين الشاعر التركى دورسون فقيه.

(١) حيدر صقدر شه عسكرش خير كشاي سرور غالب سر مدان أمير المؤمنين وحش باقى: ديوان وحشى باقى ص ٢١ تهران.

(٢) بسكه دردشت حيرار نيش رست اركل رجون كافر كل نظيرى بيشانورى: ديوان نظيرى بيشانورى ص ٢٥ تهران

الفصل الثانى

فى الشعر التركى الحديث

من الخير أن نصدر كلامنا فى هذا الفصل بتمهيد نشير فيه إلى أن حركة الإصلاح الإسلامى ظهرت فى تركيا وشاء روادها أن يصلحوا الدنيا بالدين وأن يتخذوا الدين الإسلامى منهج حياة.

وإذا عدنا إلى بدايتها ألفينا أنه فى ١٨٧٠م ارتحل الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى إلى تركيا فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته. واقتنع السلطان اقتناعا جازما بمبادئه ومثله، وبلغ منه الإعجاب مبلغه بحكمته وحنكته، ورغب إليه السلطان عبد الحميد أن يشكل اتحادا قويا بين الشعوب الإسلامية حتى يمكن إيجاد وحدة فيها التعاون والتآلف والتضامن بين شعوب المسلمين قاطبة، واستجاب جمال الدين الأفغانى لرأى السلطان، وانصاع لأمره فقطع على نفسه عهدا بصرف كل همته إلى تحقيق هذا الأمل وبذل المسعى فى سبيله. وكان لجمال الدين الأفغانى الفضل فى تخريج طائفة من مريديه الأتراك عليه الذين كانوا يجلسون منه مجلس التلميذ يسمعون منه ويأخذون عنه وفى طليعتهم الشاعر التركى محمد أمين الذى لزمه ولم ينقطع عنه وتأثر به تأثرا مباشرا بخاصة فى منظومة نظمها فى حرب اليونان. وقد وقعت هذه المنظومة التركية موقع الإعجاب فى نفس جمال الدين الأفغانى وأوصى غيره من تلاميذه أن يسيروا فى خطاه ويأخذوا أخذه^(١) فى تذكير الأتراك بما كان لهم من مجد وعز فى ماضى الزمان وهم يعيشون فى ظلال الدين الحنيف، ويقفون عند حدوده ويذودون عن حمائه، وكثر مریدو الشيخ، ومن هؤلاء المریدین محمد عاكف المتوفى عام ١٩٣٨م والذى يعرف فى تركيا بشاعر الإسلام.

ففى دواوينه السبعة التى تعرف بصفحات حض على التخلق بأخلاق القرآن والاستمسك بأصول الدين الحنيف. وما يلحظ أن شعره سهل المأخذ معاه فى ظاهر لفظه

(1) Yazar. Edebiyatımız Ve Tır Turk Edebiyatı S244 (Istanbul 1939)

لأنه يخلو من رموز التصوف وشطحاته مما يجعله في مستوى الإفهام على أوسع نطاق. وهذا ما جعل منه داعية إسلاميا بالمعنى الحق.

وهو في عموم شعره يسمو بالخلق ومستوى المجتمع متكئا في ذلك إلى أصول الدين الحنيف، ويدعو إلى تشكيل وحدة إسلامية بين المسلمين في المشرق والمغرب ويوقفهم في صف واحد مواجهين عدوهم، وله الرأي والرغبة في إقامة حضارة إسلامية بكل ما تمتاز به من خصائص وملامح وسمات.

وحسبنا هذا من تمهيد نفهم على أساسه ويهتدى به في طريق سلكه إلى غاية هي التنبيه إلى أن شعراء الترك في اليوم الحاضر من تبعوا عاكفا في مسيرته وضربوا على قلبه وتأسوا به في منهجه الإسلامي، فاخترأوا مثله الإسلامية وجعلوا شعرهم ما ينطق عنهم، ومن حيث كنا في كتابنا هذا إنما ندرس ما قال الشعراء من قدماء ومحدثين في الغزوات كان حريا بنا أن نلتفت إلى بعض شعراء الترك المعاشين الذين أوردوا الغزوات في أشعارهم وأن نعرف من يكونون وماذا هم يقولون. أما هؤلاء الشعراء ففي طليعتهم نجيب فاضل المتوفى عام ١٩٤٨م، وهو لأسرة لها حيثيتها العلمية والاجتماعية لأن أباه كان رجل قانون كما كان جده كذلك قانونيا ضليعا، وكان حده إلى ذلك رجلا من أهل التقوى، وبسط رعايته على حفيده الذي كان يحبه حبا جما، وحجب إليه أن ينظر في القرآن نظرة تأمل وتدبر، فعمل نجيب بوصية حده وما كان يسعه أن يخالف له أمرا، ومعلوم أن الجد إذا طلب شيئا إلى حفيده أو كلفه به فلا بد أن يكون ما يعمل له ذا أثر في قرارة نفسه، ومن ثم ندرك كيف اتجه نجيب فاضل في بدايته الأولى إلى النظر في كتاب الله المبين. وغير شك أن ذلك كان باعنا قويا بعثه على أن يكون في شعره من شعراء الترك المحدثين الذين امتازوا بنزعتهم الإسلامية، ولكن الفتى لم يقتصر على التربية الدينية وحدها بل قرنها بتربية عصرية في الكلية الأمريكية، ثم في الكلية الفرنسية، ثم التحق بقسم الفلسفة في دار الفنون في تركيا، وارتحل إلى فرنسا ليدرس الفلسفة فيها^(١). وبذلك يكون نجيب فاضل قد جمع بين الحسنيين وتأتى له بناء على دراسته أن يتفهم الدين الحنيف.

(١) د عزة الصاوي الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل ص ٤ رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة عين شمس

أما تراثه الأدبي فهو جد غزير ولا نلقى بالا في هذا الصدد إلا إلى شعره. فله سبعة دواوين. أما كتبه الفلسفية ومسرحياته فتخرج عن المقام الذى نحن فيه ومن مجموعته الشعرية مجموعة تحت عنوان (السلام) وفيها يدور كلام الشاعر عن سيرة الرسول ﷺ منذ عام الفيل حتى حجة الوداع. وهو فى ذلك يشبه السارودى الذى نظم السيرة النبوية فى الفترة التى تقع بين مولده فى عام الفيل ووفاته بعد حجة الوداع فى نفس العام.

وقد نظم منظومات من مجموعته هذه آن سجنه عام ١٩٦١م واستكملها عام ١٩٧٢م، وقد شاء نجيب فاضل أن يجعل من شعره فى هذه المجموعة أول مجموعة شعرية فى الشعر التركى المعاصر تجرى عليها صفات الملحمة، كما عقد أمله بأن يدور هذا الشعر فى أفواه الناس على تفاوتهم فى ثقافتهم، وفى هذا دليل أكيد على أنه شاء له السيورة التى هو أجدر بها لأنه فى سيرة النبی ﷺ ولأن هذه السيرة مما ينبغى أن يعرفه الناس قاطبة، فهو يريد أن يذيع شعره الإسلامى هذا على أنه داعية إسلامى، وهو يختلف بعض الشيء عن محمد عاكف مثلاً الذى كانت له نفس الرغبة إلا أنه لم يفكر فى إذاعة شعره بهذه الكيفية على أن يذكر الناس بسيرة نبيهم ووجوب النظر فيها وأخذ العبرة منها، وإنما قال شعره الإسلامى فى شمول ولم يتجه فيه إلى العوام أو أشباههم، بل إن لغته كانت فى مستوى لا يبلغه إلا من اتسع فى العلم بأعهم ورسخت فيه قدمهم.

ونجيب فاضل يعبر عن عاطفته نحو الرسول ﷺ، ويتوجع ويتفجع لما أصابه من أذى المشركين، مما ينهض برهانا قاطعا على أنه فى سرده للسيرة النبوية وما سوف نعرف من قوله فى حوادثها لم يكن مؤرخا ليس غير، بل كان معبرا عن محبة التركى المؤمن الموقن لسيد الخلق ﷺ. وفى هذا يقول:

(يا لها معجزة جاء بها من إيمانه الطاهر، إلا أنهم قالوا يا له من مجنون شاعر، فى فناء الكعبة وهو ساجد فى صلاة ألقى الحيف على ظهره من قلاه)^(١).

والكلام بعد ذلك على قوله فى الغزوات، وهو فى كلامه عنها لا يقتصر على ذكر الحقيقة التاريخية شأن المؤرخ الذى يكره لنفسه أن يتاعد عن الواقع مخافة أن يقال عنه إنه

(١) حالصك معجزة سى اينانان يوق بويله كن . ديديلر بو برشاعر . بر سحر يار . بر محون كعه نك حو لبر

سده ، ناماز سحده ده كن

صوقلديلر صير تنه برلشى قويدلر اولك

حجب من الحقيقة شيئا أو قال شيئا على غير صواب. إنه منفعل كمؤمن يقول ويصف ما يصف إلا أنه لا يملك كتماننا لعاطفته الإنسانية وحميته الإسلامية. إنه يصف هذه المعركة وصفا خاصا يعبر فيه عن رأى وفكر كما يعبر عن عاطفة وعن شعور بالفخر، ونعنى به أنه يفخر بتلك المعركة لأنها كانت نصرا مبينا للمسلمين، كما أنها رفعت عنهم ما كانوا يكابدون ويعانون فى صلتهم بالمشركين. لقد رأى أن موقف المشركين من المؤمنين مما يجرح كبرياء أهل لا إله إلا الله ويعبر عن نشوة فرحه بهذا الكرب الذى نفس عنهم بالنصر وعن ذلك الصغار الذى دفعه عنهم الانتصار.

(أعظم بها إنها بيدر تشتهر، ما رأى لها من نظير فى الجهاد بشر، ولو صغرت فإنها بغزوة الدعوة كرمت، يا لها السيف الذى سل أول ما سل والرحمة التى أشرقت، فى سيفها كرامة جرحت، فى بدر حشود الكفار أصبحت هباء منثورا، وبدر أول عمود يشدخ رأسا كسيرا)^(١).

ويستوعى نظرنا قول الشاعر إن بدرا كانت أول ضربة للعمود على هامة الكفر، لأنه يلفتنا إلى تأثره بأبطال الفرس المغاوير المذكورين فى شاهامة الفردوسى والصمود من أهم أسلحتهم. فنحن لا نذكر أننا وقعنا على العمود سلاحا للعرب فى غزواته ﷺ. فلم يبق إلا أن يكون هذا سلاحا فارسيا وليس عربى، إننا نجد ذكرا للعمود فى خبر للخليفة أبى العباس السفاح. قيل إن سبعين رجلا من بنى أمية كانوا جلوسا عنده على الطعام ودخل شاعر عليه وأنشده شعرا أسخطه على بنى أمية وحذره منهم، فأمر بهم السفاح فضربوا بالعمد وبسطت النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم.

هذه معلومة متعارفة لدى كل من قرأ شيئا من تاريخ العباسيين، وليس من قبيل الإطناب الذى يعنى عنه الإيجاز أن نوردها، لأن عليها التعويل فيما نذهب إليه. فالدولة العباسية هى تلك الدولة التى يسميها بعض العلماء الدولة الساسانية الثانية، وما ذاك إلا لأن العرب فى العصر العباسى أخذوا كل الأخذ بمظاهر الحضارة الفارسية فيترتب على ذلك أن يكون العمود من الأسلحة التى عرفوها عن الفرس.

(١) اسمى قوجه مان بدر .. الملى وقاللى بدر . بدر، الله جكده أشسز محاره در ... يدركوحك جك . أما بودعوك عروه سى ايلك حكيلن قلع كله .. ريل ريل مرحمت يدرك قليحنده در احيده كى كرامت . معرور صفرى كمر كك .. بدر طور نور اولدى بدر كمر ك ناشيه .. اينى طويور اولدى.

وأنا حين أتمثل هؤلاء الأمويين وقد ضربت رؤوسهم بالعمد وتم القضاء بذلك عليهم ومن ثم على قيام قائمة لدولتهم، أتخيل ما ذكره نجيب فاضل فى قوله: (إن معركة بدر كانت أول عمود هوى على رؤوس المشركين)، وأرى فى ذلك صورة وفق كل التوفيق فى عرضها علينا لأن التشبيه أقرب ما يكون إلى الواقع. ولقد شاء أن يقول إن المشركين ذهب أمرهم سدى وكانت هذه المعركة ممحقة لهم وهذا يشبه ما وقع لأولئك الأمويين الذين هوت على رؤوسهم عمد الخليفة أبى العباس السفاح فقضت عليهم وأذهبت ملكهم أدراج الرياح.

ويمتد السياق بالشاعر الذى يتحدث عن بدر ناطقا عن عقله وروحه فهو لا يغالى فى الخيال لأن الخيال إذا زاد عن الحد أضحى كلاما لا يستقيم فى الفهم. وقد عرفنا عن نجيب فاضل أنه ذو ثقافة قانونية والقانونى يلتزم حدود المنطق ويرتب النتيجة على المقدمة، كما أنه شاعر والشاعر لا بد أن يكون له شعور خاص به ورؤية لا يستطيع لها كتماننا، كما عرفنا أنه ذو ثقافة دينية روحية. لقد ألف فى التصوف، وعرف الرمز والإيماء، وأدرك من التصوف أنه فى مفهومه الصحيح أوج التقوى، كما أنه إلى كل ذلك بليغ ملتزم لأنه إنما نظم فى السيرة النبوية الشريفة ليظهر الأتراك جميعا على حقيقتها، واختار المعنى القوى والمبنى السلس الواضح. إنه يصدقنا القول عن بدر بقوله:

(صفات فى الروح مختلفان فى النسب مؤتلفان، خرج الابن أمام أبيه والأخ أمام أخيه، فى بدر تعلمنا كيف يتحدثان فى أرومتهما، وحد الإسلام فى لون واحد كل الألوان، ففيه اثنان لا يتفاوتان، إنه ثورة دين جديد على عهد عهيد).

إنه مذكرا بما سبقت لما معرفته مما وقع بين أبى بكر وأبنة، وبين أخ وأخيه. وبذلك يلتزم الحقيقة بجدا فيرها ويبين كيف أن الإسلام سوى بين من كانا يختلفان فى الرأى وإن كانا لا يختلفان فى النسب والقربى.

إنه مبدأ إسلامى متالى. فالإسلام دين المساواة والمساواة هى التى تقيم سدا منيعا بين الكراهية والمودة، فإذا ما كان الناس على مذهب واحد ورأى واحد صلحت أحوالهم. وما وجد بينهم من سبب يدفع إلى النزاع والتخاصم، إنه يشيد بالإسلام كدين تبدل به الناس بأمن من خوف فاحتمعت قلوبهم على التواد والتراحم، وعد ذلك ثورة إنسانية لأن مفهوم الثورة هو التغير من حال إلى حال فغير الحال من سيئ إلى ما هو الأحسن.

إن الشاعر يناطق العقول ولا يركن إلى ما يعرف بالتمثيل البياني أى المبالغة فى والتباعد عن الواقع ومحاولة شرح بعض الحقائق بالجاز. وهذا الصنيع قد يوفق فيه بعض ولكن لا يوفقون فيه كلهم، لأن الخيال طالما تباعد عن الواقع مما قد يفضى إلى عد الكلام على محمل الجد. وإذا كان هذا من داعية أو ناصح أو واعظ فلا شك فى أنه من أنه يفوت عليه بلوغ غايته. وقد لا يعينه على النجاح فى مهمته.

ويعجبني عرضه صورة للمعركة وهى دائرة الرحي حامية الوطيس بقوله:
(وعن بدر كان للمسافرين انطلاق، فى الريح تسمع لهم أصداؤهم من الأ-
للخيول صهيل لا لسهام صغير وللتكبير هدير^(١)).

إنه يجعلنا نتمثل المحاربين مسافرين وهذا له مغزاه الذى نتمثله فهم ماضون لطية غاية أنعم بها من غاية، إنهم يريدون السفر، أى المضى من عالم الفناء إلى عالم ومنيتهم أن يكونوا شهداء. هذا ما ندركه من سفرتهم تلك. إنه يصفهم بتوقد والثبات على عقيدتهم لأنه يصعد منهم أصواتهم بالتكبير، ويجعله مثل الهدير، وينا وبين صهيل خيولهم وصغير سهامهم. إن الصوت قد يكون أبلغ تعبيرا من الحركة، بوصف الجياد وهى تعدو ملاً خروجها فى تقدمها، بل يكاد ينطقها بصهيلها لية صوت المهللين المكبرين فى غزوة الإيمان.

إن الشاعر صدوق اللسان فى كل ما قال، فما ذكر كلاما فوق المستحيل، وهذا البرهان على أنه جعل شعره على وفق الغرض الذى التزمه وهو أن يجعل منه كلاما الناس على تفاوتهم فى ثقافتهم، وإنما يريد هدايتهم إلى الدين القويم.
ونظم نجيب فاضل كذلك فى غزوة الخندق التى تعرف كذلك بغزوة الأحزاب قوله فيها:

(إنما الأحزاب اسمها، والخندق اسم سواه لها، إنها آخر ضربة نزلت بالكفار، لا سوء العذاب والخسار)^(٢).

(١) حالا كحس يولخو لر بدر ده حنك يرسد.

روركار سسلر دويار درسدن مى ديريدن

آت كيشر اوق وير لدر تكبير صداسى كورلر

(٢) اسمى، حربلر احزاب نرياشقه اوى حندق

كمرك صون ورد عكى توص كمره حسران وعذاب

إنه لا ييسط قوله فى وصفها تفصيلا وكان المتوقع منه أن يشير ولو من بعيد إلى ما كان من حفر الخندق إشارة من سلمان الفارسى، فعهدنا بمعظم من ذكروا غزوة الخندق أنهم ذكروه وعرفوا ذلك من فضله وأيدوا أن مشورته كانت سبا فى نصر المؤمنين. ولنا أن نقول عجب منه إنه لم يذكر أنه ﷺ اشترك فى حفر الخندق، وإنما اكتفى بذكر نصر المسلمين.

والظن أنه كان لا يلقى بالا إلى الوصف المفصل وربما عده حشوا أو إطنابا للقارئ غية عنه، وأراد أن يتغنى بمجد المسلمين وذلك قصاراه.

ورشة سؤال طارح نفسه، فمبلغ علمى أنه لم يذكر غزوة أحد، وفى تعليل ذلك أقول ولو متظننا: إنه كره لنفسه أن يذكر تلك الغزوة لأن الدائرة دارت فيها على المسلمين بسبب من حماقة فتيانهم، فما وجد داعية لذكر ذلك، وهو إنما يمجّد المؤمنين ويذكرهم بكل جميل ولا يريد إلا أن يكون مادحا لا مجرد مؤرخ يذكر كل شىء دون أن ينبه إلى التمييز بين ما يقال وما لا يقال.

لقد أشد عليه واستبشع ما وقع لحمة والذى قتل أخس قتلة على يد عبد لهند تلك المرأة التى استخرجت كبده ولاكتها وكان ذلك منها وحشية بشعة يقذف بها ضمير الإنسانية ولتصورها تنفطر القلوب وتعلو الرعدة حتى أجساد الشجعان.

كان شاعرنا على الحق والصواب فى هذا وأثبت بالدليل القاطع أنه مرهف الحس سليم الذوق كما أنه متفكر يعرف مواقع الكلام فى هذا الشعر الذى يتجه به إلى غرض معلوم.

ومن بعد نقع على قوله فى غزوة حنين، وفى كلامه نبذة جمهورية فيها كل الدلالة على أنه فحور تياه بما يسر الله للمؤمنين من نصر على الكافرين. إنه قبل ذلك يمتدح الرسول ﷺ ويعزو إليه الفضل فى ذلك النصر المبين وما كان هذا النصر إلا لإيمانه الراسخ وحبه الجمل لمن اصطفاه حبيبا ورسولا فأكرمه والمؤمنين بنصر ربما لم يكن ورد لهم على بال. وبين كيف أن المشركين لم تعد لهم طاقة بقتال المؤمنين فتددت جموعهم وما قدموا إلا ليحجوا. إنه يريد تعليلا لانتصار المؤمنين واكسار الكافرين فعرا ذلك إلى تكاتفهم وتآلفهم على وفق ما أمرهم به دينهم الخفيف. وهنا نتبين بآثم وضوح أن الشاعر لا يكتفى بسرد الأحداث وليس ظاهر الميل إلى وصف القتال فى تفصيل، وإنما يتحين كل نهزة ليشير إلى مزايا دين

الله، وكيف أن الله ينصر عباده المؤمنين كرامة لنبيهم سيد المرسلين. إنه يريد ليقنع القارئ بما ينبغي أن يعلم عن حقيقة دينه وهو يشير إلى الحقيقة ولا يوشيه بالبديع، ذلك البديع الذى طالما سترها كما أنه يتفكر وكلامه آخذ بعضه برقاب بعض، ويتكئ فى ذلك إلى خلفيته الدينية والقانونية والفلسفية، وبذلك يقتنع من يتلقى عنه بكل ما قال فى جزمه ويقين. وهو فى ستعره هذا لا يشبه الشعراء المعاصرين فى ميلهم إلى المعانى المجردة والمجاز الذى يناقض ويكذب الحقيقة، وهذا فضل له لا يجحد فى هذه الطائفة من الأبيات:

(شعور واحد، كلمة لا سواها الإسلام لا يهزم، يالها من عظمة بفضل الرسول هادى الأمم، ما من أحد لم يعلم ما يجرى به قضاء الله، إنما الحكمة فى حنين ما نراه، من ضربة واحدة امحى العدو من الوجود، وكسره إلى غرته تعود، مضى وارمى وتجمع ثم انسحب، وحده الرسول الحرب كسب)^(١).

أما ما ذكره نجيب فاضل عن فتح مكة فهو ما ينبغي أن يذكر فى يوم فتح لأنه كان نصرا مبيا ما فى ذلك ريب، وهذا النصر لم يعقب حربا ضروسا وإنما تقدمته بعض مساوئات كان لا بد منها، وبذلك يقوم البرهان على أن النبى ﷺ لم يكن يضع السيف فى موضع لا حاجة فيه إلى وضعه.

ولإيضاح ذلك نحمل القول فى الكيفية التى دخل بها الرسول ﷺ مكة. بعد صلح الحديبية اعتدت قبيلة بنى بكر من أحلاف مكة على قبيلة خزاعة من أحلاف الرسول ﷺ ورفدتهم قريش بالسلح، تم قاتلوا معهم، ودام قتالهم حتى انحازوا إلى البيت، وكان لزاما أن يتأثموا من القتال فى بيت الله الذى جعله الله مثابة للناس وحرما آمنا. ولكنهم قاتلوا. ونكث العهد بنو بكر وانتهكوا حرمة البيت وعاونتهم قريش فى خيانتهم. فما كان النبى ﷺ إلا أن يرد هذا الضيم ويدفع ذاك الشر، فعقد أكيد العزم على المضى إلى مكة فاتحا، وقال ﷺ ثلاثا: والله لأغزون قريشا، وأمر أصحابه بأن يكونوا على أهبة الذهاب إلى مكة، وقبل دخولها أسلم أبو سفيان، وتنى قريشا عن القتال، وأبلغ قومه أن النبى ﷺ قال: إن من دخل دار أنى سفيان فهو آمن، فقالوا له قاتلك الله، وما تعنى عا دارك، فقال باقلا عن النبى ﷺ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

سو عرور ادا سى رسوله كيران
حكمت كسه حبيده بلير دى ير آ
بورعن بوبر لمسه ديعوسى، مسئول

(١) عيسى حسن وعيسى سور، اسلام ارتقديلمز
حقك تقديرى هتش كيمسه لمر
وشم ايلك ورو شده سليب سو سردى

حكى تك ناشينه قراندى رسول

وبهذا تهيأت النفوس للإسلام.

فدخل ﷺ لا دخول المحارب ولكن دخول المسالم، وما رغب إلا في أن يفتح القلوب لنور الإيمان، وأمر جنده ألا يقتلوا ولا يقتلوا، ولكنه أوجس خيفة من بعض أوباش قريش، وأمر الأنصار بأن يضعوا السيف فيهم ويبددوا جموعهم ولكن شريطة ألا يصدر منهم ما يعرض المجاهدين للشد عليهم وقتلهم، ودخل ﷺ على ناقته حاملا علما أبيض وهو يقرأ سورة الفتح. وهنا نقف وقفة نهى عن القتال لا عن الدفاع، ولكن أوباش قريش تجمعوا مع بنى بكر وتخونوا العهد واعتزموا العدوان على المسلمين، ولكن خالد بن الوليد ومن معه رشقوهم بسهامهم واضطر خالد إلى قتالهم فقاتلهم حتى ألحق الهزيمة الماحقة بهم، ولم يقتل من أصحاب خالد غير رجلين، ودخل ﷺ البيت الحرام وأحاط به المهاجرون والأنصار، وأقبل إلى الحجر الأسود واستلمه ثم طاف بالبيت حاملا قوسه وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يطعنها بقوسه، ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا) وما يبدئ الباطل وما يعيد. ولقد تساقطت الأصنام وتهاوت عند إصابتها بقوسه فنكست كلها.

له المديح وله الفتح المبين، في يوم ذيك الفتح، جميع قريش أمام الكعبة، أيصعد الأذان العبد القديم بلال، هو ذا في القلوب سؤال، أية عاقبة لنا نتمثل، سيد الرسل غصنا رقيقا حمل، قال: ربا هذه الأصنام حطم، ثلاثمائة وستون لم يبق منها صنم، أين هبل الآن أين هبل؟! أنت القبائل عديدها اكتمل، صوت واحد، الله أكبر، وانحنى الرسول وهو يشكر، من فوق راحلته أطل، والصفوف أمام بيت الله، لقريش عفو ورحمة من الله^(١).

إن شاعرنا يرسم لنا صورة جد رائعة لرسول الله ﷺ في فتح مكة. إنها صورة تخلو من كل مظهر من مظاهر العنف وبذلك يصدقنا التصوير لأنه دخل مسالما ولست أقدر على كتمان فرط إعجابي بقوله إنه ﷺ حمل فننا رقيقا مريدا بذلك تشبيه قوسه به فهذه القوس التي تقترن بالعنف حين تنطلق منها السهام قوس لم يطلق منها سهم واحد فليست لها صفة

(١) مدح اوكة، بو يوك فتح اوكة. بويوك فتحك كوسده، بويوك قريش كعه اكندة اقويان مى، اسكى قول بلال، يود كلرده تك سؤال، صو كسمر بيجه؟ رسول الله الله النده براجه دال، كوستردى، نلرى، ريم بيره حالواح يور التمشى بوت شمدى يرده، هابى يا هبل. بره ده؟ اويقلر بولم بولم، تك سس الله اكبر شكردون ايكى بوكلم، ده سدن بيعمر كعه اكده صف صف، قريشه رحم وعفو.

القسى ولا استخدامهما، ومع ذلك جعلها فننا. إلا أن هذا الفن على رفته ورخاوته هدم هذه الكثرة من الأصنام، فقد قيل إنه ﷺ كان يمس الصنم بقوسه فيهوى على الأرض هوى فمن عجب أن يكون ذلك إلا بقوة إلهية غيبية.

وهكذا وفق الشاعر فى إيضاح ما وقع على الحقيقة. إنه لم يسرف فى الخيال، وتخيل لكن بمقدار، وخلع على الصورة التى رسمها روحانية وقدسية، وعرف كيف يعرضها على نحو يقع فى القلوب موقعا.

إنه لا يستطيع أن يخفى فخره واعتزازه بالنصر المبين ولا يغفل عن ذكر لوازم هذا النصر بالذات كتصعيد الأذان، وكأنما شاء أن يجعل من صوت الأذان ما يتغنى به المنتصر أو يعبر عنه بالمعارف والطبول.

ويتلو ذلك ما ذكر عن غزوة تختلف بعض الشئ عن الغزوات وهى غزوة تبوك. وتبوك موضع بين وادى القرى والشام. وهذه الغزوة تسمى غزوة العسرة وهى آخر غزواته ﷺ. وقد أخبر الناس بأنه يريد الروم.

أما سببها فإن الروم قد حشدت حشودها فى الشام فندب أصحابه إلى الخروج واستنفر قبائل العرب، فأقبل عليه جمع كثير كما قدم عليه المنافقون يستأذنون فى التخلف، واستخلف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على أهله فى غيبته وانطلق بعد أن عقد الألوية لأبى بكر والزبير وأسيد بن حضير وغيرهم. وسار ﷺ على رأس جيش عظيم كان أعظم تألف فى العرب، ووجه لخالد بن الوليد فاستأسر أكيدر، فدخل خالد حصنه وقدم أكيدر على الرسول وصالحه على الجزية ونال منه الأمان وعاد ﷺ إلى المدينة واستقبله المنافقون فأعرض عنهم^(١).

ولست أجد من دافع قوى يدفعنى إلى ذكر شئ مما قال الشاعر فى تبوك لأنه أشار إشارات لائحة إلى ما وقع فيها كقوله إن الروم لم يعتدوا، ثم طفر طفرة بعيدة ليضيف إلى ذلك قوله إن الإسلام على وشك الخروج إلى العالم الكبير، إلا أننا فى هذا المقام يلزمن عدم نسيان شئ وقع فى هذه الغزوة وهو قوله ﷺ: يا أيها الناس باب خير. أخبركم عن حيشكم هذا الغارى إنهم انطلقوا فلقوا العدو. فقتل زيد شهيدا فاستعفروا له. ثم أخذ الراية

(١) محمد رصا. محمد رسول الله ٣٣٦ ٣٣٨ القاهرة ١٩٦٦م.

عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له. ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكن سيف من سيوف الله فأب بنصره فمئذ سمي خالد سيف الله المسلول^(١).

وهنا تقترب غزوة تبوك بخالد الذي أسماه ﷺ فيها سيف الله المسلول، وهذا لقب له يتردد في أرجاء الدنيا. وباقتراح هذه الغزوة بهذه التسمية نذكر اقتران السيف الذي يعرف بذي الفقار بغزوة بدر.

والخبر في هذا أن سيف رسول الله ﷺ كان يعرف بذي الفقار وكان لأحد قتلى المشركين يوم بدر، فصار هذا السيف إلى النبي ﷺ، ولكنه أعطاه على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذكر ابن هشام أن مناديا نادى يوم بدر مرتجزا: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على^(٢).

ويؤخذ من ذلك أن هذا السيف أصبحت له الرتبة والميزة على غيره من السيوف لامتلاك الرسول له ولأن على بن أبي طالب أخذه من النبي ﷺ.

ومما يؤيد ما نذهب إليه ونؤيده أن هذه المقولة تكتب على كثير من السيوف على امتداد العصور على أنها تزيين وتشريف وتبرك، ولكننا في هذا المقام نلاحظ بالذات أن الغزوة الأولى والأخيرة اقترنتا بالسيف إلا أن السيف في غزوة بدر الأولى كان سيفاً على الحقيقة ودخل التاريخ بفأسه وبركته، أما السيف في الغزوة الأخيرة وهي غزوة تبوك فسيف على التشبيه. ودخل كذلك مسماه التاريخ بتسمية الرسول الكريم له ﷺ وبنجده وبنسأله المقطعة نظيرها.

وحسبنا هذا من نظرنا في شعر نجيب فاضل الذي تعرض فيه لذكر الغزوات وأوصافها. ويذكر نجيب فاضل يذكر سزائي قراقوج. إنه شاعر معاصر من شعراء الترك الذين تميز شعرهم بالتعبير عن نزعة إسلامية يعبر بها صاحبها عن كونه داعية إسلامية يريد ليذكر الأتراك بسابقتهم في مجد الإسلام، ويود لو وعوا عه وانتصحوه بنصحه، فأخذوا بأصول الدين ووقفوا عند حدوده، ليصلحوا بدين الله دنياهم وبذلك يغير الله من حال إلى حال،

(١) محمد رضا. محمد رسول الله ٣٣٦ ٣٣٨ القاهرة ١٩٦٦م

(٢) د سمية حسن إبراهيم. بعض السيوف الأثرية بمتحف عاندين الحربى ص ٧ القاهرة ١٩٩٠م

إنه منصرف العناية إلى قضايا الإسلام وجمهرة أشعاره فى هذا الغرض. وهو من مواليد ديار بكر عام ١٩٢٣م، ومنذ بدايته الأولى كرس جهده طول دهره لخدمة قضايا الإسلام والنظرة فيها رجاء الاهتداء إلى حلها، وبلغ من تأكيده العزم على ذلك أن يجعله كل دنياه، فتتصل من مسئولية الأسرة حتى لا يشغله شاغل، كما كره لقلمه أن يتجاوز هذا الإطار، ويا طالما أجرى قلمه فى الشعر والنثر والمسرحيات والمقالات، وحسبنا قولنا إنه صاحب مدرسة من مدارس الفكر يسميها مدرسة الإحياء الإسلامى^(١).

ومن إنصاف الحق قولنا إن ساحة المجاهدين الإسلاميين، أى الذين لهم نزعة إسلامية إصلاحية لم تكن خالية أمام سزائى قراقوج، بل كان فيها كثير من الأعلام الذين كان لهم أعمق الأثر فيه. إلا أنه كان صاحب منهج تفكير خاص به، وبذلك كانت له الميزة على غيره من الذين سلكوا تلك الطريق التى سلكها، فقد كان عميق التفكير يتكئ إلى عقل راجح ورأى سديد فيما هو قائل. وبناء على ذلك سدت كتاباته فراغا شاغرا فى مجال الدعوة الإسلامية فى تركيا.

ولإيضاح ذلك نقول: حينما كان الكماليون والشيوعيون ينشرون مذاهبهم وآراءهم فيما يتعلق بالفكر والسياسة، كانت كتابات ومنظومات الإسلاميين تواجه الشعب التركى ولكن من جانب واحد هو الجانب العاطفى، ونعنى به العاطفة الدينية التى تمتاز بالإيمان وتنطق به. إلا أن قراقوج كره أن يكون ذلك هو السبيل الأوحى إلى تحقيق منشود الغاية فجعل كل همه أن ينصرف إلى الجانب العقلى والتاريخى والحضارى، فيما يختص بالإسلام، وبذلك استطاع أن يقيم سدا يرد سيل العلمانية الجارف، وجعل بدايته إصدار صحيفة إسلامية لتكون مصدر دعاية للإعلام الدينى، ومنبرا للدعوة الإسلامية ومعالجة الواقع من منظور إسلامى، وحرص أن يعقد فيها فصلا خاصا ثابتا للتراث الإسلامى اهتم فيه بعرض لتاريخ الإسلام فى عموم، وتاريخ العثمانيين فى خصوص، كما قدم ترجمات من عيون الشعر الإسلامى فى العربية والفارسية. وكانت عنايته بتحديد مواطن الضعف فى حاضر المسلمين، ورأى فى ذلك أن سببه هو التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية للغرب، وبت الصلة بين ماضى المسلمين وحاضرهم، ووجود حازر نفسى بين يومهم وأمسهم، وتلك

(1) İsmail Kara Osmangiu. Aylık dergi Sayı. 41,42,43, (İstanbul 1982).

الضدية التى تبدو بين الأقوال والأعمال وإن توهم بعضهم أنها تمت بصلة إلى الدين الحنيف^(١).

وليس يعنينا من شعره - وما أكثره - إلا ذلك الشعر الذى ذكر فيه غزوات الرسول ﷺ. إن ذكره لهذه الغزوات ورد عرضا أثناء حديثه عن أبيه الذى أسر وهو يحارب فى روسيا، فهو يقول:

(كان أبى غزوة بدر يتذكر، وحنين واحد والخذق، وفتح مكة، فى الحرب العالمية الأولى بروسيا عندما وقع فى الأسر، ووابل على مدينة باكو انهم، كان لا يمل من النافذة النظر، فما فى الجنوب من ربيع ولا قمر، لم يفتح باب سجنه سوى القرآن، كان له التفكير والسلوان)^(٢).

يحدثنا الشاعر عن أبيه، ونحن لا نظلم الحق شيئا إذا قلنا إن الأتراك خصوصا يوقرون الوالدين والأبوين والأسلاف كل التوقير، ولهم منهم كل التقدير، فهم يعتزون بهم اعتزازهم بأنسابهم وما كان لهم من مجد وعز فى الزمان الخالى. والأب التركى عند ابنه مسموع القولة مطاع، فضلا عن أنه فى الأغلب الأعم موضع إعجاب.

الشاعر يذكرنا بأبيه الذى وقع أسيرا فى الحرب العالمية الأولى فى أرض غريبة، وكأنما دفعه ذلك دفعا إلى تخيل أن أباه تذكر غزوات النبى ﷺ فنحن لا نستطيع بأن نقطع بأن هذا الأب كان يفكر فيها وإن كان ذلك غير مستبعد. وأيا ما كان فقد ذكرت قراقوج الحرب بحرب الإسلام أى بغزوات النبى ﷺ فذكر العديد منها.

وفى رأى الأرجح أنه ربط تفكير أبيه بالغزوات رغبة منه فى أن يذكر المسلمين بها، أو على التقريب شاء أن يذكر قومه الأتراك بالغزوات التى تعد بحق مجدا عظيما للإسلام لأنها وطدت دعائمه وشكلت كيانه. وهو حريص كل الحرص على أن يذكرهم بما كان لهم من سابقة فى المجد. إنه أورد ذلك فى مقامه الذى لا يخرج عنه وإن تجاوزه إلى سواه من وصف

(١) بانام دو شمدى بروقتل بدرى، خندقى أحدى جيعى، مكة لك أيتشتى، روسيا ده اسيركن، برمى جهاد صوا شلاه، قار ياغيوردى ناكوده، او كحه برم الدير، صوكره كرى ويرد بكرم ناكوده، طوليوردي آحيق سحره دن

(٢) بدران فليجلر بمارده قورسى، خندقك كثير دن قيو لحم، قواشادما صايدى حوره سيبى، مكة يه كيريش ودونوشرر براريش قابوسى، قردش قردشى ورمش اما بدره، يكى وكركك قرداشلق قورولمش

للطبيعة ووصف لأبيه الأسير، ولكن هذا الأسير التقى النقى انصرف إبان أسره إلى النظر في كتاب الله المبين لأنه وجد فيه سلوته وكشف غمته، وكان جميلاً من الشاعر أن يقول إنه فتح له باب سجنه، مريداً بذلك أن يبين ما للقرآن الكريم من أثر في نفس المؤمن، فهو يدعو إلى الإخبات والرضا بقضاء الله، وهذا ما يغمر نفسه بالسكينة والطمأنينة.

إن الشاعر يريد من وراء ذلك أن يبين كيف أن التمسك بكتاب الله فيه الخير كل الخير لمن هم به مستمسكون وكأنه يخصهم على ذلك.

ويمضي الشاعر ليؤيد ما أسلف ذكره، وذلك بأن يشير إلى السبب فيما صلحت به حال أبيه الأسير ذي السيف الكسير في سجنه، وملحوظ عليه أنه يتفكر ويتدبر ولا يهيم في الخيال المحال شأن الشعراء المعاصرين الآخذين بمنهجهم فيما يعرف بالشعر الحديث، فكلامه لا بد أن يكون له الأثر في العقول.

إنه عقب على ذلك بوصفه معركة المجاهدين فيقول:

سيوف بدر في الصلاة تلتمع وشرر الخندق يحوطه ويرتفع
لوم يكن شمة من سياج يقى وباب إلى مكة غير مطبق
في بدر قتل الأخ أخاه العنيد ولكن ظهر من بعد إخاء صدوق جديد

إن سرائي قراقوج في هذه الأبيات ينطق في جهازة عن روحانيته الدينية مقترنة بشاعريته العبقريّة. فكلامه عن بدر كلام عجب إنها معركة طاحنة نعم. إلا أنه يتحدث عنها على نحو خاص ويهتم بذكر سيوفها ويقول إن سيوفها تشرق في الصلاة. لقد جمع بينها وبين الصلاة وبين البريق أو الإشراف كأنما أضفى عليها صفة من بنات خياله وشاء أن يفسر الحقيقة بالجواز، لأنه جعلها سيوف المؤمنين الذين ليسوا عن صلاتهم ساهين حتى وهم يقاتلون. وهذا الإشراف نور ولكنه نور الإيمان الذي يشرق من سيوف هؤلاء المجاهدين في سبيل الله، ولعله كان على ذكر من تسمية النسي عليه السلام لخالد بن الوليد سيف الله المسلول فلا سبل إلى التفرقة بين السيف والجهاد ولا التفرقة بين النور الذي يبدو من السيف من نور الإيمان.

إنه لم يذكر معركة أحد ولعله استنكف من ذكرها لما عاقبتها، وهو إنما يريد التذكير بمساقب ومحامد المسلمين وما كان لهم من نصر في غزواتهم عاد بالخير على أهل لا إله إلا الله ذكر غزوة الخندق وأبى إلا أن يصعد منه الشرر.

إن هامة وحمة وحماسة هذا الشاعر فى الثريا لأنه عبر بهذا الشرر عن حماسته، وهو مزهو بحفر ذلك الخندق الذى كان سببا فى نصرة المؤمنين، ومع أنه كان للدفاع إلا أنه تخيله للهجوم، وتلك منه براعة أدبية. لقد جعله سياجا يدفع عن الأبرار عادية الكفار. ثم تخيل ما ترتب على تلك الغزوة إلى أن بلغ بخياله فتح مكة فجعل تلك الغزوة ما يسر فتحها. ويعود إلى بدر فيخطر على باله ما كان من مواجهة أبى بكر لولده ويرتب على ذلك فكرة يريد التعريف بها ونشرها فيجعل من تلك المواجهة مثالا للأخ وهو يواجه أخاه فى ساحة الوغى بقطع النظر عما بينهما من رحم واشجة. ويرى فى ذلك أبشع المآثم وأكبر الكبائر، ويسارع إلى قوله إن الدين الحق يكره هذا، ويزجر عنه، ويحذر منه لأنه دين الإخاء والصفاء والتسامح بكل معنى لتلك المثاليات والقيم.

إن سزائى قراقوج من الشعراء المعاصرين، وعهدنا بهم أنهم يقولون ما يقولون منبهما على الفهم ملتبسا حتى الخيال. إلا أن سزائى قراقوج فيما اخترناه له من هذه المنظومة يخرج على ما عهدناه عند سواه، فهو إذا ما اصطنع المجاز فتحت مجازه حقيقة لا يشك فيها وهذا المجاز يسم عنها.

لقد صور لنا هاتين الغزوتين تصويرا رائعا وإن لم يتعارض كلامه فى شىء عما تحدث به الرواة وبذلك حقق الغاية التى شاء تحقيقها من شعره.

ولا نبرح عن هذا الفعل من كتابنا دون أن نذكر شاعرا ثالثا نضمه إلى نجيب فاضل وسزائى قراقوج ذلك أنه يشبههم فى كثير. فهو يشبههم فى منهج تفكيره وفى نوعية حرفته الأدبية لأنه متلهما فى كونه شاعرا كاتباً قاصاً صحفياً مؤلفاً مسرحياً داعية إسلامياً. يريد ليصلح الدنيا بالدين. ذلك هو مصطفى مياس أوغلو.

إنه كذلك معاصر ولد فى مدينة قيسارية عام ١٩٤٦م ويهمننا من تعليمه أنه درس الأدب التركى فى جامعة اسطنبول كما اشتغل بتدريس الأدب.

ونشر أشعاره فى بداياته الأولى وهو فى مدينة قيسارية ثم والى نشرها فى مجالات أخرى. كما أسس دارا للنشر لنشر ما شاء يذيع ويشيع من مبادئه ومثله التى اتسمت بزعته الإسلامية الإصلاحية. ورأى فى الصحافة السبيل الأمتل، إلى نشرها على النطاق الأوسع. وفى أشعاره الأولى تقلبت أعراضه فى فنون شتى تقليدية وغير تقليدية إلا أنه اتجه من بعد

إلى الشعر فى التاريخ والدين، وهذا الاتجاه الجديد عنه هو ما بواه منزلة مرموقة كشاعر تركى معاصر له نزعة خاصة يريد لها تعريفا ونشرا على الملأ. ولقد ترجمت بعض أشعاره إلى العربية وغيرها. كما أنه اهتم بالتأليف المسرحى رغبة منه كذلك فى نشر أفكاره ومثله وإطلاع الجماهير عليها رجاء أن يقتنعوا بها. ومن أشهر ما نظم بمجموعتان الأولى بعنوان نداء الرؤيا وملحمة الهجرة^(١).

وهذا الشاعر الداعية الإسلامى بكل ما تتسع له الكلمة من معنى يذهب فى كل ما خلف من شعر ونثر إلى أن هو الأصل أو الدعامة الركينة التى تقوم عليها الحياة. ويؤكد ذلك ويؤيده بقوله: إنه ليس يكفى أن نؤمن بالإسلام كعقيدة، بل لزام مع هذا أن نجعل الإسلام فكرة أو قيمة نضعها موضع التطبيق ونوجه به سلوكياتنا.

وهذا الشاعر فى أشعاره بخاصة، يفسح المجال متراحب الأرجاء للجهاد فى سبيل الله، ولا يشير إلى الحرب بوصفه مجرد نزاع مسلح بين دولتين، بل يفرغ عليها صفة أخرى هى صفة الجهاد، وبذلك لا يدرك من معنى الحرب إلا أن تكون جهادا فى سبيل الله، فالجهاد هو تلك الحرب التى تنشب ذودا عن دين الله وكفى.

إنه بمثل هذا من رأيه يذكر بحقيقة محجوبة عن كثير من المفكرين، ومن ثم يزيد فى أهمية الجهاد ويسمو بروحانيته إلى الذروة ويزيد هذا الجهاد سموا على سمو وروحانية على روحانية عندما يقول إن الجهاد له غاية ما أعظمها وما أكرمها هى الشهادة ويستلزم أن يكون هذا الجهاد شعورا تحقق به القلوب وتموج به النفوس، مريدا بذلك طلب مرضاة الله والرغبة فى دخول جنته ويضيف إلى ذلك ربطه التاريخ فى وثاقة بكيان الأمم والشعوب قائلا إن التاريخ هو الماضى ولن يكون هذا الماضى منبت الصلة بالحاضر ولا بالمستقبل، وإذا عقدنا الصلة بين هذا وبين الجهاد أو الغزوات أدركنا فى التو أنه يجعل منها للمسلمين المجد التالد والتاريخ الماجد وبالتالي يعلى من درجتها ويعظم من أهميتها على أنه جزء له ما له من أهميته فى تاريخ الإسلام^(٢).

وما دام هذا مجمل رأيه فى نزعته الإسلامية التى يريد لها تعريفا وشيوعا وذيوعا فالمدرك منها أنه متفكر متدبر إلى كونه مؤمنا موقنا، وشاعرا مرهف الحس يسخر ملكته الفياضة فى التعريف بمبادئ الإسلام وأصوله ومثله كما أنه يختص الغزوات بالجانب الأهم الأعظم من

(1) İhsan İslık. Yazarlar sozlugu S 3,7. Istanbul 1990

(2) Mustata Mıyas oglu Hicret destani S 62 Istanbul 1981

عنايته ورعته في التعريف بكنهها والإعلاء من شأنها. فمن حقه علينا أن نرعى نظرة تأمل إلى طائفة من شعره في الغزوات.

وها هو يمهّد لقوله في غزوة بدر بكلام عام عن الإسلام في ازدهاره، مريداً بذلك أن يرجع السبب إلى تلك الحروب التي خاضها المسلمون جهاداً في سبيل الله فهو يعلى من شأن الحرب في الإسلام ويشيد بما كان من عظيم فضلها:

(اتفاق وغزوات وسرايا، وعلى الأيام دولة الإسلام تزكو وتزهو، إنما تحكم الزمان أصوات الهية، وتزكو بحماسة لتبليغ أرواح رضية)^(١).

ثم ينبىء لمواجهة هذه الغزوات، إلا أنه لا يواجه كلا منها على حده، بل يشملها بنظرة واحدة ويضفي عليها صفة واحدة.

إنه لا يريد أن يكون ذلك المؤرخ الذي يذكر الحوادث بالنص والفص ويحجج إلى الإجمال لا إلى التفصيل، رغبة منه في الخروج برأى واحد والتعريف. بحقيقة واحدة. إنه يفضي إلى النتيجة ولا يمهّد لها بكثير من المقدمات لأنه صاحب رأى يريد له أن يكون جامعاً مانعاً.

بدر وأحد والخندق، للمؤمنين بها ابتلاء محقق، فتح مكة في إثر خيبر، وأسلمت أرض العرب كلها على الأثر، انتقلوا إلى رحمة الله أجمعين، وبذلك كانوا من الخالدين. ما فيهم إلا من قضى أو كاد، فكان للروح إليه الميعاد)^(٢).

إن هذا الشاعر يختلف عن صاحبيه التركيين وكثير من شعراء العرب الذين ذكروا المغازي لأنه لم يكن متلهم شاعراً ملحمياً كل همه أن يصف حومة القتال ومصارع الأبطال ويتفنن في وصف سيوفهم ورماحهم ونجدتهم وهذا قصاراهم كما كان قصاراهم. بل شأنه على القريض من شأنهم لأن كلامه الذي يحمله أفكاره يمضي في سهولة ويسر

-
- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| (١) بدردي، أحددي، حدقدي | مؤملر سودكلي امتحان اولور |
| حيركو اردبدن مكه نك فتحى | بوتون عريستان مسلمان اولور |
| حقه يوردى هر برى صكره | اولبرى اولمسر لك السدى |
| كبرى فقير فقرا | اولوب ديريلمك قالمدى |
| (٢) اكلاشمه لى سريه لى عروه لى | كون كون اسلامك دولتى بيور |
| ترمان حكم اولور الهى سكر | تبليعك هيجانى روحلىرى بيور |

ويتداعى إلى أن يبلغ منشود الغاية التى يريد لها. إنه يتغنى بفضل هؤلاء الشهداء ويغبطهم على ما أعد الله لهم من جزاء، ويخرج بالغزوات عن مفهومها التى يسبق إلى الفهم ليضيف إليه مفهوما آخر يستمد من حلاوة الإيمان وطهر العقيدة ويؤكد أن هذه الغزوات لم تكن مجرد حروب تزدحم فيها أسماء المقاتلين ليس غير، بل أتاح لمن يتلقى عنه. أن يروح فى نشوة إيمانية حاملة تغمر النفس بالسكينة.

وثمة ملحظ آخر له هام من دلالة، لقد كان من هذا الشاعر أن ذكر كلمة .. اتفاق .. أو (تفاهم) بداءة فى شطر من شعر له عن الغزوات. ثم ذكر بعد ذلك وكأنما جمع لآلى فى سمط واحد. وهذا يرشد إلى أن التفاهم كان فى ذهنه ويقينه عند حديثه عن الغزوات، ولإيضاح ذلك جليا نقول: إنه شاء أن يقول إن النبى ﷺ إنما شاء التحاور والتشاور مع المشركين قبل أن يناشبههم القتال ولكنه من بعد حاربهم مضطرا دفاعا عن الدين ودفعاً لهم وزجرا. فما وضع السيف فى غير موضعه بعد تصلب المشركين فى عنادهم وإصرارهم على مكرهم وكيدهم ورغبتهم الملحة فى الإضرار بالمسلمين.

والشاعر بمثل هذا من إشارته اللاحقة إنما يريد التعريف بسماحة الإسلام والإعلان عن قيمه ومثله. إنه لم يعرض لذكر الغزوات مؤرخا كما عرض لها غيره من الشعراء بل انفراد عنهم بمثل هذا من الإشادة بتعاليم الإسلام فى رمزية لا تدرك إلا بعد عمق تأمل ودقة شعور.

وهذا فضل له لا يححد .

الباب الثالث

فى الشعر الأوردى

الفصل الأول

فى الشعر الأوردى القديم

الأدب أدب اللغة الأوردية القديم أدب إسلامى بتمام المعنى، وإذا قلنا إنه إسلامى خطر على البال أول ما خطر من ظهر الإسلام فيهم أول ما ظهر وهم العرب، وذلك ينساق بنا إلى حتمية أن تتمثل صلة العرب بشبه القارة الهندية ودخولهم عليها بالدين الخفيف، فما من ريب أن الإسلام لا بد أن يكون له أثره فى أهل الهند وفى تشكيل نفسياتهم وعقليتهم وبالتالى فى تعبيرهم الأدبى على نحو من الأنحاء.

يقول التاريخ إن العلاقات انعقدت وثيقة بين العرب وبين أهل الهند قبل فتح المسلمين إقليم السند فى أوائل القرن الخامس الهجرى، بل وحتى قبل البعثة النبوية فكان لتجار العرب وفادات على الساحل الغربى للهند، وكانت بعض القبائل العربية تستوطن مالابور، وقيل إن النبى ﷺ وجه بنفر من أصحابه إلى ملك من ملوك الهند هو راجا سرهانك حاملين معهم الدعوة فى الدخول فى دين الله، فأسلم هذا الملك وحسن إسلامه، وكان ذلك فى العام السادس للهجرة، كما قيل إن جالية عربية كانت تقيم فى منطقة على مقربة من بومباى قبل الإسلام.

وفى القرن السادس الميلادى قطن كثير من تجار العرب والفرس فى مناطق على ساحل الهند الغربى، وأسلم ملك مالابور مع أفراد أسرته وبذلك يبدو بتمام الوضوح أن العرب كانوا على صلة بالهند قبل الإسلام وفى صدره وها هو ذا الرحالة الأشهر ابن بطوطة يقول إنه ارتحل من كمهمبات إلى ساحل مالابور فشاهد المسلمين فى كل الأرجاء وهم فى أحسن حال^(١).

وفى هذا كله دليل صدق على أن قلوب أهل الهند رقت للإسلام فى فترة من الزمن متقدمة ولا بد أن يكونوا قد شكلوا مجتمعات متأثرة بأصوله وتعاليمه وأثروا فى غيرهم وأدخلوهم فى جوههم الروحى.

(١) د حسين محيى المصرى: مقدمة كتاب الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية، ليلى ص ٢٠ القاهرة ١٩٨٨ م.

وهذا كله يهيئ الروح الهندية للتعبير عما يعمر به قلب المؤمن وبالتالي يهيئ شاعرية المسلمين للقول بالدين الخفيف.

ولما كان الشعر لغة القلب يتحتم أن يكون هذا الوضع أثر في أشعار شعراء الهند من المسلمين فنطقوا عن إيمانهم وتعلقوا بمحبة حبيب الله ﷺ . وبالتالي تنسموا أخباره ومدحوه، ولا بد أن يكونوا قد ذكروا غزوته ضمنا في تعرفهم لسيرته. وثمة ملحظ آخر لا يسعنا أن نغفل الإشارة إليه. وهو أن دولة هي الدولة الغزنوية تأسست في إيران الإسلامية وسلطانها هو محمود الغزنوي المعروف بغزواته في الهند وتحطيمه أصنام غير المسلمين فيها حتى أصبح اسمه في التاريخ (بت سكن) بمعنى محطم الصنم فهو عاهل مسلم بمعنى الكلمة، كما أن عصره يعد العصر الذهبي للشعر الفارسي، وعاصمة ملكه غزنة كانت مثابة للشعراء وانتسب إليها أشعر شعراء الفارسية، واتفق أن ارتحل كثير من شعراء هذه الدولة إلى الهند منتجعين كرم حكامها وازدحمت بهم مدينة لاهور على الخصوص حتى قيل إن لاهور هي غزنة الأخرى وكان هؤلاء الشعراء من أهل السنة خاصة أن الدولة الغزنوية كانت دولة إسلامية سنية وكان عاهلها السلطان ممن يعلنون من شأن المذهب السني.

هؤلاء الشعراء الفرس ذاعت أشعارهم الفارسية في أرض الهند، ومهدوا لدواوينهم وكتبهم المنظومة بالنعث وهو وصف لشمائل الرسول ﷺ ومدح له وتعريف بسيرته والمترتب على ذلك في الفهم أن يكون هؤلاء الشعراء قد لفتوا المسلمين في الهند إلى سيرة الرسول ﷺ لما وقع من أشعارهم في النفوس موقع الإعجاب.

كان هذا في القرن الرابع الهجري.

وإذا انتقلنا إلى القرن العاشر وجدنا في إيران دولة تعرف بالدولة الصفوية وهي دولة شيعية.

وكان حكام تلك الدولة يتعصبون لمذهبهم الشيعي على كل مذهب آخر، ويصدون الشعراء عن النظم في فنون الشعر التقليدية المعلومة، ويرغمونهم على النظم في مدح ورثاء أئمة الشيعة.

ولم يرتض أهل السنة والصوفية وهم من أهل التسنن سياسة الصفرين الذين تزموا وقيدوا حرية العقيدة، وضيقوا الخناق على الروح المؤمنة في شطحاتهم، فلم يقلوا غير التشيع مذهباً، كما عمت عقائد الشيعة الإمامية مع عقائد الصوفية.

وكان الكثرة الكاثرة من شعراء الفرس من المتصوفة^(١) ورأى بعض الشعراء كساد بضاعتهم فى إيران فارتحلوا إلى الهند بعقيدتهم وحريتهم فى نظم الفنون التى يروق لهم النظم فيها، وشدوا المطايا إلى ملوك المغول فى الهند، وكان هؤلاء الملوك يصيرون الشعراء ويسمونها جاحا من رعايتهم على الشعراء^(٢) فأقبلت الدنيا على شعراء الفرس الذين ارتحلوا إلى الهند بعد أن أدبرت عنهم أثناء مقامهم فى إيران. ومما يدل على ضيقهم ذرعا بالحياة فى إيران ورغبتهم فى مزايلتها قول شاعرهم: (يا له من مغمور فى أرضه غريب، كسير القلب ما له سوى المحنة من نصيب)^(٣). وفى الهند راجت أشعار الفرس كما أن الشعراء الهنود الذين تعلموا الفارسية تأثروا بالفرس، ونظموا فى الفارسية والأوردية وفى أشعارهم مدحوا سيد المرسلين ﷺ وترددت أشعارهم على الألسنة وانشرت لها القلوب المؤمنة لما فيها من ذكر للنبي ﷺ.

وكفى بما أسلفنا ذكره أن يقوم برهانا على أن فنا أو اتجاهها جديدا دخل على الشعر الأوردى، ألفينا من شعراء الأوردية من نظموا فى غزوات الرسول ﷺ ومنهم شاعر يسمى (شيدا) وله مثنوى بعنوان إعجاز أحمدى. والمثنوى منظومة يتفق فيها روى الشطرين ولا يلتزم فى بقية المنظومة، وهى منظومة طويلة قد تألفت من آلاف الأبيات، والشاعر فيها طويل النفس لأنه غير مقيد بقافية واحدة، ويستخدم هذا النمط فى الشعر القصصى والملحمى فى الفارسية والتركية والأوردية.

وعنوان هذه المنظومة دليل على محتواها، فهذا الشاعر - وإن يكن مغمورا - اختار لمنظومته ذلك العنوان الذى يدل على باعث الشاعر على نظمها لهذا المثنوى، وحسبه أنه يسميه إعجازا وينسب هذا الإعجاز إلى النبي ﷺ لندرك من ذلك أنه إنما شاء أن يورد سيرته العطرة وأن يصف مغازيه على أنها جزء لا يتجزأ منها، ولم نستطع سبيلا إلى الاطلاع على هذه المنظومة وحسبنا هذه الإشارة ما دمنا نعجز عن إيراد العبارة.

وشاعر آخر من شعراء الأوردية هو (محمد باقر آگاه) وله مثنوى بعنوان (هشت بهشت) بمعنى ثمانى جنات، وفيه يدور كلامه على معجزات الأنبياء قاطمة ويؤكد أفضلية

(١) نيسارى' تاريخ ادبيات ايران بعد اسلام (دفتراول) ص ٥٢.

(٢) سيد محمد هادى' زبان فارسي درهند ص ٢٢٧ (ايرانشهر شماره ٤ تيرماه ١٣٠٥)

(٣) ركماسى شهرخود عريى .. شكسته خاطرى محبت نصيبى

محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، كما يذكر الآخرة وعذاب القبر إضافة إلى حديث طويل عن السيرة النبوية وما تتضمنه من ذكر ووصف للمغازي، ومن أسف أننا لم نطلع على هذين الكتابين إلا أن ذكرهما كان أمرا لا مندوحة عنه، وما دلك إلا أنهما كانا باكورة فن شعري وجد من بعد من توفر عليه وأتقنه أيما إتقان. فكان لزاما أن نشير إلى هذين الكتابين على أنهما كانا في الأغلب متلين احتذاهما أكثر من شاعر حديث. ولقد وددنا أن نذكر عنهما أكثر مما ذكرنا ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وما لا يدرك جله لا يترك كله، وحسبنا أن نكون قد تمثلنا بداية لهذا الفن لتتصور تاريخنا أننا لم نذكر شيئا عن الشعراء المغمورين كما لم نورد أمثلة من شعرهما ولكن سوف نورد أمثلة لشاعرين حديثين من بعد ونعقد فصلا لمنتخبات نظمناها عن الأوردية وبذلك أكملنا ما رأينا نقصا في هذا الفصل من فصول يتلوه، وأقمنا كيانا قائما بذاته للشعر الأوردى في غزوات الرسول.

الفصل الثاني

فى الشعر الأوردى الحديث

إذا جاء الترتيب على العصر الحديث وجدنا أن الشأن فيه مختلف عما كان فى العصر القديم وذلك من حيث الأمثلة التى يمكن إيرادها لشعر الغزوات.

ولإيضاح ذلك وتقريبه إلى الفهم نقول إننا لم نجد أمثله يوردها من الشعر الأوردى خاصة بالغزوات فى العصر القديم، وإن كان من الحتم علينا أن نتحفظ ونحدد كلامنا قائلين إننا لا نقصد إلى القول أن الشعر الأوردى القديم يخلو من شعر للغزوات. فلقد صرحنا بأننا لم نستطع سبيلاً إلى نصوص نوردها أمثلة وبذلك فنحن لا نبني حكماً على موهوم وإنما نبسط العذر ونكتفى بالإشارة.

والأمر مختلف فى العصر الحديث فحسبنا أن نقول إننا نقع على وفرة من الشعر الأوردى الحديث فى غزوات النبى ﷺ وذلك عند شاعرين هما جالندرى وحعفرى فقد نظم كل منهما فى الغزوات ضمن كتابين منظومين لهما فذكرنا الغزوات طويلاً، بل وتفصيلاً.

وحفيظ جالندرى من شعراء الطليعة فى الأوردية من مواليد عام ١٩٠٠م وشعره متميزه بالجدّة لأن له طابعاً يخرج به على المألوف كما أنه خصب الخيال تغنى بوصف الطبيعة على نحو خاص، لأنه نظر فيها نظرة تدبر وتفكر وعبر عن إثارتها فى نفسه التأمل فى قدرة البارى وبعثته على النظر فى خلق الكون بما وسع.

إنه يذهب مذهب الصوفية فى اعتقادهم أن جمال الطبيعة منبثق من جمال الله ومن وصف محاسنها سبحانه (١).

لقد أخرج مجموعتين من الشعر إلا أن القاد لم يلقوا إليهما بالا ولذلك عقد العزم على أن ينظّم تاريخ الإسلام وذلك فى منظومة له بعنوان (شاهنامه إسلام)، لقد اطلع واسعا على التراث الشعرى لأسلافه الشعراء وتأثر بهذا التراث، غير أنه أضاف من عندياته الكثير إليه. فجدد فى الشكل والأسلوب. لقد نظم فى وصف الطبيعة وأطال وتساءل النقاد عن سبب انصرافه عن نظمه فى الطبيعة إلى النظم فى تاريخ الإسلام. وقال قائلهم إنه ربما شاء لصيته

(1) Braginaky Amologia Tdhiakova Poesu S.12 (Moskva 1956).

أن يذيع^(١) والذى عندنا أن هذا التساؤل لا وجه له. فالشاعر أى شاعر كان أن ينظم فى أى فن فله أن يخرج من النظم فى الطبيعة إلى النظم فى التاريخ الإسلامى وليس بدعاً أن ينصب اهتماماً على فن يطيب له النظم فيه ومن الصعوبة بمكان أن نرد ذلك إلى سبب وإلا كان ذلك منا تحكماً لقد عرفنا عن هذا الشاعر أنه كان ينظر فى الطبيعة نظرة المتأمل الذى يرى فيها مرآة يتجلى فيها بديع صنع الخالق، وفى هذا ما فيه من ترسيخ للإيمان فى قلبه مما يثير فيه رغبة ولا شك فى أن ينظم تاريخ الإسلام بعد أن رق له قلبه واقتنع به، هذا منا تطنن إلا أنه أقرب ما يكون إلى التيقن، ونحن نعلم أن الصوفية يرون جمال الله فى جمال الطبيعة ووحدة الشهود عندهم هى التى يشاهدون بها الله فى خلقه. فلم يبق بعد ذلك سبب يدعو إلى ما كان من تساؤل وتشكك وإقامة كيان لأحكام على غير أسس. إن صاحب هذه المنظومة يؤيدنا فيما قررناه وذهبنا إليه فى جزم ويقين فى سبب إخراج هذه المنظومة:

وددت أن أصنع شيئاً فى دنيائى، وليكن أقل القليل ولكن فى خدمة الدين الحنيف. لقد غمر اليأس أمة المسلمين، وأصبح الحاكم أبكم كأنه ليس من الأحياء، فقدبا الهمة والعزم والجرأة والإدارة وظهرت فى الآفاق حشرات وحشرات، ولم يعد من أثر للسواعد الفتية التى تحرك السيوف كما كان الشأن فى الزمان الخالى، تلك السيوف ذات الصليل، وسكتت أصوات تصعد التكبير، وما فى الدنيا ذلك الحاكم الذى يعشق النبى الكريم ﷺ لقد تناسوا جدهم. ففى نيتى أن أفعم هؤلاء همّة وحمية كالشأن فى ماضى الزمان. ولسوف أذيب منهم قلوباً تصلبت وتحجرت بأشعارى التى تذوب برقة الشعور، وشئت أن أشرح لهم الأحداث وأذكرهم التاريخ الحق، وأدلهم على طريق يسلكون. لقد (..) الفردوسى إيران ولو شاء الله أسعى أنا فى تجديد الإيمان^(٢).

إنه يصدقنا القول عن السبب الذى حداه إلى نظم منظومته التى سماها شاهامة الإسلام معارضاً الفردوسى إلا أنه لا يسوى منظومته بمنظومة الفردوسى. فالفردوسى إنما شاء أن يؤرخ للملوك وأبطال إيران منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامى لفارس، فمجدهم ما شاء الله أن يمجدهم مريداً بذلك أن يعبر عن شعوبيته، أى تعصبه للفرس على العرب، مبيّناً أن للفرس سابقة فى المحد وهم أحق بالسيادة من العرب، وكلامه تاريخ منظوم تمتزج فيه

(1) Mohammad Sadiq: A history of Urdu Literature P390 (London 1964).

(2) Mohammed Han Kayan – I sahnām Islam, S.33 Sayi 4.

الحقائق بالأوهام. كما يلبس الواقع بالخيال وهذا قصاره. أما هو فإنما يريد لنفسه أن يكون داعية إسلاميا بالمعنى الحق ورأى ما آلت إليه أحوال المسلمين فلم تعجبه وأراد أن يصلح من أحوالهم وذلك بهدایتهم للتي هي أقوم ووسيلته إلى غايته أن يذكرهم ما نسوه أو تناسوه من مجد الإسلام ويعلمهم ما جهلوه من أحكام دينهم مؤكدا لهم ضرورة الوقوف عند أحكام الدين الخفيف لأن في هذا صلاح أمرهم في المعاش والمعاد. فالجالندري مصلح إسلامي مؤرخ ثبت لتاريخ المسلمين، ولما كان مؤرخا للإسلام وجد ضرورة أن يؤرخ غزوات الرسول ﷺ ضمن ما أورد من تواريخ على أن هذه الغزوات جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ المجيد، والغزوات هي الجهاد في سبيل الله ركن من أركان دين الله هو به متصل وعنه لا يفصل.

كان بوده أن يستجيب بهاتف في نفسه يهيب به أن يحيى أحاسيس المسلمين، يرغب إليه أن يبدأ منظومته باسم الله ورسوله ولتكن هذه المنظومة مباركة. وتوفر على إنجاز عمله فأرح للإسلام في آلاف من الأبيات حوتها أربعة مجلدات، وأنجز عمله هذا في فترة من الزمن تمتد من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٤٧. ويلحظ عليه أنه لم يبالغ في التخيل والتمثيل، بل تحرى الحقيقة ولم يخرج عن إطارها لأنه أراد بالمتلقى عنه أن يقتنع بها اقتناعا جازما إن حفيظ جالندري يحيى التاريخ ابتداء من خلق سيدنا آدم حتى البعثة النبوية مع صحابته من المسلمين حتى قبيل غزوة بدر، وفي المجلد الثاني ذكر غزوة بدر وفي الثالث يصف غزوة أحد وما ماجت به من أحداث. أما في الرابع فيؤرخ فيه الفترة التي بين موقعة أحد إلى حرب الأحزاب. وفي هذا ما فيه من دلالة على اهتمامه البالغ بتاريخ غزوات الرسول ﷺ وكأنما جعلها لب لباب منظومته الإسلامية.

ولقد أسماه بعض الصحفيين مصباح البيت المطلم، أى أنه أثار العقول والقلوب بتوجيهه الحكيم وترشيده الصادق.

لقد صادفت منظومة جالندري هذه هوى في النفوس وكانت لها سيورة واسعة في الناس على اختلاف طبقاتهم، لأنه التزم بالحدث التاريخي وعبر عنه تعبيرا بليغا، لقد وصف الشاعر صفات ومحاسن السلف الصالح وحل من نفسه معلما ومربيا للجيل الحاضر ذلك الجيل الذي يعد فقيرا إلى صفات وحلق السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ^(١).

(١) د سميع عبد الحميد إبراهيم. الأدب الأوردى الإسلامى ص ٧٠٣، ٧٠٤ (الرياض)

ولم يبق بعد هذا إلا أن ننظر في هذا الشعر لتتعرف بعض خصائصه في أمثلة منه نقلناها إلى الشعر العربي.

إنه يذكر موقعة بدر تحت عنوان فضل غزوة بدر وكلامه عنها كلام مسلم مؤتلق القلب بالإيمان فضلاً عن أنه يتحدث عنها حديث من يفخر بها فخره بما مكان للمسلمين من فضل في ماضى الزمن. إنه يتحدث بلسان الجماعة مبيناً بذلك أنه يريد لينطق عن المسلمين أجمعين، لأنه إنما يتغنى بمناقبهم ومحامدهم. ويريد ليطلع الأجيال الخالقة في الزمن الحاضر على تاريخ الأجيال السالفة في الزمان الغابر. إنه معتز بهذه الغزوة على أنها كانت النصر المبين للمؤمنين على المشركين، ولا يفوته أن يذكر من نسي أو يعرف من جهل بأن هذه الغزوة ذكرت في كتاب الله الكريم وأن الله أنزل ملائكته ليشهدوا أزر المسلمين، وبذلك تتجلى المعجزة:

عززنا بفضل جهاد لنا	أطعنا صبرنا ولننا المنى
قرأنا منه نعم الدليل	فنصر بيد عديم المثل
وفى سورة جاء هذا الخبر	ملائكة أنزلت كالمنى
وما كان حول لأهل اليقين	ولكنهم بددوا المشركين
مضت فئة ما لها من حسام	وغير الشهادة ما من مرام

هذه الطائفة من الأبيات يؤيدها واقع التاريخ، والشاعر لا يتجاوز الحقيقة إلى الخيال، ومن الحق قولنا إنه كان في غنية عن أن يجنح إلى الخيال لأن ما ذكره يقع في النفس موقعه ولا حاجة فيه إلى تحسين وتزيين وما أشبه بالجمال العاطل الذي لا تمس الحاجة فيه إلى حلى ولا زينة، إنه لم يسر على طريق أصحاب الملاحم الذين يصفون الأبطال بما هو عين الخيال وبصرفون الحقيقة عن وجهها بكلام يركبون فيه الشطط مما يجعل كلامهم سائغا في الذوق في حين وغير سائغ في أحيان ولا عجب فإنه يقف منا موقف الواعظ المذكر والقائل وقوله الصديق فكلامه لا يقبل الشك والمراء، وكان هذا غاية أمله، ويستوقفنا البيت الأخير من هذه الأبيات الذي يقول فيه:

من الله سخط على من بغى ويرضى على من رضاه ابتغى

وبمثل هذا من قوله بسوف حكمه إلا أنه في الوقت ذاته يؤكد أن المجاهدين من المسلمين أبداهم الله نصره لأنهم سعوا في مرضاته وناطوا آمالهم بالشهادة لما وراء الشهادة من نعيم

مقيم، وهو كذلك يبين كيف كان سحق الله على المشركين وأنهم أخذوا بكفرهم وانهزموا بظلمهم.

وتحت عنوان (مشاهدة بدر) يصف المحاربين، ولكنه يصفهم لا بنجدتهم وبسالتهم بل بإيمانهم الذى كان عمدة السبب فى انتصارهم، إن هذا الشاعر شاعر فكرة يريد أن يبين عنها، ورغبة يريد تحقيقها فيهيئ لها السبب والوسيلة. إنه لا يميل إلى وصف الغزاة بالعنف بل يقول:

وفى يوم بدر رأينا الغزاة كمن سارعوا قبل فوت الصلاة
هو الحق فى يوم بدر غلب وما ثقة القوم إلا برب

إنه يرسم لنا صورة واضحة المعالم للمجاهد فى سبيل الله يجليها فى كل ملاحظتها ويريد ليقيم قاطع البرهان على أن هؤلاء المجاهدين ليسوا كغيرهم من المحاربين، إنهم يستندون إلى إيمانهم قبل أن يستندوا إلى قوتهم وعتادهم.

ويمتد به القول ليعقد الموازنة بين غزوة بدر وغزوة أحد ويلفت المتلقى إلى ميزان الفرق بين هاتين الغزوتين:

ببدر غزاة أطاعوا الرسول وفى أحد حمستهم عقول
نبى الهدى حاربوا الشرك قال مدينتهم عادروا للقتال
وفى أحد مشهد ما ظهر بدت محنة عيرة للبشر

يريد ليقول إن المجاهدين فى بدر صدعوا بما أمر رسول الله ﷺ، فكان النصر حليفهم إلا أنهم فى أحد ذهلوا عن طاعته وزايلوا المدينة.

حسام له العمدة حقد الصدور عدو مبين لقلب طهور
أكات عقارب أو ذى سيوف أكانوا أفاعى تبعى الحتوف

إنه يعرض بعض التشبيهات إلا أن تشبيهه ليس تشبيها إبداعيا، أى أنه يضع شيئا مقابل شئ، وله حيال يخرج به بعض الخروج على المألوف، فإذا ساغ فى الذوق تشبيه السيف بالأفعى فليس يسوغ تشبيهه بالعقرب، وإن أحسن فى جعل حقد الصدور عمدا للسيوف. ويأتى الشاعر بعد ذلك بالمستطرف المستطرف لأنه تحت عنوان (نساء قريش) فى الأردية يجرى كلاما على ألسنة نساء قريش وهو يتمثله جاريا على غير قرشيات وهو يعارض أياتا

كانت هند بنت عتبة تنشدّها على رجال قريش المحاربين لشحذ همهم وإضرام الحمية في صدورهم ودفعهم دفعا إلى القتال والنزال، إنه موفق في هذه الأبيات وقد أضفى عليها لونا غير لون، ما أشبهها من كلام العربيات وضمنها خيالا يختلف اختلافا بينا عن الخيال العربي.

ألا إننا البرق في نوره	وفي الليل نار بديجوره
وما نحن إلا بنات الضياء	ومن غيرنا في ظلام أضواء
نسير على بسط من حرير	كأن الطيور الهوينى تسير
لنا طرر يا لها من عبر	تصاعد من قلب زهر نضير
ألا إننا البرق في نوره	وفي الليل نار بديجوره

إنه يريد لهؤلاء النساء أن يثرن حماسة المحاربين ويأمرنهم بما ينبغي أن يكون منهم ويجدر بهم في حومة القتال، وينطقهن بكلام يحرك كوامن نفوس الرجال:

وإن كان فيكم شجاع همام أتانا بشلو لهم أو بهام

على غير رغبة منه عليه الصلاة والسلام، كما أنه أمرهم بعدم الهبوط من الجبل، إلا أن الطمع في الغنائم استبد بهم ففترت همهم عن الائتمار بأمر النبي ﷺ.

والشاعر بذلك يخرج من ذلك إلى قول حكيم فيه تبيان لوجوب الطاعة لأن مقابل الطاعة فيه الخسار وهكذا يلتفت الشاعر بين الفينة والفينة إلى حكمة يسوقها ونصيحة يبذلها أخذًا العبرة من تاريخ المغازي.

ثم يتحدث عن أبي سفيان فيصف ملامح شخصيته وخصوصية نفسيته ويبين ويعرض لموقفه من الرسول ﷺ. وكلامه مطرد معناه في ظاهر لفظه يحرك الأحداث في سرعة وكأننا نطلعنا على صحيفة في كتاب تاريخ لا يهتم بتحسين العبارة وإن كان كلامه من السهل الممتنع ثم يختم كلامه بقول:

وقام ابن حرب لثأر يريد	ليوم بيدر فنادى اليهود
هده الإله إلى دينه	أخيرا وأسلم في حينه

فلو كان الشاعر قال ما قال، على مكث وتأن لكان أحسن، ولو أضاف إلى هذه الأحداث السريعة نفحة من شاعريته لكان يستحسن، إن أنا سفيان اهتدى بعدما كان من

قبائحه ونقائصه وبشاعاته وشناعاته، فيا ليت الشاعر وقف وقفة أمام انتقاله من نقيض إلى نقيض، واستلهم شاعريته في التعبير عما وقع.

ثم تداعت أفكاره لذكر هند على أنها زوجة أبي سفيان، إنه أحسن عرض صورة لها لأنه جردها من أنوثتها وجعلها امرأة شريرة صخابة متسلطة على الرجال تسلبهم إرادتهم في تصلب وعناد، وهي في عنفها تزرى بمن يواجهها بالغما ما بلغ من الرجولة. ولقد فطرت على الرغبة في البطش وعمل السوء. لقد أصاب صفتها إلا أنه لم يحدثنا عنها حينئذ ودنا أن نسمعه منه وهو شرح الكيفية التي أقدمت بها على استلال كبد حمزة من صدره وجعلها في فمها تلوكها في وحشية الضواري.

إن جالدرى ينساق مع الأحداث على أن ذلك حسبه وهذا ما يجعله معجلا عن أن يقف بينها وقفات ويوفيهما حقها من إضفاء شيء من شاعريته عليها، وهو مع ذلك لا يراعى التسلسل في سرد الأحداث لأنه يذكر حادثا ثم يعقب عليه بذكر حادث وقع قبله، فتحت عنوان قبيل غزوة أحد يبدو أكثر اهتماما بفن القول أي أنه يبدو شاعرا أكثر منه مؤرخا أو ناظما:

وجيش قريش أعد الصفوف	وقواده في انتباه وقوف
عتادا عظيما لكم فاجمعوا	ودلك مغنكم فلتنعوا
فراش لكم حضنه تدخلون	وفي أرضكم تلك يوم الركون

ومن الحق قولنا إن هذه الأبيات التي أجراها على لسان بنات قومه وعارض بها الأبيات التي قالتها هند تفضل الأبيات التي عارضها. لقد أحسن ولا ريب في جعل هذه الأبيات ضمن ذكره للغزوات لأنه صرف السأم عن نفس المتلقى عنه خاصة أن ذكر هذه الغزوات على هذا النحو العاجل قد يبعث في النفس الملل.

وقال عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

على وجه حير البرايا ابتسام	وصمت وفي العين بغض الكلام
وفاز على بحب الرسول	وفى نفسه قطرها من مثل
وبارز طلحة وهو البطل	أما رنه الليث إما قتل

هذا ما قاله عن حب النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعن شجاعته، وبما لبت الكلام امتد به في هذا الصدد ولو قليلا لأن مجاله لا شك يتسع والقول فيه تفصيلا ما

ينبغي أن يكون، لذلك نرى من الخير أن نورد أبياتا من الشعر العربى العامى نجعلها مقابل ما قال ليبدو الفرق واضحا بين شاعر الأوردية هذا والشاعر العراقى الذى قال:

ففى هذا الشعر العامى يكمل ما قد يبدو نقصا فى شعر جالندرى ويرشد إلى أن عليا كرم الله وجهه الأجدر بما يعين رفعة مكانته فى نفس الرسول ﷺ ويبين أنه فى شجاعته منعدم الند.

حبك يا حيدر	فرض من بارى الكون
بمحكم الآيـة	ونص الرواية
يا على كل اليحبك حبه البارى ونيه	
لا فتى بالكون مثلك	يا على ولا سيف مثله
وسيفك الارده الوليد	وحنظلة وشيه وعتبه
يوم بدر وعظم باسك	يا على العالم وعت به
وبأحد سيفك لميعه	جالبرق تلتهب ناره
وأنت يكرار بذات	الفقار تجاهد الكفار ^(١)

وتجاوز عنوانا هو وحشى؛ لأن ما يندرج تحته من كلام لا غبار عليه، إلا أنه لا يمدنا بجديد ولا مزيد لأن الشاعر إنما ذكر الحقائق لا يزيد عليها ولا ينقص منها. ويعود إلى ذكر بدر وأهم ما يشير إليه هو أن النبى ﷺ تجاوز عن أسرى المشركين وشملهم برحمته، وبذلك قدم الأسوة والقدوة لمن أرادوا أن يدركوا ما للرسول ﷺ من خلق عظيم وما عرضه على الملائ من مثل الإسلام وقيمه.

وجميل مه فى وصف ليلة أحد أن يقابل بين شأن المؤمنين وشأن المشركين، أنه لا يبالى بنصاعة الديباجة إلا أنه يعرض واقع الأمر عاريا عن زينة اللفظ، ولا يقول إلا حقا يستقيم فى الفهم مما يبلغه غايته وهى تعميق الأثر فى النفوس.

هم المسلمون وإيمانهم	ولكن قريش وشيطانهم
هنا متقون وهم ساجدون	هنا لك خمر لهم واجدون
هنا من يصلى طوال الدجى	هنا لك من كأسه المرتجى

(١) عد الكريم الكربلايى. المطومات الحسية ٣٧، ٣٨ (الجف الأشرف)

يؤم الأنام نبى كريم
إله لهم ها هنا يعبدون
وشيطان قوم مضل رجيم
هنالك أصنام قوم مؤن

ولما كانت بضدها تتميز الأشياء وفق الشاعر بلا ريب فى الإبانة عما يريد له تبياناً
وجاد بالحق ليعليه مقابل الباطل فأبرز للعيان واقع الحال.

وبعد أن يشير إلى معركة أحد إشارة لائحة، يحدثنا عن فزع المشركين من حمزة فوصف
حمزة وهو يجندل أشجع الشجعان فى حربه، ويصفه دون تجاوز للحد فى إجراء الصفات
عليه، ولا ينجح إلى المبالغة مما يجعل كلامه حقاً تسكن إليه النفس.

ونتجاوز أبياتاً لنبلغ عنواناً هو (رأى سلمان الفارسى) وبعده عنوان (حفر الخندق)،
وبعده عنوان آخر هو (حبيب الله مشاركا فى حفر الخندق) وفى ذلك يقول:

وذلك أين لأجد السبيل
بأمر من الله ما قد صرع
لدى المصطفى ما له من مثيل
سما شأنه فى الورى وارتفع

إنه يعزو ما كان من النبى ﷺ إلى أمر من الله، وبذلك يحيط هذا الخندق بهالة من نور.
ويذكر بالقوى الغيبية والمشيمة الإلهية. إلى أن يلتفت ثانية إلى قريش ويشدد عليها النكير
لأنها تحببت فى غياهب الضلالة فما اقتدرت على التمييز بين حق وباطل وخير وشر،
ويؤكد أنها لو كانت اهتدت بهدى الدين الحنيف لكانت جابرتها فى التراب.

وللظلم صرح هوى فى التراب.

وحسبنا هذا القدر من منظومة جلندرى .. مخافة أن يطول بنا الكلام ويضيق عنه المقام.
وللتفت بعد ذلك إلى شاعر آخر هو (جعفرى) وهو شاعر معاصر معاش له منظومة
بعنوان: (تاريخ الإسلام) كأنما عارض بها منظومة جلندرى.

أما صاحب هذا الكتاب أو شاعر هذه المنظومة فهو سيد منير على جعفرى الذى ولد
عام ١٩٣٧م، وهو ينحدر من أسرة جل أفرادها أهل علم وفضل. فكان لذلك أثره فى
شخصيته وسلوكياته ومجرى حياته. يقول من ترجم له إنه من شعراء باكستان الفحول
ناضج الفكر خصب الخيال، وكان فى بدايته الأولى حين أدركته حرفة الأدب ينظم الشعر
الصوفى الذى يراجع له أبوه الذى عرف عنه أنه كان أهل تقوى وعبادة. وقد أفضى ذلك
بجعفر إلى أن يطرق قضايا الفلسفة والأخلاق فى شعره.

هذا ما تأتى لنا أن نقع عليه من سيرته، وننتقل إلى منظومته التى عنوانها (تاريخ الإسلام) والتى ضمنها ذكرا لمغازى الرسول ﷺ على أن هذه المغازى فى صميم تاريخ الإسلام والدعوة وسيرة ريوله عليه أفضل التحية وأتم السلام، وإن دل ذلك على شئ فإنه قاطع الدلالة على أن النظم فى هذه المغازى يقيم لها كيانا مرموقا فى الشعر الأوردى الحديث كما كان شأنها فى الشعر العربى والتركى والأوردى قديمه وحديثه. إن هو إلا يؤرخ، وبناء عليه لا يلقى بالا إلى التعبير عن الشاعرية بما يستلزمه من تأنىق فى العبارة والتحليق فى الخيال كل محلق.

ها هو ذا يظهرنا على المنهج الذى سار عليه فى نظم منظومته حين يسلسل أحداث التاريخ متحدثا عن غزوة بدر:

بمكة قوم وقد أيقنوا	بشأن النبى وذا أعلنوا
لهم عزمهم بعد طول الفكر	على هدم دين النبى استقر
وبعد اجتماع لهم قرروا	وفى هدم دين الهدى فكروا
وكل كمى حساما حمل	إلى يثرب للقتال ارتحل
ولما الرسول تلقى الخبر	بيال المجاهد ماذا خطر؟
وأهل الهدى بشروا بالجهاد	والله أكبر فى كل واد

بمثل هذه الطائفة من الأبيات يمهد لتأريخ غزوة بدر وكلامه معناه فى ظاهر لفظه ولو أن مؤرخا شاء أن يمهد بكلام لهذه الغزوة لما كان كلامه أوضح من هذا لخلوه من كل تكلف وتعسف وتضمنه للحقيقة دون إضافة إليها أو نقص منها. والشاعر لا يفوته أن يكتفم شعور المؤمن الموقن ويلتفت إلى أن الله نصر المسلمين بفضل المصطفى ﷺ، وكان هذا النصر سند الإسلام الركين وأساسه الذى انبت عليه أحكامه وتعاليمه فانتشرت فى جميع الآفاق.

إن الشاعر معبر عن هذا فى اعتزاز به فهو القائل:

عديد قليل قليل لنا	ونصر الإله لنا حسينا
إذا ديننا الحق هذا انهزم	فإسلاما فى الوجود انعدم
دعاء النبى هو المستجاب	بسحق ومحن عداه أصاب

والشاعر ظاهر الميل إلى أن يورد حقائق التاريخ متعاقبة تنحدر من ماء واحد. وفي هذا يبدو أكثر حرصا وميلا من جالندري. إنه يذكر الأعلام ويوردها في كلامه نقلا عن كتب السيرة وكأنما هو ينظر في كتاب من كتبها لينقل عنه، ولكن في صياغة شعرية، وتتجاوز أبياتا لنجده يقف وقفة عند أسارى بدر وما كان من عفوه ﷺ عنهم تكريما، وانفرد بهذا من رآه على حين أشار عمر بن الخطاب بقتلهم، وهنا نلمح الفارق بين اللين والعف والنبي ﷺ وهو يعرض الأسوة ومن لا يهم يعرضها، وهو كذلك يشير إلى أبي بكر الصديق كان رآه وسطا إلا أنه حبذ الفدية على أن تكون بالمال أو تعليم عشرة من أبناء المسلمين وبذلك يوقفنا على ثلاث شخصيات لم يتفقوا على كلمة وأتاح لنا أن نعلل ما كان لهذه الشخصيات من تخالف وتباين ويمدنا بالدقائق والحذافير التي نخرج بها من تاريخ الإسلام.

بى الأنام يحب عمر	ولكن بقول العتيق أمر
فخلى سبيلا لهم من كرم	وقال ادفعوا فدية لا جرم
ألا إنها فدية من كرم	من العلم أنصاره ما حرم
بتعليمهم كل من قد نطق	من الأسر توا نجا وانعتق

ونقول ولو تظننا إن من نظر في شعرهم من شعراء العربية والتركية والأوردية لم يلتفتوا إلى هذا الصنيع والتفت إليه جعفرى الذى عرفنا عنه اشتغاله بالفلسفة ومعالجته النظر فى قضايا الفكر والعلم، مما حملة على أن يذكر هذه المكرمة وينسبها إلى النبي ﷺ، وهى تدل على كثير، لذلك جعلها مسك الختام لما ذكر عن غزوة بدر.

وإذا انتقل إلى غزوة أحد رتب الحقائق ترتيبا ملحوظا فهو يبدأ بما انتهى به أمر غزوة بدر ولا يجعل بينهما فجوة لأنه يؤرخ ويلتزم الدقة فى التأريخ فقد سرد كل ما وقع من أحداث فى تلك الغزوة على التفصيل إلا أنه لم يشر إلى ما أصاب النبي ﷺ فى هذه الغزوة من بأس واكتفى بأن قال إن الجراح أثخته، ويا ليتة ألقى بالا إلى ذكر ذلك لتكتمل صورة هذه الغزوة التى أبرز ملامحها.

إنه فى غزوة الخندق يهتم الشاعر بذكر ما وقع من اليهود وربما أعجله هذا عن أن يوفى سلمان والخندق حقهما من ذكره لهما وهو بذلك يختلف عن جالندري وأحمد محرم.

منتخبات مترجمة من ملحمة الإسلام لحفيظ الله جالندري (*)

فضل غزوة بدر

- ١- تواريخ بدر رويت أنا صحائف تير لهن سنا^(١)
- ٢- عززنا بفضل جهاد لنا أظعنا صبرنا ونلنا المنى
- ٣- وقرأنا منه نعم الدليل فنصر بيد عديم المثيل
- ٤- وفي سورة جاء هذا الخبر ملائكة أنزلت كالطر^(٢)
- ٥- وما كان حول لأهل اليقين ولكنهم بددوا المشركين^(٣)
- ٦- مضت فئة ما لها من حسام وغير الشهادة ما من مرام
- ٧- وما من عديد وما من عتاد وإيمان قلب لها خير زاد
- ٨- وما رام عرشا وتاجا أحد ولكنه قال ربى أحد
- ٩- وداد وحب لهم واتحاد على حب طه أقاموا العماد
- ١٠- مضوا فى خطى لنبي الهدى بطوفانهم لم يهابوا الردى
- ١١- وفى عيشهم بطريق الوفاء ثبات كطود علا فى السماء
- ١٢- قليل على مستقيم الطريق لهم كثرة، وقفة لا تطيق
- ١٣- ونصر من الله للمؤمنين على شائيتهم من الأكثرين^(٤)
- ١٤- من الله سخط على من بغى ويرضى على من رضاه ابتغى

مشاهدة غزوة بدر

- ١٥- وفى يوم بدر رأينا الغزاة كمن سارعوا قبل فوت الصلاة
- ١٦- وللقوم صبر وفيهم جلد ولم يرهب الموت منهم أحد

(*) تعاون معى فى ترجمة هذه النصوص عن الأوردية الأستاذ يوسف عامر بجامعة الأزهر شكر الله له

(١) التمر، الذهب، الساب، الصوء والبريق

(٢) هى سورة الأنفال.

(٣) الحول القوة

(٤) الشايغ، الكاره

- ١٧- عديد قليل ضئيل العتاد وما دب يأس لنا فى الفؤاد
١٨- هو الحق فى يوم بدر غلب وما ثقة القوم إلا ببر
١٩- وإيمانهم كان نعم الجزاء وجيش قريش مضى كالهباء
٢٠- ومعجزة ما نرى فى اتحاد وباطل أعدائنا قد أباد
٢١- ذليل يبدر أراد العلاء فداء له كل نجم فداء
٢٢- لأحيائنا بعد نصر ثواب بجنات عدن لهم ألف باب
٢٣- أطاع الرسول وخيرا وجد ورأى سديد عليه اعتمد

حكمة تمييز غزوتى بدر وأحد

- ٢٤- بعين من الله نور البصر وفى أحد أرى ما الخبر
٢٥- وعين البصيرة منك افتحن عجائب قوم أذلوا الزمن
٢٦- ببدر غزاة أطاعوا الرسول وفى أحد حمستهم عقول
٢٧- نبى الهدى حاربوا الشرك قال مدينتهم غادروا للقتال
٢٨- وفى أحد مشهد ما ظهر بدت محنة عبرة للبشر
٢٩- وإجماعهم عنده الأفضل فسل حساما لمن يقتل
٣٠- من اهلك فى يوم بدر وقاء وفى أحد للوفاء ابتلاء
٣١- وصيتهم أنهم يصبرون تخون عهد فما يعرفون
٣٢- عن الجاه صدوا وعن فضل مال لنصرة دين مضوا للقتال
٣٣- ولا بد فى ذاك من قدوة فسبعون ما اختار من صفوة
٣٤- نبى الهدى سيد المرسلين أحسوه يرحمهم أجمعين

أبو سفيان

- ٣٥- وهذا ابن حرب مغيظا يكيد عدو بنى هاشم دا عنيد
٣٦- حفيد أمية وهو الحرد ونور الهداية لم يرد^(١)
٣٧- بنو هاشم ساء أمرهم وأحزن قلبا له خيرهم

(١) الحرد: العصبان.

- ٣٨- لقد عاب ما عاب من دينهم
 ٣٩- من الله سخط عليه النزول
 ٤٠- ولو لم يكن منهم أحمد
 ٤١- وفي صدره حقه يندلع
 ٤٢- وكم هامة فكرها قد أمال
 ٤٣- وكان ابن حرب وسيع الثراء
 ٤٤- وكان ابن عتبة من قومه
 ٤٥- وقام ابن حرب لثأر يريد
 ٤٦- هـداه الإله إلى دينه
- فقد رفع الدين من شأنهم
 نبى الهدى ما رآه الرسول
 لقال رضيت وقد أحمد
 ومن شعره صوت حرب سمع!
 أبو لهب رام خوض القتال
 وللحرب قال النجاء النجاء^(١)
 له القتل أزمع فى يومه
 ليوم بيدر فسادى اليهود
 أخيرا وأسلم فى حينه

هند

- ٤٧- أهند له زوجة يا ترى
 ٤٨- لها أمل قط ما للرجل
 ٤٩- أبوها بيدر يقود الجنود
 ٥٠- وهذين ها جمزة قد قتل
 ٥١- على يقود وحمزة قاد
 ٥٢- لقد أفعمت قلبها بالحسد
 ٥٣- على بالها مر أمر عجب
- فما من صفات نساء ترى!
 تقول فتجذب أو لم تقل
 أخ وابنها يرفعان البنود^(٢)
 ورأس أخيها على قصيل^(٣)
 جيوشا فقامت لأجل الجهاد
 تموت لمحياتها من كمد
 أمن كبد إلى أكل وجب

قبيل غزوة بدر

- ٥٤- وجيش قريش أعد الصفوف
 ٥٥- وهذى الصفوف جدار الحديد
- وقواده فى انتباه وقوف
 سيوف رماح بدت من بعيد

(١) النجاء السرعة

(٢) البنود: الأعلام

(٣) قصيل: قطع.

- ٥٦- من الجور غيم أظل الأنام من الحقد أفعى تمج السمام^(١)
 ٥٧- حسام له الغمد حقد الصدور عدو مبين لقلب طهور
 ٥٨- على الرأس والصدر كان الحديد على الخيل والصخر كان الجنود
 ٥٩- أكانت عقارب أو ذى سيوف أكانوا أفاعى تبغى الختوف^(٢)

حكاية نساء قريش فى أحد

- ٦٠- نساء قريش أطلن الغناء قرعن دفوفاً تصم السمام
 ٦١- خرجن تلوين مثل الصلال بلحن حزين أثرن الرجال^(٣)
 ٦٢- وهند أمام النساء أتت كنار من الغيم قد أفلتت

من يحارب من؟

- ١- وجيش أتى مثقلاً بالحديد كسيل رهيب أتى من بعيد
 ٢- وكل بئيس^(٤) وكل بطل يبيت شراً لخير الرسل
 ٣- وأمر النبى لأمر عجب لسان بكى^(٥) يزيد الذهب
 ٤- ولم يرهب السيف لا والنبال تأهب فى قوة للئزال
 ٥- قريش بأنفسهم يفخرون وأهل التقى أهلهم يذكرون
 ٦- مفاسدهم طالما دبروا وأهل الهدى أرضهم عمروا

قصة نساء قريش فى الأردنية

- ١- ألا إننا البرق فى نوره وفى الليل نار لديجوره^(٦)
 ٢- وما نحن إلا بنات الضياء ومن غيرنا فى ظلام أضاء

(١) السمام: جمع سم.

(٢) الختوف: جمع حنف أى الموت والهلاك.

(٣) الصلال: جمع صل وهى أحث الحيات.

(٤) بئيس: شجاع.

(٥) بكى: قليل الكلام.

(٦) الديجور الطلام

- ٣- نسير على بسط من حرير
٤- على الصدر رأس لنا إن أميل
٥- طلاسّم نحن للون وريح^(١)
٦- لنا طرر يا لها من عبير
٧- ألا إنّنا البرق فى نوره
٨- ونسكن نجما كمثل الملك
٩- وإن كان فيكم شجاع همام
١٠- وما فى السماء لهم من حسان
١١- عتادا عظيما لكم فاجمعوا
١٢- فراش لكم حضسه تدخلو
١٣- ونسكن نجما كمثل الملك
- كان الطيور الهوى تسير
ففى عشقنا قلب صب عليل
وفى نظرة نحن غيم بريح
تصاعد من قلب زهر نضير
وفى الليل نار لديجوره
من الجن نحن بهذا الفلك
أتانا بشلو^(٢) لهم أو بهام^(٣)
يقدمن منهن كل التهاني
وذلك مغنمكم فلتنعوا
ن فى أرضكم تلك يوم الوكون^(٤)
من الجن نحن بهذا الفلك

جفاء وصفاء

- ١- وجيش الرسول قليل ضئيل
٢- وسبع مئات عديد الغزاة
٣- وأنصارهم بل من هاجروا
٤- عداء لهم كان جد شديد
٥- وهذا أراد لذك الفناء
٦- فمن ذا الذى حالهم غيرا
٧- رأى المشركون الوئام استتب
٨- تأجج نار بذاك الجنان
٩- وهجرا^(٧) وفحشا لسان يقول
- وشمس الضحى منه خير البديل
عليهم يؤدون فرض الإله
وأوس وأخرى لكم بشروا^(٥)
لهم بعده الود ود أكيد
ومن بعد بالروح شاء الفداء
جنان^(٦) لهم واحد يا ترى
ففى الصدر منهم سعي الغضب
ووجه من الخبث مثل الدخان
وفى ذاك للأوس قول يطول

(١) لون وريح، لون ورائحة.

(٢) الشلو، العصور

(٣) الهام: جمع هامة أى الرأس.

(٤) الوكون أو كوار الطيور وذكر اليوم هناك يقصدان أرضهم صارت حربة

(٥) بشروا يريد أن يقول إن الأنصار والمهاجرين بشروا بالصر

(٦) الحان، القلب

(٧) المحر: الكلام السيئ - القول القبيح

حنظلة بن أبي عامر رضى الله عنه

- ١- يقول لى الرب ما لى سواه وفى أحد كان بين الغزاه
- ٢- أراد ليمحو هذا الفساد ولكن لأمر النبى انقياد
- ٣- كما أنه خاب فى مطلبى فما إن تحقق قتل الأبى
- ٤- هو الحتم هذا وكل وعاه فمن ذاك يقتل يوما أباه

على بن أبى طالب كرم الله وجه

- ١- على وجه خير البرايا ابتسام وصمت وفى العين بعض الكلام
- ٢- وطال انتظار بمن جاهدوا فمن منهم يا ترى يسعدوا
- ٣- وفاز على بحب الرسول وفى نفسه قط ما من مثيل
- ٤- وبارز طلحه وهو البطل إنه الليث أما قتل^(١)

وحشى

- ١- وحمزة عم جبير قتل وفى كل هذا شديد الدخل^(٢)
- ٢- ووحشى عبد قبيح السواد خبيث وفيه عنيف العناد
- ٣- وفى الحرب كان قوى الصراع وقتل^(٣) لكن بجبث الخداع
- ٤- وهند دعت به باغرائها ومنته مال بإيمائها
- ٥- وقالت ستعتقه لا جرم وتغرقه فى عميم النعم^(٤)
- ٦- لقد أسكرته بخمر الغباء ليقتل حمزة وهو البراء
- ٧- لذا سر عبد عديم الوفاء ففى أسر رق له الحال ساء

(١) أما من أن المصدرية وما الباقية، ويعرف على بن أبى طالب بـ (أسد الله)

(٢) الدخل، فساد القلب.

(٣) قتل بالتشديد مبالغته فى قتل

(٤) لا حرم: حق أو لا شك

ثورة الانتقام ليوم بدر

- ١- قريش تقاسى أليم الحزن
- ٢- وشاءت لتهلك من أسلموا
- ٣- أولئك قتلى بيد لهم
- ٤- وأسراهم كلهم أطلقوا
- ٥- أسارى وكانوا من البائسين
- ٦- وسبعون كانوا من الهالكين
- ٧- دليل التعصب ذا والغباء
- ٨- فنار تسعر فى صدرهم
- ٩- وكسرتهم تلك لم تغتفر
- أرادت لتضرم نار الفتن
- وأصنامها طامسا حطموا
- فللثأر قد جددوا عزمهم
- وبالمال من أسرهم أعتقوا
- تناسوا رضا رحمة العالمين
- فيا للمهانة من مسلمين
- على العنف والبطش فيه اتكأ
- دماء تدفق فى خمرهم
- بألم قلب لهم من حجر

ليلة أحد

- ١- لدى المسلمين طويل الجلد
- ٢- هم المسلمون وإيمانهم
- ٣- بساط لعرش مصلى النبى
- ٤- ضياء لبدر أضواء الجبين
- ٥- هنا متقون وهم ساجدون
- ٦- هنا من يصلى طوال الدجى
- ٧- بلال يؤذن قبل السجود
- ٨- يؤم الأنعام نبى كريم
- ٩- إله لهم ها هنا يعبدون
- ١٠- صلاة هنا أو صعود الدعاء
- ١١- هنا المؤمنون جميعا سواء
- وفى المشركين الجحيم اتقد
- ولكن قريش وشيطانهم
- خباء^(١) ابن حرب مقر الدنى
- وفى القلب ظلمة حقد دفين
- هنالك خمر لهم واجدون
- هنالك من كأسه المرتجى
- طبول تدق كقصف الرعود
- وشيطان قوم مضل رجيم
- هنالك أصنام قوم مئون^(٢)
- هنالك طبل ومحض الهراء
- وفى الكفر جور لدى الأقوياء

(١) الخباء: الحيمة

(٢) مئون: مئات

- ١٢- ودين وتقوى لدى المسلمين
١٣- لهم عبرة بعد طول النظر
- سلاح وبطش لدى المشركين
فغابت نجوم وغاب القمر

فجر أحد

- ١- تنفس صبح ودينا أنار
٢- ولليل سحر وها قد بطل
٣- وريح ومنها شديد الهبوب
٤- ودام على ذلك جو الجنان
٥- فللصبح وجه كئيب كئيب
٦- وللصبح وجه وفيه التماع
٧- على أحد كان لو الدماء
٨- وحوش وطير أتت لالتهام
٩- عدو أتى مسرعا فى خطاه
١٠- دموع بعين النبى جرت
- فعن أحد زال ليل السرار^(١)
وليل تولى ففجر أطل
وكم بسمت لها من قطوب
ولكن تبدله الآن حان
عن الأرض شمس تريد المغيب
حديث الشهادة دوى وذاع
لحرب ينوء بها الأقوياء
ومكة جاءت لقتل الفئام^(٢)
عدو لدين حبيب الإله
لآل يحوف السورود سرت

احتشاد لغزوة أحد

- ١- وفى أحد فئة تختلف
٢- لهم ظاهر خادع سحره
٣- بدوا للعيان على موقف
٤- فأعمالهم تلك أمر عجيب
- طباع لها قط لا تأتلف
لهم باطن كامن غيره
مآرب أخرى لهم تختفى
وبياتهم تلك شىء غريب

(١) ليل السرار: الليل الذى لا قمر فيه.

(٢) يقول: إن الوحوش والطير جاءت لالتهام جثث القتلى.

الفئام: الجماعة من الناس والمراد بها جماعة المسلمين.

هلم المشركين من حمزة رضى الله عنه

- ١- ألا إن حمزة ليث الحسام على رأسه ريشه للنعام^(١)
- ٢- أمارته تلك فى حربه ولكه الليث فى قلبه
- ٣- وخاف ابن حرب وأما عدم على غدر شيبة ها قد ندم
- ٤- وصاح ابن حرب وقال الحذر عدوك قاتل وكن ذا بصر^(٢)
- ٥- لحمزة سيف يذيق الحمام ومنه نجاتك كل المرام
- ٦- بئس شديد عنيف النزال فكن خلفه عند بدء القتال
- ٧- تقدم حمزة فى منة^(٣) فجذل^(٤) شيبة من طعنة

جيش الأحزاب

- ١- غرور وجهل من الجاهلين ومن كان فيهم من العاملين
- ٢- يهود وفتنتهم أوقدوا نوازع شر لهم أيدوا
- ٣- إغواء بيد لقد شاهدوا ولكن عدا لهم أكدوا
- ٤- أولو أمرهم إنهم مفسدون إلى الشر فى نهجهم قاصدون
- ٥- بنو يعرب كلهم حاربوا خباثتهم فطرة جربوا
- ٦- فما الخير أو مستطير^(٥) الشرور؟ يوسوس شيطانهم فى الصدور
- ٧- كما السيل تدوا^(٦) على المسلمين وأحزابهم عن عدا تبين^(٧)
- ٨- وطوفان جيش عظيم غمر وما كان للبيد^(٨) عنه الخير

(١) كان حمزة يلبس عمامة عليها ريشة من ريش النعام.

(٢) أبو سفيان يحاطب أنا شيبة وينصحه بالتأني والحكمة فى قتال حمزة

(٣) المنة: القوة

(٤) حذله: ألقاه على الأرض.

(٥) شر مستطير: منتشر.

(٦) شد: تقدم وهجم.

(٧) تبين: تعلق وتعير.

(٨) البيد: جمع بيداء وهى الصحراء

رأى سلمان الفارسي

- ١- وسلمان ذو الود ود أكيد له الرأى أبداه وهو السيد
- ٢- وجيش لدى المؤمنين لجب^(١) ومنهم حفاظا عليه يجب
- ٣- ضياع مع المشركين القتال وللمؤمنين هلاكك النزال
- ٤- حمايتنا خندق ما أرى ليحضر تسوا بجوف الثرى
- ٥- سنفلح إن تم تدبيرنا على من نعدى به نصرنا

حفر الخندق

- ١- لسلمان رأى رآه النبى وقال بخ جذا مطلبى
- ٢- وفى التو خندقه قد حفر جميع الصحاب بحفر أمر
- ٣- كتائب كانت يجيش لهم رسول الهدى مصلح حالهم
- ٤- وتم بهذا خندق للرسول بأيدى كرام سريعا تجول
- ٥- وكل من الأرض جزء حفر مطيعا فإن النبى أمر

حبيب الله مشاركا فى حفر الخندق

- ١- ونور بأرض بدا للعيون وكان النبى بين من يحفرون
- ٢- وذلك أين^(٢) لأجل السيل^(٣) لدى المصطفى ما له من مثيل
- ٣- بأمر من الله ما قد صنع سما شأنه فى الورى وارتفع

مخاوف قريش

- ١- وما فرق القوم بين الصنم وبين الإله فمنذا علم
- ٢- وبالدين لو كان نور اهتداء وراموا عدالتهم والإخاء
- ٣- لكان جبابرة فى التراب وللظلم صرح هوى فى الخراب

(١) جيش لب: كثير ذو جلبة.

(٢) الأين: التبع

(٣) من أجل السيل: أى فى سبيل الله كل ما يريد ليقول إن هذا أعظم وأفضل ما يكون عند الله ﷺ.

مختارات مترجمة من منظومة تاريخ الإسلام لمنير على جعفرى (*)

- | | |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>بشأن النبى وذا أعلنوا
على هدم دين النبى استقر
وفى هدم دين الهدى فكروا
إلى يثرب للقتال ارتحل
ببال الجاهد ماذا خطر؟
والله أكبر فى كل واد
مضوا للوغى فى ضئيل العدد
وفى الجانين قتال يطول
ولكن ألوف من المشركين
وقوم بكفر لهم أخمدا
وذا كافر صنما قد عبد
وما فى الورى مثله من عظيم^(٢)
من الرعب جيش العدو كالفلول^(٣)
فقال العدو إذن ما العمل؟
لمن ناشبوا الحرب من مسلمين
ونصر الإله لنا حسبنا
فإسلامنا فى الوجود انعدم
بسحق ومحق عداه أصاب
وآخر من هولته لم يعيش</p> | <p>بمكة قوم وقد أيقنوا
لهم عزمهم بعد طول الفكر
وبعد اجتماع لهم قرروا
وكل كمي^(١) حساما حمل
ولما الرسول تلقى الخبر
وأهل الهدى بشروا بالجهاد
لواء علا للنبى انعقد
وبدر إليها وصول الرسول
مئات ثلاث من المسلمين
وقوم حماستهم أوقدوا
لرب البرية ها من سجد
هنا نحن عند النبى الكريم
على أتى بالحسام يصول
وحمة أبدى ثبات البطل
دعاء الرسول بنصر مبين
عديد قليل قليل لنا
إذا ديننا الحق هذا انهزم
دعاء النبى هو المستجاب
كفور برعب له يرتعش</p> |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

(*) تعاون معى فى ترجمة هذه النصوص عن الأوردية الدكتور جلال حفاوى بجامعة القاهرة شكر الله له

(١) الكمي، الشجاع وحامل السلاح.

(٢) الورى الناس

(٣) الفلول، المهرومون

- ٢٠- ومات كثير من المشركين
 ٢١- وشيبة وعتبة بل والوليد
 ٢٢- وسبعون للنار من كافرين
 ٢٣- بدر من الله كان انتصار
 ٢٤- وللحق كان عظيم الغلاب
 ٢٥- وعثمان للحرب لم يذهب
 ٢٦- له في المدينة كان البقاء
 ٢٧- رقية زوجة هذا الهمام
 ٢٨- إلى يثرب كان عود الرسول
 ٢٩- فقال النبي ألا فاحكموا
 ٣٠- فقال العتيق ومن قد عقل
 ٣١- أولئك قوم من الكافرين
 ٣٢- وأدلى برأى سديد عمر
 ٣٣- فقال ألا أي هذا الرسول
 ٣٤- وقال أسارك ضلوا السبيل
 ٣٥- شديد العقاب فأنزل بهم
 ٣٦- نبي الأنعام يحب عمر
 ٣٧- فخلى سبيلا لهم من كرم
 ٣٨- ألا إنها فدية من كرم
 ٣٩- بتعليمهم كل من قد نطق
 ٤٠- حميد سجايا الرسول الكريم
 ٤١- وبعض أساراه قد أمنوا
- وأودى الردى بالجهول اللعين^(١)
 سواء جميعا وكل فقيـد
 وعشر إلى الخلد من مسلمين
 لتاريخها حبذا من منار
 وقاتل فيـه! جميع الصحاب
 وما ذاك إلا بأمر النبي
 يداوى رقية من بأس داء
 وينب النبي ثنى المقام
 أساراه قد أثقلتهم كبول^(٢)
 عليهم بحكم ولا تظلموا
 فقتل الأسارى من المحتمل
 من الخير صفح عن المذنبين
 فخالف من قبله فى الفكر
 وفى الأنبياء عديم المثل
 لدين لهم ما أرادوا بديل
 لماذا التردد فى قتلهم
 ولكن بقول العتيق^(٣) أمر
 وقال ادفعوا فدية لا جرم^(٤)
 من العلم أنصاره ما حرم^(٥)
 من الأسر توا نجيا وانعتق
 عميق لآثارها فى الصميم
 أبو السعاص منهم له مدعن^(٦)

(١) الجهول: هو هنا أبو جهل.

(٢) كبول: جمع كبيل وهو القيد.

(٣) العتيق: هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

(٤) حرم: لاند.

(٥) الإشارة هنا إلى أنه اشترط على الأسرى أن يدفعوا قدرا من المال ومن لم يستطع علم عشرة من المسلمين

(٦) أبو السعاص هو حتى النسي صلى الله عليه وسلم، ولقد استأذن الرسول أصحابه فى إطلاقه شريطة أن يحل سبيل استه ريب، فحلاها، ومهاجرت.

غزوة أحد

- ١- وكان ابن حرب من المشركين
- ٢- عن الحال إياه كل سأل
- ٣- أفاق ورد على قوتهم
- ٤- أدار حديثا عن المسلمين
- ٥- لإيمانهم لم يخافوا الحمام
- ٦- وضحووا بأرواحهم للرسول
- ٧- وأما الذى أسد الله كان
- ٨- وكل بئس أمام عمر
- ٩- ولما بمكة شاع الخبر
- ١٠- على حربهم وافقوا مجمعين
- ١١- عديد لهم فى جموع ألوف
- ١٢- ونحو المدينة جيش مضى
- ١٣- هم المسلمون وتفكيرهم
- ١٤- فقبل ألا فاذكروا ربكم
- ١٥- هلموا إلى حومة للقتال
- ١٦- فذوقوا عذوبة كأس الشهيد
- ١٧- سريعا أعدوا عتاد الحروب
- ١٨- وذا أحدا مسلم ما يريد
- ١٩- أقل من الألف لكنهم
- ٢٠- يصامد هذا وذاك يغير
- ٢١- تقدم طلحة فى المسلمين
- ومكة وافى مع الخاسرين
- وفى عمق حزنه لم يزل
- بأن الهزيمة حلت بهم
- وفى حربهم قال أسد العرين
- فداء لهم روحهم للحسام
- وما كان شك لهم فى العقول
- عن الحرب لم يثن قط العنان
- أمام العتيق كذا الخصم خمر^(١)
- لهيب حماستهم فاستعر
- فكل بأسيافه يستعين
- مشاة وغير مشاة صفوف^(٢)
- وكان هجوم كهول القضا
- على دينه وحده أمرهم
- فليس سواه لعمري لكم
- وشقوا صفوفنا لأهل الضلال
- بوارا أذيقوا الكفور العنيد^(٣)
- من الرمح والسيف قبل الركوب
- وأما المنافق فهو القعيد^(٤)
- عن الرعب قد نزهوا قلبهم
- وأما العدو فجيش كثير^(٥)
- فمنذا يواجه أسد العرين

(١) البئس الشجاع

العتيق: أبو بكر.

(٢) العديد. العدد.

(٣) بوارا: هلاكا.

(٤) المراد نأخذها من أحد، وما هنا للصلة

(٥) صامد جالد.

- ٢٢- وشيبة تاه برفع العلم
٢٣- لعثمان أقبل ذاك الشقيق
٢٤- سعيد تجنبدل فى الراية
٢٥- يقول كفور لدى العلم
٢٦- وقلب هلوع لمن قد كفر
٢٧- وذعر شديد بهم مستبد
٢٨- على وحمزة شقا الصفوف
٢٩- وكان دجاجة بين الصحاب
٣٠- وعتبة كان مع الكافرين
٣١- أتى الآن لكن أطال المقام
٣٢- لذاك بوحشى أتى مسرعا
٣٣- أشار إليه فرمحا حمل
٣٤- إلى صفوة الخلق جاء الخبر
٣٥- وعن حمزة قيل ولى الشهيد
٣٦- قوى من العزم للمؤمنين
٣٧- ولما رأى المسلمون الظمر
٣٨- وفى مغنم منهم من طمع
٣٩- كثير الغنائم كل جمع
٤٠- لقد قادهم خالد مرة
٤١- بليلى لهم شغلهم والنهار
- فأرداه حمزة مثل النعم^(١)
سعيد، ليرأس ذاك الفريق
وذل اللواء عن الهاوية^(٢)
ومسلمهم قال لا ما اعتصم
ومؤمنهم قال أبغى الظفر
ومتنى ومثنى لهم جد جد
فشدا عليهم كسبرق مخوف^(٣)
ومن سيد الخلق سيفا أصاب^(٤)
شجاع ولكن من الماكرين
أبوه قتيلى أتى لانتقام
له القلب من بهجة أترعا^(٥)
وبالرمح حمزة تواروا قتل
فهم وغم عليه انهم
فبالجيش أرض كموج تميد^(٦)
أغاروا كسيل على المشركين
قوى من العزم منهم فتر
ونصح النبى له ما سمع
ولكن أمرا عجيبا وقع
وفى الحرب كم كان ذا^(٧) مرة
أتى خالد حول طود ودار^(٨)

(١) النعم البهيمه الراعية.

(٢) تجنبدل. سقط على الأرض، ودل عن الهاوية أى سقط اللواء عن ارتفاعه فى الجو.

(٣) شد' هجم.

(٤) أحمد: هو النبى صلى الله عليه وسلم. أصاب: نال وأخذ.

(٥) أترعا. ملأ

(٦) تميد: تهتر وتضطرب

(٧) المرة: بكسر الميم قوة القلب

(٨) الطود: الحبل العظيم

- ٤٢- له السيف عن مسلم لا يميل
٤٣- رسول الهدى أثخنه الجراح
٤٤- وقيل نبى وأضحى الشهيد
٤٥- بذلك أهل الهدى أخبروا
٤٦- وكان الرسول المعافى السليم
٤٧- لرب حماه الرسول سجد
٤٨- عدو مبين مضى عن أحد
٤٩- ومن مات فى القبر قد أودعوا
- فكم من جريح وكم من قتل
فيا سوء مرة كان غير المباح
ومن قال هذا مرارا يعيد
فكانوا كنار وقد سعروا
حماه من البأس حشد عظيم
فما غيره حافظا قد وجد
فعابد رب الورى كم حمد^(١)
إلى يثرب عودة أزمعوا

٣- غزوة الخندق

- ١- يهود، ويثرب قد غادروا
٢- فراق لها حز فى قلبهم
٣- وفى خيبر دبوا أمرهم
٤- أثاروا وداسوا على المسلمين
٥- وقالوا لقد شاع دين وعم
٦- جميع القبائل هم ألبوا
٧- بمكة كان اجتماع لهم
٨- ومن أهل مكة بل واليهود
٩- وعن غزوة الخندق القول طال
١٠- ألوف له يطلبون القتال
١١- يهود وغير يهود كثير
١٢- نبى الهدى أخبروه الخبر
١٣- فشاور من صحبه من جمع
١٤- وفى التو سلمان هذا نهض
١٥- بى الهدى شاء أن يأمر
- وطابت مقام لهم خير
وعود لها الكشف عن كربهم
وما إن كفوا أهلها مكرهم
ورغبهم أظهروا معلنين
عدو مبين لدين الصنم
على المسلمين وكم أغضبوا
وللحرب كم ردودا قولهم
تعاون من كل شر يريد
إليها ابن حرب به الشوق طال
فسر وأيقن حسن المال
إلى يثرب هيئوا للمسير
وقالوا له الجيش ها قد عبر
وأدرك من قولهم ما وقع
من الفرس كان لذاك انتفض
له خندقا رام أن يحفر

(١) رب الورى رب الناس

- ١٦- عجيباً رآه العدا كلهم
 ١٧- إلى يثرب ما استطاعوا الدخول
 ١٨- على حفره الفرس قد دربوا
 ١٩- وأثنى النبي على فكره
 ٢٠- وساق ابن حرب له عسكرياً
 ٢١- وبين اليهود ومن كفروا
 ٢٢- وشت لهم أمرهم وانفصال
- تغير من خندق حالهم
 فعنها بعيداً وقوف يطول
 وفي يثرب حفره جربوا
 فأقبل كل على حفره
 ولم يدر في حيرة ما يرى
 خلاف شديد به حيروا
 وكفت قريش لها عن قتال^(١)

(١) أمر شت' متفرق

مراجع البحث

المراجع الشرقية

فى العربية:

- إبراهيم خليل إبراهيم: المعجزات المحمدية (القاهرة سنة ١٩٧٤م).
- ابن الأثير: الكامل (بيروت سنة ١٩٨٧م).
- ابن رشيقي: العمدة (القاهرة ١٩٢٥م).
- ابن سعد: الطبقات الكبرى (القاهرة).
- ابن سلام: طبقات فحول الشعراء (القاهرة).
- ابن طباطبا: الفخرى (القاهرة ١٩٢٧م).
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد (الكويت سنة ١٩٨٥م).
- ابن منظور: لسان العرب (بيروت).
- ابن هشام: سيرة ابن هشام (القاهرة سنة ١٩٣٦م).
- ابن واصل الحموى: تجريد الأغاني (القاهرة ١٩٥٥م).
- أبو النصر مبشر الطرازى: النبذة فى السيرة النبوية (الإسكندرية).
- أبو زيد القرشى: جمهرة أشعار العرب (القاهرة سنة ١٩٢٦م).
- أحمد إبراهيم شريف: الدولة الأولى (القاهرة سنة ١٩٦٥م).
- أحمد شوقي: الشوقيات (القاهرة).
- أحمد محرم: ديوان مجد الإسلام (القاهرة ١٩٦٣م).
- الألوسى: بلوغ الأرب (القاهرة سنة ١٩٢٤م).
- البوصيرى (الإمام): مقدمة ديوان البارودى (القاهرة).
- البيضاوى: تفسير البيضاوى (القاهرة سنة ١٣٠٥هـ).
- التهانوى: كشف اصطلاحات الفنون (بيروت).
- جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى (القاهرة ١٩٦٨م).
- الحبيب شيبوب: الجانب الشعرى عند محرز بن خلف (تونس سنة ١٩٩٤م).

- د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة سنة ١٩٥٧م).
- د. حسين مجيب المصرى: مقدمة كتاب الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية (لبلى) (القاهرة سنة ١٩٨٨م).
- د. حسين مؤنس: دراسات فى السيرة النبوية (القاهرة سنة ١٩٨٤م).
- د. حمزة النشترى: الجهاد فى الإسلام (القاهرة سنة ١٩٨٣م).
- د. حمزة النشترى: بطولات إسلامية فى أحد (القاهرة سنة ١٩٨٣م).
- الخازن: لباب التأويل (القاهرة سنة ١٣٢٨هـ).
- خالد محمد خالد: رجال حول الرسول (القاهرة سنة ١٩٦٧م).
- د. زكى المحاسنى: الأدب الدينى (القاهرة سنة ١٩٧٠م).
- د. زكى مبارك: المدائح النبوية (القاهرة سنة ١٩٣٥م).
- د. سعد الدين الجيزاوى: الملحمة فى الشعر العربى (القاهرة ١٩٦٧م).
- د. سمير عبد الحميد: الأدب الأوردى الإسلامى (الرياض).
- د. سمية حسن إبراهيم: بعض السيوف الأثرية بمتحف قصر عابدين (القاهرة سنة ١٩٩٠م).
- السهيلى: الروض الأنف (القاهرة سنة ١٩٦٧م).
- سيد قطب: فى ظلال القرآن (القاهرة سنة ١٩٩٠م).
- شهاب الدين التلمسانى: أزهار الرياض (الرباط سنة ١٩٨٠م).
- صفى الرحمن المباركفورى: الرحيق المختوم (القاهرة سنة ١٩٨٨م).
- طاشكبرى زاده: الشقائق النعمانية على هامش وفيات الأعيان لابن خلكان (القاهرة سنة ١٢٩٩هـ).
- عبد الله سليمان الأشتقر: زبدة التفسير (كويت).
- عبد الله عفيفى: المرأة العربية (القاهرة سنة ١٩٢٢م).
- عبد الجواد سليمان: شاعر الرسول حسان بن ثابت (القاهرة).
- عبد الحليم محمود: الجهاد والبصر (القاهرة سنة ١٩٧٤م).
- د. عبد الرزاق تركات: أربعون ساعة مع الحضر (القاهرة سنة ١٩٩٢م).

- د. عبد السلام فهمى: القزلباشى (القاهرة سنة ١٩٩٢م).
- د. عبد الشافى غنيم: التاريخ الإسلامى (القاهرة سنة ١٩٨٥م).
- د. عبد العزيز غنيم: محمد ﷺ بين الحرب والسلام (القاهرة سنة ١٩٨٩م).
- عبد الكريم الكربلايى: المنظومات الحسينية (النجف الأشرف).
- د. عبد النعيم حسنين: سلاجقة العراق وإيران (القاهرة سنة ١٩٧٠م).
- د. عزة الصاوى: الاتجاه الإسلامى فى أدب نجيب فاضل رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م.
- العقاد: عبقرية الإمام (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- د. على الخربوطلى: الرسول فى رمضان (القاهرة سنة ١٩٦٨م).
- القرطبى: تفسير القرطبى (القاهرة).
- القشبرى: الرسالة القشبرية (بيروت سنة ١٩٩٠م).
- لويس شيخو: أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء (بيروت سنة ١٨٩٦م).
- المحب الطبرى: الرياض النضرة (القاهرة).
- د. محمد إبراهيم الجيوشى: شاعر العروبة والإسلام (القاهرة سنة ١٩٦١م).
- محمد أبو زهرة: خاتم النبيين (القاهرة سنة ١٩٧٩م).
- محمد إسماعيل: الجهاد فى الإسلام (القاهرة سنة ١٩٦٤م).
- محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- د. محمد حسين هيكل: حياة محمد (القاهرة سنة ١٣٥٤هـ).
- محمد رضا: محمد رسول الله (القاهرة سنة ١٩٦٦م).
- د. محمد صبرى: أدب وتاريخ واجتماع (القاهرة سنة ١٩٥٠م).
- د. محمد عبد المعيم حفاحى: السيرة النبوية الخالدة (القاهرة).
- محمد الغزالى: فقه السيرة (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- محمود سامى البارودى باشا: كشف الغمة فى مدح سيد الأمة (الكويت سنة ١٩٩٢م).

- المربزبانى: الموشح (القاهرة سنة ١٣٤٧هـ).
- مسلم (الإمام): صحيح مسلم (القاهرة سنة ١٩٨٧م).
- مصطفى صادق الرافعى: إعجاز القرآن (القاهرة سنة ١٩٢٨م).
- مصطفى صادق الرافعى: تاريخ آداب العرب (القاهرة سنة ١٩٥٤م).
- المقدسى: البدء والتاريخ (باريز ١٩٠٧م).
- المقرئى: إمتاع الأسماع (القاهرة سنة ١٩٤١م).
- المنصورى (الإمام): ديوان محمود سامى باشا البارودى (القاهرة).
- النسفى: تفسير القرآن الجليل (القاهرة سنة ١٩٣٦م).
- نظر على حائرى: الغرة البيضاء فى فضائل سيد الأوصياء (النجف الأشرف سنة ١٣٢٩هـ).
- د. نفوسة زكريا سعيد: البارودى حياته وشعره (الإسكندرية سنة ١٩٩٢م).
- نور الدين الحلبي: السيرة الحلبية (القاهرة سنة ١٣٣٩هـ).
- الواقدى: كتاب المغازى (أكسفورد سنة ١٩٦٦م).

فى الفارسية:

- إقبال: جاويد نامہ (لاهور سنة ١٩٤٨م).
- حسن عميد: فرهنگ عميد (تهران).
- حسين واعظ كاشفى: روضة شهدا (لكهنو سنة ١٣٠٣هـ).
- حسين واعظ كاشفى: روضة شهدا (لكهنو ١٣٠٣هـ).
- خواند امير: حبيب السير (تهران ١٣٣٥هـ).
- دهخدا: ألقت نامہ (تهران ١٣٥٣هـ).
- رضا زاده شفق: تاريخ أدبيات إيران (تهران ١٣٢١هـ).
- زهراى حائلى: فرهنگ أدبيات فارسى درى (تهران د.ت).

- د. سجادی: فرهنگ اصطلاحی عرفانی (تهران ۱۳۵۴هـ).
- محمد علی خلیلی: زندگانی محمد بیغمبر اسلام (تهران ۱۳۳۷).
- میر خواند: روضة الصفا (تهران ۱۳۲۸هـ).
- د. نصر الله فلسفی: زندگانی شاه عباس کبیر (تهران د.ت).
- نظیری نیشابوری: دیوان نظیری نیشابوری (تهران د.ت).
- نیساری: تاریخ ادبیات بکدار اسلام (تهران د.ت).
- وحشی یافقی: دیوان وحشی یافقی (تهران د.ت).

فی الترتیبة:

- راشد: تواریخ انبیا (اسطنبول ۱۲۸۱هـ).
- شمس الدین سامی: قاموس الأعلام (اسطنبول ۱۳۱۱هـ).
- کوبریلی زاده محمد فؤاد: وشهاب الدین سلیمان، بکی عثمانلی تاریخ ادبیاتی (اسطنبول ۱۳۳۲هـ).
- کوبریلی زاده محمد فؤاد: تورك ادبیاتی تاریخی (اسطنبول ۱۹۲۶).
- لامعی: نفحات الأنس (اسطنبول ۱۲۷۰هـ).
- یازجی أوغلو محمدیه (صورة من مخطوط بمكتبة السليمانية باسطنبول).
- Aly Oguzkan Mustafa Miyas oglunun Edebi eserlerinin icnlenmesi yuksek Lisons tezi Istanbul 1988).
- Ali Baraloy'; Turk Halk Edebiati (Istanbul 1969).
- Develli oglu. Kilickin enyeni Buyuk Turkce Sozluk (Istanbul).
- Dursun Fakih Gazavat-i Rasulullah (Istanbul).
- Evliye Celebi: Seyahatname. Istanbul 1938.
- Elhan Gecer: Cumhuriyet doneminde Turk siiri (Istanbul).
- Hasan Akosy: Turk dili ve edebiyat, ansiklopidisi Istanbul 1977.

- Ihsan isik, yazarlar sozlugu Istanbul 1990.
- Ihsan sureya Sirma: Islami tebligın Medine Donemi ve cihad. (Istanbul 1986).
- Ismail mutlu: Sahabiler Ansiklopedisi (Istanbul 1989).
- Ismail Kara osman oglu Aylik Dergisi Istanbul 1982.
- Kaya: Islam Edebiyat alanında buyuk bir isim, Islan Edebiyat Dergisi 1990.
- Kemal Karalioglu: Resimli turk Edebiycilar sozlugu Istanbul 1982.
- Mustafa Miyas oglu: Hicret Destani (Istanbul 1981).
- Nihad Sami Banarli: Resimli Turk edebiyeti Tarihi (Istanbul 1971).
- Ogut: Eyyubsultan (Istanbul 1957).
- Yaza: Edebiyaticimiz ve Turk Edebiyati. (Istanbul 1938).

فی الأوردية:

۱ - حفیظ اللہ جالندری: شاہنامہ اسلام (لاہور).

۲ - منیر علی جعفری: اسلام کی تاریخ (لاہور).

المراجع الأوربية

فى الإنجليزية:

- Benjamin: persia ant persians (London 1887).
- Ferozsons: Urdu English Dictionry (Lahor).
- Knowles: The experience of poetry (London).
- Levey: The social characture of Islam (cambridge 1957).
- Mac Abe: The splendor of moorish spain (London 1935).
- Muhommed Sadiq: A history of Urdu litrature (London 1964).
- Monroe: Turkey and Turks (London M Dccvl).
- Red hause: A lexicon of Turkish and English (London 1990).
- Servier: Islam and the psychology of musulman (London 1924).
- Wilson Cash: The Expansion of Islam (London 1928).
- Wollaston: The sward of Islam (London 1905).

فى الفرنسية:

- Emile Dermonghem: LA vie de Mohamet (Paris 1929).
- Lammens: L'Islamic Croyancer et institutions (Bayrouth 1926).
- Loti: Aziyade (Paris).
- Masse: L' Ame de L'Iran (Paris 1951).

فى الألمانية:

- Ethe: Uber persishe Tenzonen (Berlin 1882).

فى الإيطالية:

- Baurani: Storia della letteratura dell Pakistan (Milono 19958).
- Pareja: Islamologia (Roma 1951).

في الروسية:

- Braginsky: Antologio Tadjsskova poesii (Moskva 1956).
- Lepkin: Shakh Name (Moskva 1955).

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	- مقدمة
	الباب الأول
٥١	الغزوات فى الشعر العربى
٥٣	- الفصل الأول: (فى الشعر العربى القديم)
١٠٣	- الفصل الثانى: (فى الشعر العربى الحديث)
	الباب الثانى
١٣٥	الغزوات فى الشعر التركى
١٣٧	- الفصل الأول: فى الشعر التركى القديم
١٥٥	- الفصل الثانى: فى الشعر التركى الحديث
	الباب الثالث
١٧٣	الغزوات فى الشعر الأوردى
١٧٥	- الفصل الأول: فى الشعر الأوردى القديم
١٧٩	- الفصل الثانى: فى الشعر الأوردى الحديث
	مختارات مترجمة إلى الشعر العربى من الشعر الأوردى
١٩٠	- من ملحمة الإسلام لحفيظ الله جالندرى
٢٠٠	- من منظومة تاريخ الإسلام لمنير على جعفرى
٢٠٧	- المراجع

دار النضر للطباعة والإستشارات
٢ - شارع لستاقى شبرا القضاة
الرقم البريدى - ١١٢٣١

تعد مؤلفات رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى، الدكتور حسين مجيب المصرى من المصادر والمراجع الأهم فى بابها. وتقديرا من الدار الثقافية للنشر لحجم الإنجاز العلمى الذى قدمه هذا الرائد الكبير فإنها تعيد إصدار مؤلفاته التى استغرقت إعدادها ما يزيد على ستين عاما من العمل الدعوى والجهد المخلص. وقد اعتمد فى تأليفها على مراجع لا تحصى فى تسع لغات يجيدها، أربع منها شرقية، وخمس أوروبية، وعقد المقارنات والموازنات بين آداب الشعوب الإسلامية: العربية والتركية والفارسية والأوردية، مما اقتضى منه الخوض فى مختلف التيارات الروحية والأدبية والاجتماعية فى إطار تاريخى يجمع شتاتها ويشكل منها نسقا معرفيا جديدا وفريدا، لا تبالغ إذا اعتبرناه واحدا من أسس الوحدة الثقافية المتشودة بين الشعوب الإسلامية.

وهذا الكتاب:

غزوات الرسول

بين شعراء الشعوب الإسلامية

هو دراسة هامة وشاملة لغزوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتجسيد لما لها من مرموق الأهمية لدى الشعراء المسلمين، وفى تاريخ الإسلام عموما.

والكتاب يقدم غزوات الرسول باعتبارها نموذجا صادقا ناطقا عن نفسية وواقعية المسلمين الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، كما أنها المثال الأمثل للجهاد فى سبيل الله الذى هو بغية المتقين الذين يعقدون أملهم بالتنعيم فى عليين.

ISBN 977-5875-69-2



90000

